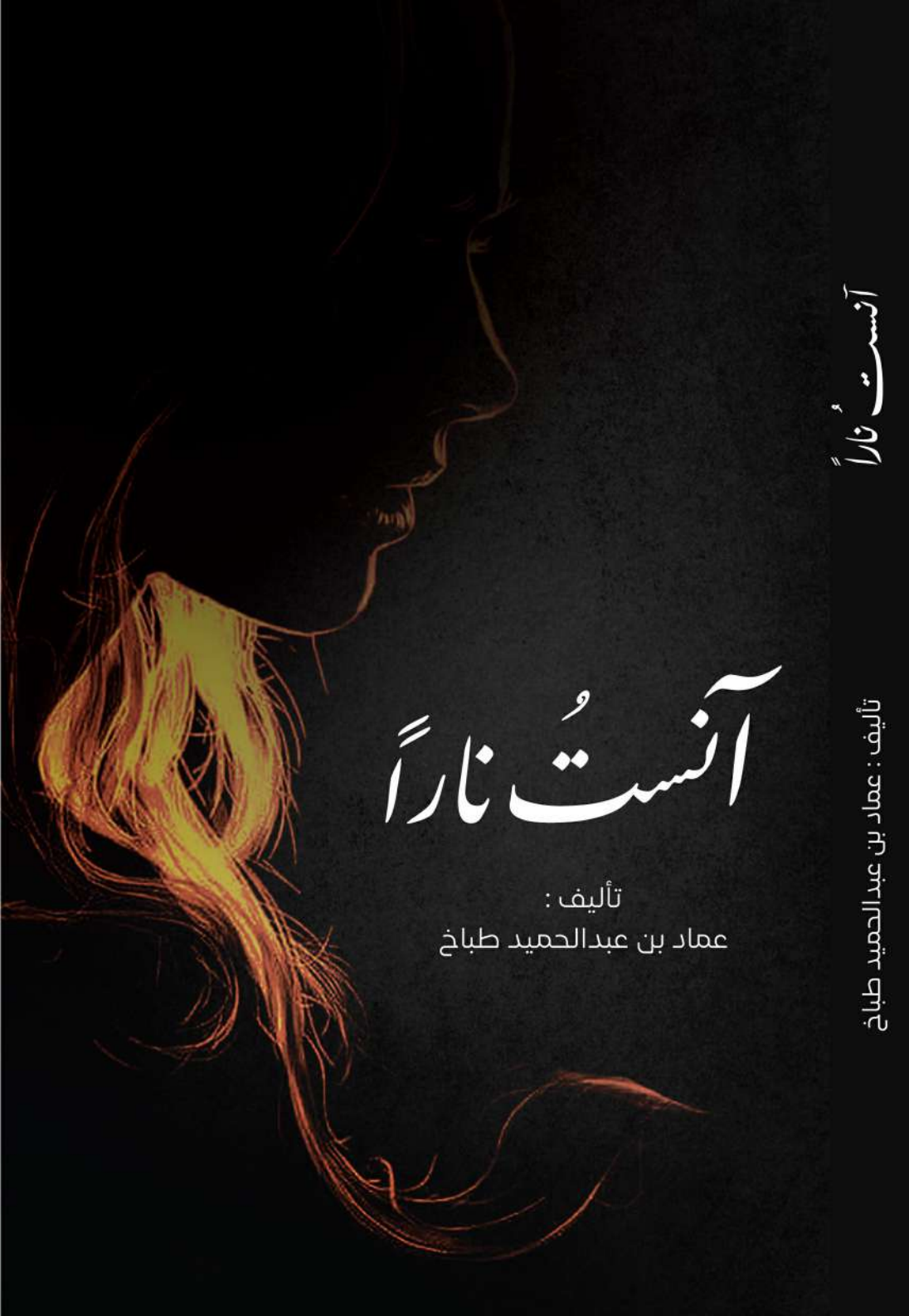

آنستُ نارًا

تأليف :
عماد بن عبدالحميد طباخ

آنستُ نارًا
تأليف : عماد بن عبدالحميد طباخ

آنستُ نارًا

ح عماد عبد الحميد عبد الجليل طباخ، ١٤٤٦ هـ

طباخ، عماد بن عبد الحميد عبد الجليل

آنست ناراً. / عماد بن عبد الحميد عبد الجليل طباخ - ط ١. .- مكة المكرمة، ١٤٤٦ هـ

ص؛.. سم ٢٩٩

رقم الإيداع: ١٩٢٩٣ /١٤٤٦

ردمك: ٨ -٩٣٥٣-٠٠-٦٠٣-٩٧٨

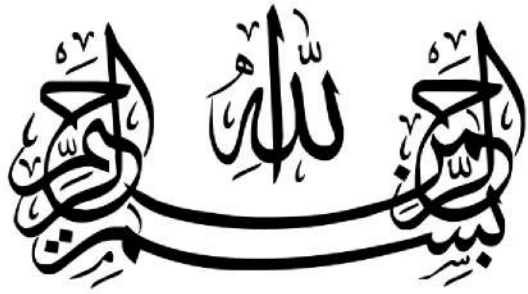
بسم الله الرحمن الرحيم

إن كان وقتك يفيض، وقلبك يتحمّل،

فعندي قصةٌ أقصها لك...

عن حبيبةٍ أحببتُها من طين، تسرّبت إلى قلبي

حتى اختلطت به، وعجزتُ عن فصل أجزائها عني،
فتلاشت بداخلي كأنها جزء منّي.

ثم أحببتُ أخرى... من نار فأحرقت طين قلبي،

حتى صار فخّارًا تظنه صلبًا،

لكنه حين سقط تهاوى متناثرًا إلى ألف قطعه،

لا جدوى منه، ولا من نهاياتٍ سعيدة.

تنويه

لا تفتح هذه "الصفحات" قبل أن تُعوّذ قلبك تعويذ المبتلى؛ فهنا كلماتٌ تَمسّ كما يمسّ السحرُ عينًا غافلة، وقد تندسّ كريحٍ عقيم، لا تُبقي ولا تذر، فلا تُؤتمن على قلبٍ عارٍ من الحصانة.

الآسرة

هناء

عماد

إيتان

سلطان

عبد الله

أبو صالح

العجوز

ليت الله يكتب لنا لقاء، ونلتقى؛ لأحكي لكِ ...

ليلي من بعدكِ خاوٍ إلا من نحيبٍ مكتوم، وحين تغفو المدينة، تصحو "هزيمتي" عروسًا سوداء، تتعطر بالخيانة وتكتحل بالخذلان، تطرق الأبواب بأظافرها الطويلة، وتدخل بلا استئذان، كريحٍ عقيم لا تأتي بخير.

في الصباح، تترك على عتبة قلبي وليدًا لقيطًا: عيناه زائغتان، فمه معوّج، روحه مثقوبة كقِربةٍ نُسيت في قعر بئر، لا يشبهني ولا أعرف ملامح أبيه. أحتضنه رغم قبحه، وأطوف به بين الناس كعارٍ لا يُخفى، كقميصٍ ملطّخ لا تُصدّق براءته.

ومع مرور السنين، لم يعد طفلًا ولا صار رجلًا؛ ظل عالقًا بين الطفولة المشوّهة والكهولة المبكرة، وجهه كقناع من طين متشقق، عيونه غائرة كجُبٍّ بلا قرار، يمشي في أركان حياتي حافي القدمين، يخلّف وراءه بللًا غامضًا ورائحة زنخة لا تشبه رائحة البشر.

كلما غربت الشمس، يبدأ صراخه يتضخّم، كأنه النفخ في الصور؛ يملأ أرجاء صدري، يتسلل إلى أحلامي، يحرّك بأصابعه الصغيرة الأبواب المغلقة في ذاكرتي. كأنّه لم يُخلق لِيَسكُن، بل ليُقيم القيامة في داخلي كلّ مساء.

يهمس لي بكلماتٍ غريبة، كحفيف ورقٍ يابس في مهبّ ريح. ظننتني أربيه، فإذا بي أنمو على مقاسه. يعلّمني الخوف، ويُطعمني الندم. يحكي لي عن ليالٍ لم أعشها، لكنّ قلبي يعرفها.

أحيانًا، حين يجنّ الليل، أراه يقف عند نافذتي، ينظر للسماء بعينٍ واحدة، وعندما يلتفت إليَّ، أرى وجه أبي، ووجه أمي، ووجهي أنا، كلهم مطموسون، بلا ملامح... عندها فقط أفهم أن هذا الطفل ليس سوى خُلاصة "ذنوبي وهفواتي"، مولود من لحظة سهو، تربّى في حضن التردد، وشبَّ على يد الخوف.

كنت أظنه ابني، لكن عند الغروب، حين يبدأ الأفق بالاحتراق، وأذان المغرب يختلط بصوت الريح، أراه يتبدّل. عيناه تلمعان ببريقٍ غريب، أنفاسه تثقل، وجسده الصغير ينتفض كأن نارًا خفية تسري فيه.

آنذاك أتذكر ما خُبّرنا به أن الشياطين، عند مغيب الشمس، تهيم في الأرض أفواجًا، تتراكض بأعداد لا يحصيها إلا خالقها، تبحث عن مأوى يقيها فتك بعضها. منهم من يندس في إناءٍ مهجور، ومنهم من يلوذ بجدارٍ مظلم، ومنهم من يأوي إلى جسد إنسي ضعيف لم يُحصن بالأذكار.

أرتجف، أتساءل: كم مرةً نسيته وقت الغروب؟ كم بابًا تركتُ مواربًا؟ كم نافذة فتحتُها دون أن أذكر اسم الله؟

كنت أظنه طفلي... لكنه ربما كان مأوى مؤقتًا لضيفٍ لا يُرى. ضيفٍ استوطن ضعفي قبل أن يستوطن جسده.

وبعد عامين من ولادته، وفي الرابع من يناير، تغيّرت حركاته فجأة: تشنجات متقطعة، رعشات عنيفة، حركات التوائية مباغتة.

بدأ يميل إلى العزلة، ينفر من التجمعات، يضيق صدره في حضور الناس، ويعرض وجهه كلما سمع الأذان أو مرت آية من القرآن. في منتصف الليالي، أسمع من غرفته حفيف الألعاب تتحرك وحدها، سيارة تدور دون يد، طائرة تهتز فوق الأرض، وأراه ينظر إلى سقف الغرفة ويبتسم، يحرك يده على أركان الجدران ويتمتم بكلماتٍ غريبة، مبعثرة الحروف. كأنما تُساق إليه الأوامر من حيث لا يدري، وتُفتح له الأبواب التي لا تُفتح إلا بإذن، فتتحرك الأشياء كما لو قُضي الأمر الذي كان مفعولًا.

ثم بدأت أجد في غرفته ما لا أفهمه: قطع حلوى مجهولة المصدر، أوراق مطوية بعلاماتٍ غريبة، أزرار وأعواد وعظام دقيقة كأنها تنتمي لطيورٍ أو مخلوقات لا أعرفها. حينها بدأت أشعر أنني لست أمام ابني الذي ظننته من صُلبي؛ بل أمام مأوى، وُعاء استوطنه طيف لا يُرى، جاء من عتمة لم أنتبه لها حين غفلت، حين لم أذكر اسم الله على بابه، ولا على نافذته، ولا على مهده.

بدأت أشعر أن هناك من يسكن منزلي. الأبواب تُفتح وتُغلق من تلقاء نفسها دون ريح، الإضاءة ترتجف كنبض قلب مرتجف، وأصوات أطفالٍ تتعالى من غرفة الطفل، ضحكات مكتومة، وقع أقدامٍ صغيرة تركض فوق الخشب. لكن ما إن أدخل الغرفة حتى تحتفي الأصوات كما يختفي السراب عند اقتراب اليد!

الطفل يجلس ساكنًا، لكن عيناه لا تلتقيان بعيني أبدًا. دائمًا تحدّقان نحو خلف الباب، كأن هناك من يقف في الظل، ينتظر، يلوّح له. يضحك فجأة، يبتسم ببراءة مشوبة بشيءٍ لا أفهمه، يشير بيده الصغيرة نحو الفراغ، يحرك أصابعه كأنه يردّ على أحد!

أستعيذ بالله في قلبي، أتمتم دون صوت: "لعلها أوهام، لعلها أوهام"، وأحاول أن أُقنع نفسي أن الإرهاق والسهر يصنعان لي صورًا كاذبة... لكن الأشياء لا تكذب بهذا الإصرار.

كل ليلة، حين يقترب الغروب، أشعر بثقل في الهواء، رائحة خفية تشبه العطن تملأ زوايا البيت، وأصوات الهمس تعود خافتة من جديد. لا أجرؤ أن أقول لأحد، ولا أجرؤ أن أنظر طويلًا خلف الباب... أخاف أن أرى ما يراه طفلي.

عند الساعة الثانية مساءً، تحطّم صوت الباب وهو يُفتح بعنف، كأن الأمر قد جاء أمرًا مقضيًّا. انتفضتُ وخرجتُ، فرأيت "امرأة غريبة" تتجه بخطوات ثابتة نحو غرفة الطفل، لا تلتفت ولا تتعثر، كأنما كُتب عليها أن تصل.

لا أدري كيف تسللت إلى البيت، ولا متى دخلت. ملامحها لم تكن واضحة، كأن وجهها كان ملفوفًا بسحابةٍ خفيفة، أو ظلالٍ لا تستقر. انتابني شيءٌ من الخوف، وتملّكني ارتباكٌ مشوبٌ بالحذر، لكنني جمعت شتات نفسي، ودخلتُ الغرفة خلفها.

الغرفة كانت خالية. لا أثر للمرأة ولا لظلها. فقط رائحة بخورٍ نفّاذة كانت تملأ المكان، رائحة غريبة ثقيلة، ليست كبخورنا الذي نعرفه؛ بل كأنها مزيجٌ من عطرٍ عتيق ورمادٍ محترق.

الطفل كان مستلقيًا على الأرض، ممددًا بهدوء، وعيناه مُثبّتتان نحو سقف الغرفة، بابتسامةٍ ساكنة على وجهه، كأنه ينظر إلى مشهدٍ لا أراه. رفعتُ رأسي نحو السقف، فلم أجد شيئًا سوى السكون والبياض

خرجتُ من الغرفة، والقلق ينهش صدري. طُفتُ في أرجاء المنزل، بحثًا عن تلك المرأة الغامضة؛ فتشتُ خلف الأبواب، وتحت الدرج، وفي كل زاوية يمكن أن تأوي إليها... لا أثر. كأنها لم تمرّ هنا قط!

عدتُ مرة أخرى إلى غرفة الطفل، وما رأيته حينها كاد يجمد الدم في عروقي. وجدته فوق دولاب الملابس، يجلس ضاحكًا، ينظر إليّ من علٍ، يلوّح بيديه كأنما يودّعني أو يستهزئ بي.

وقفتُ مشدوهًا. كيف لطفلٍ صغير لم يتجاوز عامه الثاني أن يصعد فوق دولابٍ يبلغ ارتفاعه مترين؟ لا كرسي قريب، ولا طاولة مجاورة. اقتربتُ بحذر، وأنزلته بصعوبة، كان يقاومني بقوةٍ لا تشبه قواه، يضربني بكفيه الصغيرتين، يصرخ ويضحك في الوقت ذاته، وكأنني أنتزعه من حضنٍ خفيٍّ يأويه.

رجعتُ إلى غرفتي، رأسي مثقل بالحيرة والخوف. وضعت رأسي على الوسادة، لكن الأفكار لم تهدأ، كأنما فُتن قلبي وما كنت بصابر.

ظللتُ أفكّر طويلًا في هذا الطفل الغريب، الذي لا يشبهنا... لا في صورته، ولا في حركاته، ولا في سكونه، ولا في ضحكه.

سقيتُ وسادتي ألف دمعة، لعلّي أنام، أهرب من صحوي، أغفو قليلًا، وأصحو مرعوبًا. الجاثوم يطوف حول سريري كظلٍّ ثقيلٍ لا يفارقني، يقبض على أنفاسي كلما أطبقتُ أجفاني.

قمتُ أترنّح من وجعي، كأنني مخمورٌ بخمرٍ ثقيلٍ يسحبني يمينًا ويسارًا بلا رحمة. أجنح بين فقدان التوازن وضياع الخطى، كمن يلهو على حافة الهاوية لكنه لا يسقط. وجلستُ عند مكتبي؛ لأكتب لكِ، أيتها الآسرة، أنتِ التي لم تُفلتي من قلبي، رغم أنكِ لغيري.

لا أنكر أن بوح الكتابة بريءٌ وجريء؛ الكلمات تنسلّ ذهابًا وإيابًا بين قدميكِ، تتمرّغ تحت خطواتكِ، تبحث عنكِ في الفراغ... لكن دون جدوى، دون جدوى.

صرتُ أعيش من بعدكِ كمومياءٍ منسيةٍ، ملتفّةٍ بأقمشة العفن، منصوبةٍ على قلبي كتمثالٍ نُحِت من وجعي بأصابع الندم.

جثةٌ محنطةٌ في الذاكرة، لا تتحلل ولا تُوارى، فقط تعلو صدر أيامي كأنها نشيدُ جنازةٍ يصدحُ كل فجرٍ، ولا ينتهي.

ليت بيدي أن أعيد الضحكات، والأيام، وكل ما كان جميلاً. ليت الزمن يتوقف بي عند عتبة الطفولة؛ لا أكبر، لا أتغير، ولا أفقد نقائي. كنتُ أود أن أبقى كما كنتُ، صافياً خفيف القلب، لا أُخطئ في حقكِ ولا أكسر قلبكِ. أعلم كم أوجعتكِ، وكم تمنيتُ لو أعود فأُصلح كل شيء...

أتعلمين أيتها الآسرة ...؟

عند "فراقنا" توقفت حياتي تمامًا، وها أنا ذا أكتب أعوامًا، بقلمٍ منكوبٍ يرجو الخلاص، كأنما ضُرب بيني وبين الحياة سورٌ له باب.

أيعقل إلى هذا الحد أن أكون فاشلًا في كتاباتي؟ لا كلمات تحرّكِ، ولا حروف تثيركِ، ولا جملة تلفت انتباهكِ، ولا أي ردة فعل منكِ! قيل: "إنَّ لكل فعل ردّة فعل"، ولا أعتقد ذلك.

لا أنكر... في لحظات القوة تتاح لي الخيارات، أجد الحلول، وأجزم بهجرانكِ للأبد، وما أن أنتهي من اتخاذ قراري، حتى أجد نفسي مجددًا بين ورقاتي وقلمي، أكتب لكِ وأشتاق إليكِ، وكأنكِ سيف مدفون في ذاكرتي.

كم هي موجعة "العبودية" التي اخترقتني؛ لأصبح مملوكًا لكِ، مجردًا من حقوقي الإنسانية. لم أحسب خطوات اندفاعي نحوكِ، لأنني أردتكِ بشدة كزهرة عباد الشمس تميل دائمًا نحو الضوء... وأنا ما زلت أتحمل تبعات اندفاعي.

وبينما كنتُ غارقًا في ذكرياتكِ، كدتُ أختنق... أحسستُ وكأن أحدهم حشر الكون كله في حلقي ومضى، صدري يضيق، أنفاسي تتقطع، عيني تغيم...

فجأة، فُتح الباب بعنف، كأن ريحًا عاتية اقتلعته. وقبل أن أستوعب ما يحدث، هجم الطفل عليَّ كوحشٍ صغير، وانقضّ على ساقي، غرس أسنانه في رجلي بقوة لا تشبه سنّه، ولا ضعفه الظاهر.

بقيتُ متجمّدًا، لم أقاوم غرابة الموقف واستنكاري كبّلا يديّ، وكأن عقلي أبى أن يصدّق ما تراه عيناي. ثم انسحب بسرعة، زاحفًا تحت السرير، ينظر إليّ ويضحك تلك الضحكة المريبة التي صارت تؤرقني.

ارتجف قلبي... كيف لطفلٍ صغير أن يفعل هذا بي؟ أنا الذي عولتُه واحتضنته واهتممتُ به! وما هذه القوة الغريبة التي تتدفق في جسدٍ لم يتجاوز العامين؟

حاولتُ إخراجه من تحت السرير، مدتُ يدي، ناديته، توسلتُ إليه، لكنه كان يصرخ بصوتٍ عالٍ، صراخ كأنه لا يخرج من حنجرة طفل، بل من أعماق كهفٍ موحش، ورفض الخروج بإصرار. لم أجد حيلة سوى أن أتركه.

انتظرتُ حتى طلع الصباح، والضوء يتسلل بخجل إلى الغرفة، ثم أمسكتُ هاتفي واتصلتُ بالشيخ أبي محمد. قلتُ له بصوتٍ مرتجف ما حدث، فطمأنني وقال إنه سيأتي بعد صلاة العصر.

كان "الانتظار" أثقل من الصخر، وعقارب الساعة تزحف كأنها دروبٌ لا تُنهيها خطوات العابرين، وكل دقيقة تمر كأنها دمعات زمنٍ مُتثاقل. عيوني على الباب، وقلبي بين أضلعي يرتجف خوفًا مما قد يأتي.

وعند الساعة الثانية ظهرًا، خرج الطفل أخيرًا من تحت السرير. مشى بخطوات هادئة نحو غرفته، ثم أغلق الباب خلفه بعنف كأنما سدّ على نفسه حصنًا. اقتربتُ من الباب، حاولت فتحه، دفعته، ناديت باسمه... لكن الباب بقي موصدًا بإحكام، كأن يدًا خفية تُمسكه من الداخل.

وقفتُ عند الباب استرقت السمع. كان صوت الطفل يصلني خافتًا، يتمتم بكلمات غير مفهومة، نبرة غريبة، لا هي نبرة لعبٍ ولا بكاء، بل كأنما يردد تعاويذ بلغة لا أعرفها!

مرّت الساعات ثقيلة، وعند الخامسة عصرًا اتصل الشيخ أبي محمد. صوته مرتبك، قال بنبرة آسفة إن سيارته تعطلت فجأة، ولن يتمكن من الحضور، وطلب مني أن أذهب إليه. كأنما حيل بينه وبين الطريق!

أسرعتُ أرتدي ملابسي، ثم ذهبتُ إلى غرفة الطفل لأخذه معي. ما إن فتحت الباب حتى وجدته واقفًا في منتصف الغرفة، عيناه شاردتان نحو زاوية الجدار. رفع يده وأشار إلى تلك الزاوية بإصرار، ثم تمتم مجددًا بكلماتٍ مبهمة، قبل أن يلتفت إليّ ببطء.

نطق بصوتٍ ليس صوته... صوت أجش، غريب، مبحوح، كأن حنجرة أخرى استعارت فمه. قال: "اخرج من هنا".

شعرتُ برعشة تسري في جسدي، بردٌ شديد لفّ أطرافي رغم حرارة الجو. لم أجادله، لم أناقشه... انسحبتُ من الغرفة بخطوات متعثّرة، قلبي يضرب بعنف في صدري.

بعد أيام، حين استجمعت شجاعتي، اتصلتُ مجددًا بالشيخ أبي محمد لتحديد موعد جديد. لكنه ردّ هذه المرة بنبرة جافة قاطعة: "لا تتصل بي!" ثم أغلق الخط دون شرح ولا وداع. جلستُ حينها على حافة سريري، أدركتُ أنني صرت وحدي... تمامًا.

تمرّ الأيام، وتتوالى، ويمضي العمر كما تمضي المياه تحت الجسور... يكبر الطفل. صار الآن في الخامسة عشرة من عمره، ولم يزده الزمن إلا شقاءً وسوءًا.

صار فتنة تمشي على قدمين 👣 يثير النزاع بين أطفال الجيران، يكسر كل ما تقع عليه يداه، يضرب بلا رحمة، كأن في جسده طاقة لا تنضب، أو كأن خلف ظهره ريحًا تدفعه نحو الفوضى.

وما يُدهشني ويؤلمني معًا، أن هذا الطفل يشبه "فراقنا" تمامًا... ولا شك لديّ في ذلك. هو ابن هزيمتي التي تركته في صدري ورحلت. خرج من خاصرة انكساري يوم فقدتكِ، يوم جفّت ينابيع الوصل وصارت سنواتُ عجاف بيننا.

لكل حبٍّ أجل... نعم، لا شيء يبقى كما هو. "الفراق" ضيفٌ قادمٌ لا محالة لا يستأذن، لا يعتذر. يأتي متطفّلًا، يسلب الحبيب، والقريب، والعزيز، ثم يمضي سريعًا، تاركًا خلفه لوعات الحزن، وأنّات الألم، وسواد الكآبة التي تستوطن الروح كما يستوطن الشتاء عظام الشيخوخة.

أعتذر منكِ أيتها الآسرة...

اختلط واقعي بحلمي، فاحتضنتكِ خيالًا، وبكيتكِ حقيقة. فسلامٌ على قلبكِ الذي صار كالحجر أو أشد قسوة، كأنما خُتم عليه فلا يفقه قولًا!

أيتها الآسرة ...

انتهينا قبل الأوان بكثير. انتهينا، وانتهى كل شيء: سنواتٌ جميلة من الحب، ثم النهاية. نهاية الحب، ونهاية الوعود، ونهاية الأحلام، ونهاية كل شيء.

وقد نلتقي في مكانٍ ما وزمانٍ ما. قد نلتقي في مساءٍ ماطرٍ، وأكون مظلتكِ. قد نلتقي بين كتبي وكلماتي. قد نلتقي على رصيف الذكريات. وقد لا نلتقي فأنا وأنتِ بيننا "برزخ لا يلتقيان".

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾

النمل الآية ١٦

رحلتي إلى الجنوب

بعد شهر، حان موعد رحلتي إلى الجنوب. رافقني فيها سلطان، وصديقنا عبد الله، ومعهما أخوه الصغير أحمد، الذي لم يتجاوز العاشرة.

وقبل أن أغادر المنزل، وأنا أُقفل الباب خلفي، وقعت عيني على "قطٍّ أسود" يقف في منتصف الطريق. عيناه تلمعان بوميضٍ أحمر، وذيله مُنتصب كأنّه سهم مشحوذ. اقشعرّ جسدي كله من منظره، شعرت بقشعريرة تسري في ظهري كأنما مرّت بي نسمة باردة وسط قيظ الصيف.

تذكّرت ما علّمني إياه ابي، فتمتمت بصوتٍ خافت، مرتبك: "أعوذ بالله منك إن كنتَ جانًّا... أعوذ بالله منك إن كنتَ جانًّا... أعوذ بالله منك إن كنتَ جانًّا".

بقي القطّ جامدًا، يرمقني بنظراتٍ ساكنة لا هي ودودة ولا هائجة. تجاهلته، وركبتُ سيارتي. انطلقت نحو منزل سلطان حيث اجتمعنا، ثم بدأنا رحلتنا الطويلة باتجاه الجنوب.

وصلنا بعد ساعاتِ سفرٍ ثقيلة... كانت الشمس توقد رؤوسنا، والطرقات تئنّ بزحامها، والعرق يسيل كأنه لم يُخلق للجلد سوى ليذوب. بحثنا عن فندق نرتمي فيه، لكن المدينة كانت تفيض بالزائرين، كأنما نُفِضَّ الناسُ من كل فجٍّ عميق.

دار بنا البحث طويلًا، حتى وجدنا أخيرًا شقة مفروشة قديمة جدًا، من تلك التي تشعر أن الزمن قد نسيها. كان بناؤها متهالكًا، والجدران متهشّمة، والرائحة ثقيلة عتيقة.

تتكوّن من غرفتين صغيرتين، مطبخ شبه خرب، وحمامٍ تضج أنابيبه بصدى غريب... كانت هناك "غرفة ثالثة مغلقة بإحكام"، كأنما ضُرب عليها قفل لا يفتح إلا بأجل مسمّى... لم نكن نملك رفاهية الاختيار... أخذناها.

بدأ قلبي يدق بسرعة... شعرت بالخوف، لكني تمالكت نفسي، فأنا لا أخاف بسهولة. دفع الفضول سلطان إلى اختلاس النظر إلى تلك الغرفة المغلقة من خلال خرم المفتاح، فرأى شيئًا ما يتحرك في الداخل، وكأن أحدًا يقترب من الباب ليفتحه! صرخ فجأة صرخة مدوّية، وجاءنا مفزوعًا ووجهه محمرّ!

حكى لنا ما رآه، فاتصلنا على المؤجّر وسألناه إن كان هناك أحد في الغرفة المغلقة، فأجاب بلهجة حاسمة "إياكم والاقتراب من تلك الغرفة" ثم أقفل الخط.

انتابنا الخوف، وقال سلطان هامسًا: لا شكّ أن الجنّ يقطنون هذه الجدران... لنخرج من هنا! لكن الليل كان قد أرخى سدوله، والمدينة أغلقت أبوابها، فلم نجد مهربًا، وكأننا ضُرِبَت بيننا وبين العالم ستارًا من ظلمات لا يبصر فيها أحد!

مضت ساعة ثقيلة، ساعة من الخوف الصامت والتوجس الحذر. كنا جالسين كأننا فوق الجمر، نتحاشى النظر نحو الغرفة المغلقة، ونراقب عقارب الساعة التي بدت كأنها لا تتحرك. وفجأة بدأ أحمد، الصغير، يتصرّف بغرابة.

كان يجلس صامتًا في ركن الغرفة، ثم دون مقدمات، انفرجت شفتاه عن ضحكة عالية... ضحكة جوفاء، لا فرح فيها ولا سعادة، بل كان صداها ينفذ في العظام، كأنما خرجت من قلبٍ خاوٍ ينذر بيومٍ عبوس قمطرير.

ضحك أحمد طويلاً... وضحك بلا سبب. عيناه كانتا شاردتين إلى السقف، ويداه تتحركان في الهواء كمن يلتقط شيئًا لا يُرى.

انتبه عبد الله فجأة، ونهض فزعًا وهو يصيح: أغلقوا الأبواب والنوافذ فورًا! أغلقوها! أخي أحمد ممسوسٌ بالجن الطيّار... أخاف أن يأخذوه الآن!

شعرت أن الدم تجمّد في عروقي... قلبي توقف لحظة كأنّه نُزع من صدري. التفتُّ إليه بسرعة وهتفتُ بحدة، والغضب يمتزج بالرعب: لماذا لم تخبرنا بذلك من قبل يا عبد الله؟! لماذا جئتَ به معنا؟!

خفض عبد الله رأسه، وقال: كنت أظن أن الأمر انتهى... وأنه شُفي... لقد رُقي منذ عام، واختفت الأعراض... لم أتوقع أن تعود هنا!

كنتُ أسمع كلامه، لكن نظري كان معلّقًا بأحمد؛ كان لا يزال يضحك، ضحكةً طويلة، خاليةً من الروح، وعيناه ثابتتان لا تطرفان، بل مُثبتتان نحو شيءٍ فوقنا لا نراه. وخارج النافذة، بدأت الرياح تعصف فجأةً، كأنّ شيئًا اقترب.

فقال سلطان: الموضوع غير بسيط! أعتذر منكم، وسأخرج وأنام في السيارة.

فقلتُ له: اهدأ كلها ساعات ويطلع الصباح.

فجأة، سمعنا صراخًا غريبًا من تلك الغرفة المغلقة، صراخًا اقشعرت له الأبدان، وكان صوت أحدهم يضرب! استعذنا بالله، وصلّينا صلاة المغرب والعشاء جمعًا وقصرًا، ثم قرّرنا النوم في غرفة واحدة.

وماهي إلا ساعات، حتى وجدنا أحمد معلّقًا في سقف الغرفة، يصرخ بصوت امرأة: "افتحوا الباب" ذُهلت ممّا رأيت، وتملّكني الخوف.

فقام عبد الله بقراءة بعضٍ من آياتِ القرآن الكريم، بينما صراخُ المرأةِ يزداد حدّة. كان سلطان تحت الغطاء كقطٍّ مُبتلٍّ في ليلةٍ عاصفة؛ لا يتحرّك إلا بارتعاشةٍ خفيفة، يخرج رأسه للحظةٍ ثم يعيده بسرعةٍ كسلحفاةٍ ندمت على فضولها. وما زال عبد الله مستمرًا في الرقية الشرعية، حتى نطقت المرأة بصوتٍ حادّ: "لا تقرأ."

فقال عبد الله: اخرجي منه.

فقالت: لن أخرج، وسنأخذه معنا إلى عالمنا، ثم ضحكت بصوت عالٍ تقشعر له الأبدان.

كنا بين الرعب والخوف، وفجأة انطفأ نور الشقة بالكامل، واعتصرنا الخوف في الظلام. بدأ الباب يُضرب بقوة، والأصوات تتفاقم: "افتحوا الأبواب" كان الأمر كان مخيفًا بشكل لا يُحتمل! وبدون مقدمات حلّ الهدوء! لم نعد نرى شيئًا، وأنا بيني وبين نفسي أقرأ، وأحصّن نفسي، وأستعيذ بالله. وفجأة سمعت صوتها تقول: لا تقرأ يا عماد.

لكن عبد الله قال: اقرأ ولا تخف، ثم بدأ يؤذّن ويكبّر بصوت عالٍ، حتى اختفى صوت المرأة، وبدأ أحمد يبكي ويقول: أين أنا؟

فقال عبد الله: لا تخف.

ثم فتح كشاف هاتفه، وأضاء المكان، بينما سلطان لا يزال متكوّرًا تحت الغطاء بلا أي حركة. قررنا الخروج وبدأنا بلملمة الأغراض بسرعة. وعند الخروج ربط عبد الله أحمد بحبل في يديه.

ولكن المفاجأة أن باب الشقة مغلقٌ بإحكام، ولا يُفتح! اتصلنا على المؤجر أكثر من ستّ مرات، دون جدوى. فتحتُ تطبيق القرآن على هاتفي، وشغّلت سورة البقرة.

وما هي إلا دقائق حتى شعرتُ بضربةٍ مباغتة على كتفي، كأنها جاءت من غيبٍ معتم، وسمعتُ صوتًا حادًا خلفي يقول: "أغلق الهاتف". أغلقتُه فورًا، لا لأني أُمرت، بل لأنّ الخوف كان قد بلغ الحلقوم فقال: عبد الله، افتح الهاتف.

تجاهلت عبد الله وكأني لم أسمع، والخوف من رأسي إلى أصابع قدمي، كنت حائرًا، والخوف يسكنني، غير قادر على قراءة بعضٍ من آيات القرآن، ولا أستطيع حتى لمس الهاتف، وسلطان بجانبي ممسك بيدي كظِلٍّ تائها لا يجرؤ على الابتعاد.

وماهي إلا دقائق، ويأتي الصباح ويعلن بداية إشراقة جديدة، وكأنه يبعث بداخلنا التفاؤل ويولد الأمل. فتحنا الباب وخرجنا، فوجدنا الجبال والأشجار تتراقص بلطف على أنغام النسيم، وتعزف الطيور ألحانها كأنها تهدي روعنا.

نظرت إلى أحمد، فوجدت وجهه مليئًا بالكدمات، ممزق الملابس، ينزف من رأسه الدم، وكأنه كبر عامين في ليلة أمس!

وعند ركوب السيارة بدأ أحمد يصرخ ويرفض الركوب، فقام عبد الله بربط يديه وقدميه؛ خشية ان يهرب. ثم بدأ البحث عن فندق حتى وجدنا فندقًا مناسبًا وحجزنا فيه يومين.

وعند الساعة الواحدة ظهرًا، قررنا الخروج لتناول الغداء. وعند الوصول للمطعم سألت عبد الله: ما قصة أخيك؟

فقال: أحمد ممسوس بجنيّة عاشقة منذ عامين، وتقول إن اسمها "زيتونة" كما تدعي، وهي من الجن الطيار، أحد أنواع الجن المعروفة، لكنه يعتبر أقوى الأنواع، أما عن تسميته بالطيار، فتأتي نتيجة لكونه طائرًا دائمًا لا يثبت في المكان أو في الجسم نهائيا.

الجن الطيار يُعد من أشد أنواع الجن إيذاءً، قد يؤدي في بعض الأحيان إلى حالات انتحار، ناتجة عن إلقاء الممسوس نفسه من مكان مرتفع. الجن الطيار يعد سريعًا جدًا في الانتقال من مكان إلى آخر. ومن صفاته المعروفة عنه الحدة في الطباع وكذلك التصرفات.

أخي أحمد دائمًا ينظر إلى السماء، أو إلى سقف الغرفة، ويفرح كثيرًا عند رؤية الطيور تحلق، أو عند سماع صوت الطائرات. يحب الأماكن المرتفعة ويميل إلى المكوث فيها لساعات.

ومن قدرات الجن الطيار أيضا الهروب من الجسد أثناء الرقية الشرعية، وهذا إن لم يكن مربوطًا بأي سحر. وهذا ما كنا نراه على أحمد عند الرقية الشرعية.

قبل عام، اختفى أحمد من المنزل. بحثنا عنه ولم نجده، وبعد أسبوعين، اتصلت شرطة النسيم بالرياض، وطلبوا منا الحضور لاستلامه. هذه الجنيّة تملك قدرة على أخذه متى شاءت، ولهذا نحن نُقفل الأبواب والنوافذ خوفًا من أن تأخذه من جديد.

انتهت الرحلة فلا تعاندوا القدر ...

بعد أيامٍ قليلة من عودتنا، تلقيت اتصالًا من عبد الله يُخبرني فيه بوفاة أخيه أحمد. "لا حول ولا قوة إلا بالله". أسأل الله أن يجمعنا به في جنات الفردوس الأعلى. إنّا لله وإنّا إليه راجعون.

ما يُدهشني أن حال أحمد يُشبه حالي بعد "رحيلكِ". نعم، أيتها الآسرة، رحلتِ قبل الأوان، كأنكِ خُلِقتِ لتودّعيني، ومضيتِ كطيفٍ لا يستقرّ، كنسمةٍ خرجت من كوّة القلب ولم تعد.

وتركتِ في القلب سنواتٍ عجافًا لا تمضي، كأنها الشتاء إذا طال وأبى أن يُنجب ربيعًا. كل الأشياء من بعدكِ باهتة، حتى الفرح صار يتعثّر في ملامحي، كمن يحمل ماءً في غربال.

كنتِ تتقنين التجاهل، تمشين بمحاذاة وجعي دون أن تلمسي ورقةً من أوراقي، وتمطرين فوقي بلطفٍ لا يُنبت شيئًا غير الحنين، كأنكِ سحابةٌ عابرة، لا تعرف أين تهطل، ولا متى ترحل!

أما أنا، فظللتُ عالقًا في مفاصل الكلمات، أحمل ثقلها كمن يحمل نعشه، وأقيم حيث تنزف الذكريات، كأطلالٍ يكسوها غبارٌ رقيقٌ بارد، يغلف الزوايا بصمتٍ ثقيل، كوشاحٍ يختنق به الماضي، يخنق أنفاسي، وفي ركام ذلك الغبار، ترقد حكايات مهجورة، تنتظر من يوقظها من سباتها المدفون!

وكأنَّ أبوابَ الجحيمِ السبعة، فُتحت لي؛

من أجل قطةٍ من الجان،

تمشي نحوي كما تمشي اللعنة على عتبات القدر!

من بعدكِ احتلّني "الضعف واليأس والعزلة". فقدت شهيتي عن ملذات الحياة، باختصار توقفت حياتي من بعدكِ تمامًا. أصبحت أحاديث الناس تستنقصني وتقلل من شأني، وينظرون إليّ بنظرات اشمئزاز، ومن ثم يقال بصوت يعتليه الاستحقار، وأسلوب يخلو من الأدب: من هي؟ وأحاسب وكأنني إثمًا عظيمًا، وأعلم جيدًا مدى انحطاط أقوالهم، والمحزن أني لم أستطع وضعهم خلفي تمامًا كأقوالهم.

- هذا قدري معكِ: ألّا نعيش معًا! وأنا أكتبه!

لم أستسلم في معركتي مع قلة حيلتي، رغم أن اليأس ينصب على رأسي كمطرقة من حديد، وخيبات الأمل تجلدني بسوط يحمله الشيطان، كأنما أُحِيط بي ولم أجد مخرجًا.

أنا ما زلتُ أكتب لكِ، لأخبركِ أنني أحبكِ، وأُكرّرها بين كتاباتي، وبين نداءٍ وضمير، ليطمئن قلبكِ. أنا على يقينٍ بأنكِ لقيتِ من يُعوّضكِ عني، أما أنا، فقد رأيتُ الجواري ونساءَ العالم كُلّهن، ولم أقبل بأيٍّ منهنّ عِوَضًا عنكِ.

أنتِ، ألقيتني في الجبّ بيدٍ كانت أمس تمسح حزني، وتركتني وحيدًا بلا قميص يحميني من قسوة العيون، ندباتكِ ليست حجرًا، بل وعدٌ خُذل، وجع يبكيني كالطفل، وألم يكفيني مائة عام! أهذا كرم المحبين؟ أن تهب النور ثم تطفئه فجأة، وتتركني في ظلمة القلب؟

وبعد صلاة الجنازة، عدتُ إلى منزلي والحزن يثقل صدري، كأنني أحمل أطنانًا من الهمّ فوق ظهري.

وما إن وصلت حتى وجدت القطّ الأسود جالسًا أمام باب المنزل لا يتحرك! سمّيت بالله وحاولت إبعاده، لكنه لم يكن كغيره من القطط؛ كان شرسًا، قصير الذيل، ممتلئ الجسد، يميل إلى العدوان، بأسنانٍ حادّة ومخالب غريبة وكبيرة.

أحضرت عصًا لطرده، لكن الغريب أنه ما إن أوجه العصا نحوه حتى يصعد عليها وينزل بطريقة مستفزه!

أثار عضبي، فضربته عليه بالعصا دون قصد، فأصابته على رأسه... حينها فقط هرب!

دخلت منزلي وأنا أشعر بضيقٍ خانق، تجاهلت ضيقي ونمت من شدّة التعب، لتأتي امرأة عجوز قبيحة الشكل، بأسنان كبيرة، وذقنٍ مدبّب مع خال أسود منفر، وأنف معقوف، عليها أثار الكدمات على رأسها وتنظر إليّ وتقول بصوت غليظ: "سأدمرك".

استيقظت فزعًا، وتلك العجوز لا تفارق ذهني، حاولت تجاهل ما أنا عليه، هو مجرد حلم وليس أكثر. صليت الظهر، وبعد الغداء جلستُ على مكتبي الذي أنهكته الفوضى؛ الأحزان نامت في أدراجه، والأقلام تفرّقت فوقه كإبرٍ مسكنة تهدئ روعي. بعد أن كانت بين أصابعي تجري لأكتب عنكِ، صار القلم في يدي وردة حمراء ذبلت على عجل... سبحان مقلّب الأحوال.

وبينما كنت غارقًا في دهاليز أفكاري، شعرت بضربة على رأسي! نظرت خلفي... وإذا بها العجوز الشمطاء ذات الملامح المرعبة! كاد يتوقف الدم في عروقي من شدّة الخوف.

قالت وهي تصرخ بصوت بشع: "اخرج من هنا".

تمالكت نفسي وقلت: لماذا؟ إنه منزلي!

فقالت: لقد أصبح منزلي بعد أن ضربتني.

قلتُ ا: أنا لم أضربكِ؟ وكيف ذلك؟!

قالت: أنا القطّ الأسود الذي ضربته عند باب منزلك.

فقلت: لا أعلم أنكِ القط، ولكنكِ من بدأ بمنعي من دخول منزلي.

فقالت بصوتها الغليظ المتوعد: أيها الإنسيّ الفاشل، لن أدعك وحدك، ستغادر المنزل بقوتي وإرادتي، واختفت فجأة كما ظهرت!

ابتلعت خوفي، وبدأت أُكبّر بصوت عالٍ في أرجاء منزلي، ثم فتحت إذاعة القرآن الكريم ورفعت الصوت، وحصّنت نفسي بكل ما أستطيع، كأنما أُمرْت أن أثبت ولو زلزلت الأرض زلزالها.

رجعت إلى مكتبي وجلست، وماهي إلا دقائق، وإذا بالإذاعة تُغلق من تلقاء نفسها! أعدت تشغيلها وفجأة ظهرت العجوز مجددًا وتقول: لا تزعج أطفالي.

سألتها بدهشة: أين أطفالكِ؟

نظرت إليّ نظرة تقطر كُرهًا وحقدًا دفينًا؛ مزيجٌ من غضبٍ مكتوم وضغينةٍ متأصلة، كأنها حملت في قلبها حُقد أصحاب الأيكة، ثقل سنوات من الغيظ لا يُحتمل.

ثم استدارت وغادرت ببطء، تحبو كما لو كانت تزحف فوق جراحٍ لم تُنسِها الأيام نارها، بل زادتها اشتعالًا، كأنها تحمل في جسدها ذكرى أصحاب الفيل التي لا تخمد.

وفي اليوم التالي، بات منزلي يسكنه الضيق والتعاسة؛ الأنوار ترتعش وتنطفئ، الأبواب تُضرب بعنف كأنها تُنتزع من مفاصلها، وضجيج مرعب يملأ الأرجاء، وكلمات مبهمة تهمس وتصرخ، وأطفال يركضون ويذوبون بين الجدران.

سرعان ما بدأ سكان العمارة يشتكون؛ قالوا إن بيوتهم يُعبث بها كما يُعبث ببيتي. كأنّ يدًا خفية امتدت من عالم غائب، وراحت تعبث بمفاصل المكان والروح دون أن تظهر، ودون أن ترحل.

والعجيب في الأمر أن تلك العجوز وأطفالها يشبهون "ذكرياتكِ"! نعم، أيتها الآسرة، البعيدة عني كبُعد طفولتي البريئة.

ذكرياتكِ متطفلة، تحشر نفسها في كل زاوية، تتسلل إلى وحدتي، وكأنها أقسمت أن تبقى لآخر عمري. كأرواح معلقة بين السماء والأرض، لا تجد قبرًا تأوي إليه، فتسكنني أنا وتبتسم في الظلام.

- أيّ ألمٍ هذا؟

لقد أحببتكِ بشدة، ولولا كبريائي لانكسرتُ أمامكِ أكثر من ذلك.

- لكن أيّ كبرياء؟

وأنا بدونكِ لا أستحق حتى نفسي. ظللتُ أحارب كبريائي، وأنتِ تغيبين كريحٍ تسرق مني أنفاسي بلا رحمة.

فبقيتُ حائرًا بينهم،

ثم أنصفتُ "قلبي"... لقلّة حيلته،

وغفرتُ له ضعفه، واحتضنته.

فلا تلمني يا ربّ،

فيما تملك ولا أملك.

لديّ "أمنية" في الخامس عشر من عمرها، منذ ولادتها وأنا ألهج بالدعاء ليل نهار أن تتحقق.

أُحدّثها دومًا أنها حلمي المؤجَّل، أملي المختبئ خلف ستائر الصبر، وضحكتي التي لم تولد بعد.

أقول لها إنها صاحبة الأنفاس العذبة، الصفحة النقية التي لا تشبه أوراقي الممتلئة بالشطب والوجع، كأنما كُتبت لها حياة طيبة وأنا ما زلت في ظلمات ثلاث. هي الصفحة التي أخاف أن تُطوى قبل أن أكتب عليها شيئًا... أو أن تُمزّق قبل أن ألامس سطورها.

تكبر أمنيتي بين يديّ، تسألني كل حين: متى؟

فأبتسم وأقول لها: إن أمر الله إذا أراد شيئًا أن يقول له: " كن فيكون"، وإن الله مع الصابرين. تمرّ الأيام، تكبر أمنيتي وتكبر... حتى باتت في عيني مستحيلة، ولكني لا أخبرها بذلك.

ولو نظرتِ إليها، أيتها الآسرة، لرأيتِ فيها وطنًا يبكي بصمت؛ وطنًا أنهكته سنواتٌ عجاف لا يبوح ولا يصرخ، بل ينهار في هدوء.

- أتعلمين ما أمنيتي؟

"رجوعكِ"... فقط رجوعكِ؛ رجوعكِ كالغيث بعد قحطٍ طال، وكالروح تعود لجسدٍ أضناه الانتظار.

يقولون: لا شيء يعود كما كان... إلا "الحنين"، يعود أقسى مما كان وأنا، ما زلت أحنُّ إليكِ كما يحنُّ اليتيمُ لحضنٍ لم يجده قط.

في هذه الليلة، عكفتُ على أوراقي وقلمي، أعيش حيرتي وترددي، أعتزل العالم في غرفتي كراهبٍ تائه، منهوك الوجدان، مضطرب الخاطر، يتخبط في متاهةٍ لا مخرج لها.

الخيبات تعيث بعقلي فسادًا، تخلق الأوهام وتغذّيها، وأحاور هذا الصداع الذي يُلهب رأسي دون رحمة.

- هل حقًا تمكن مني اليأس؟

- ما الذي يحدث لي؟

- ولماذا يحدث لي أنا دون سواي؟

فأجاب عقلي، وكأنه يحاول إنقاذي:

إذا أردت أن تتوقف عن الألم، وتبدأ حياةً جميلة، فعدّد نِعَم الله عليك بدلًا من متاعبك. من المحزن حقًا ألا تكون ملكًا لنفسك، أن تتحول حياتك إلى مسرحية هزلية تقدّمها للآخرين، وأن يصبح حزنك كطفلٍ عابث، يتمادى في الاستخفاف بك أمام أعين البشر.

فقال قلبي:

كلنا نُخطئ، وكفى أحزانًا. ابدأ من جديد، لم يضع شيء بعد. اليوم هو البداية، فالأيام لا تعود. افعل ما يجعلك سعيدًا، لا تنتظر المعجزات.

فقالت نفسي:

أرهقني الانتظار، واشتعل الرأس شيبًا. كفى حبًا مذلًا! إلى متى تبقى معلّقًا بين الخرافات؟ متأرجحًا بين الأساطير؟ لقد كسرتنا، وكسرت كل من حولك! أقلامك أصبحت كأغنية عراقية حزينة، كلماتها موجعة، ونغمها مبكٍ. علم الجميع أن امرأة تخلّت عنك، وأن رحيلها ترك ندباتٍ على وجهك، وأنت تفضح نفسك على أوراق بريئة لا ذنب لها!

عجبًا! أين أنتم عند مرافعة الضمير؟

"عقلي"، مستشاري الفاسد، ألم تقل يومًا أنك ملك الإدراك، وتميّز بين الأمور؟ ألم تدّعِ أنك المتحكّم الأول في قراراتي وتصرفاتي؟ لا أراك كذلك الآن!

"وقلبي"، اللاهث خلفها، أنسيت كيف تأتي عند الغروب متشفعًا متوسلًا، تبكي الحنين، ودقّاتك لأجلها لا تهدأ؟ أنسيت حين قلت: الحب وُجد ليُسعدنا؟

"أما نفسي" الأمّارة بالسوء، حين تماديتُ في انكساري، كنتِ تأتين كل مساء بطيفها، وزجاجة من الخمر، وتثملان سويًا في صدري، وتكسران ضلوعي! عذرًا... أيتها النفس الأمّارة بالسوء، من ترك تلك الندبات؟!

وأنتم أيها الناصحون، المنزلون بالحكمة...

إنها ردة فعل لم أعِ عواقبها، وحدث ما حدث. ها أنا الآن أرتشف من كوب ندمي، على طاولةٍ أطباقها حيرةٌ وخيبة، ويخدمني نادلٌ أعور، لا يبشّر بخير، يقدّم لي الخوفَ بنكهة الذنب، ويملأ كأسي كلّما همدت مرارتي. كأنما سُقيتُ كأسًا كان مزاجها زقومًا، لا يُروى منها ظمأ، ولا يُغسل بها قلب. كل رشفةٍ تنكأ جرحًا، وكل لقمةٍ تُفتّت شيئًا من يقيني.

شكرًا ... لجعلكم ألمي أكثر وضوحًا من عقلي.

سكنني الصمت طويلًا، فسحبتُ مناديل السكون ومسحتُ بها دموعي، كأنني أمسح وجهي من بقايا عمرٍ انكسر.

كانت مناديل واهنة، لا تجفف دمعًا ولا تمسح وجعًا، بل تزيد البلل وتُعيد للذاكرة وجعها الطازج.

فقدتُ القدرة على التمييز بين الحقيقة والخيال، أتأرجح على حبال الهلع، وأنزلق في هوّة الوهم، حتى بات الخوف يهبّ عليّ كريحٍ صرصرٍ عاتية، لا تبقي من الروح إلا شظاياها.

كأنني أعيش في برزخٍ بين عالمين؛ لا أرضٌ تقلّني ولا سماءٌ تظلّني، معلّق بين حلمٍ مشوّه وكابوسٍ لا ينتهي، أبحث عن نقطة ثابتة في فضاءٍ مليءٍ بالفراغ.

ومن جديد... أسمع أصواتًا غريبة من حولي، أطفال يلعبون في منزلي، وامرأة تصرخ خارجة من غرفتي. أركض، أنادي، أفتش، لا أجد أحدًا. كل شيء ساكن إلا قلبي.

تأهبتُ للخروج لمقابلة صديقي عبد الله وسلطان. وعند الوصول للمقهى المعتاد بدأ الحديث بيننا، ولكني لم أعرف من أين أبدأ؟ تزاحمتْ أفكاري على الطاولة، وكأنها تحشر نفسها في أكواب القهوة، حاولت أشتتها حتى لا يصابا بعدوى أحزاني.

سألت عبد الله: ما حالكم مع الصبر وبعد فقدكم أحمد؟

فقال: الحمد لله. ولكن والدتي مريضة وفي المشفى بسبب الفقد، فاقدة الوعي، لا تأكل ولا تشرب، تحب العزلة وأصبحت كئيبة ولا تتكلم، وإن تكلمت تسأل: أين أحمد؟ ثم تطيل النظر إلى باب الغرفة.

وبعد الفحوصات الصحية المختلفة أفادونا بأنها مصابة بورم خبيث - أجاركم الله - مرت بست جرعات من العلاج الكيميائي، وقبل أمس قلت لها: يا أمي إن السرطان لا يتمكن إلا من الضعفاء، وما السرطان إلا منافسة وتحدٍّ، وأنتِ قوية.

نظرت إليّ وقالت: أوصل أحمد؟ أ أكل؟ لماذا لا يزورني؟ ثم صمتت وهزت رأسها وقالت: لعل لديه اختبارًا، الله يوفقه.

نظرتُ إليها وقد نحل شعرها، وخفت حاجبها، وبهت جمال عينيها، وضمر جسدها، وتجعد جلدها. ومن ثم مسحتُ دموعها قائلًا: "لا حول ولا قوة إلا بالله."

فقلتُ بصوت موجوع: أسأل المولى أن يشفيها ويعافيها ويلطف بها، ويجمع لها بين الأجر والعافية، ويفرح قلوبكم بسلامتها وعافيتها، فهو قادر على ذلك.

- أتدري، أيها القارئ؟

نحن لا نكتب "أقدارنا"، لكن ربما نستطيع أن نخطّ حكاياتنا على صفحات العمر. في منعطفات الألم، قد يطرق أبوابنا ضيف ثقيل لا سبيل لرده، فنضطر لمجالسته والتكيّف مع ظلاله. ورغم كل شيء، تظل الحياة تخبئ لنا منعطفاتٍ جميلة... ولكن أعيننا قد تغفل عنها.

فقال سلطان: وهل رأيت منعطفات الحياة الجميلة؟ وهل يُشفى مريض السرطان؟ لا أعتقد ذلك.

نظرتُ وقلت في نفسي: أحمق. والعجيب في الأمر أن حماقة سلطان تشبه "تصرّفاتي معكِ"، ولا غرابة في ذلك؛ فهذه "حماقاتي" تبدأ كوردة بيضاء تفوح منها أزكى العطور، وحين أرويها ماءً، سرعان ما تتحول إلى قنفذ يرسل شوكه فيؤذيني ويؤذيكِ. كأن قلبي بستانٌ لا يحسن الزرع فيه... ما أن أغرس فيه ودًّا حتى ينبت شوكًا، وما أن أسقي حُبًّا حتى يرتوي وجعًا.

لينتهي اللقاء ...

وعند الرجوع إلى منزلي، صليتُ العشاء، وسجدتُ لله شاكرًا على كل الأحوال، وسألتُ الله منكسرًا:

"اللهمّ إنّي أسألك من عظيم لطفك، وكرمك، وسترك الجميل، أن تشفيها وتمُدّها بالصحّة والعافية. اللهم ارحم كل من عزَّ علينا فراقهم، واغفر للموتى المسلمين. اللهم الرضا الذي يجعل أرواحنا مطمئنة، وقلوبنا هادئة، وهمومنا عابرة، ومصائبنا هيِّنة، الرضا الذي يُوصلنا إلى أبواب جنتك. إنّك على كلّ شيءٍ قدير".

في هذه الليلة احتلني النوم كتبتُ على أربع ورقات اسمكِ، ثم كلمة أحبكِ بأبهى الحلى لعلَّ طيفكِ يأتي متجسسًا ويسرق النظر إلى كتاباتي بعد أن أنام.

قدر أراد لنا اللقاء ...

ثم انتهى ما بيننا، وبقيتُ وحدي، راضيًا ساكنًا، لا اعتراض. وإن عجزت كتاباتي عن احتوائي، وإن نطقت بلغة المنكوبين، أبناء القلوب المكسورة والأماني الذاوية، فلا سخط - الحمد لله - كأنما سيّرتُ على قدرٍ مضى وانقضى. ويكفيني أنكِ بخير؛ هذا عزائي حين خابت الأماني وتكسّرت الأقلام.

تخيّلتُ "لقاءنا" فابتسمتُ شوقًا، فكيف سيكون القلب لو التقينا؟ أيبكي فرحًا أم يخرس من الدهشة؟ ربما يكفينا النظر... فكل الطرق تؤدّي إليكِ.

ولا تنسوا "الفضل بينكم" لن أخصمكِ ولن أرفع السيف في وجهكِ، فالعِشرة لا تهون، حتى لو هان الودّ، لن أنسى ما كان بيننا، وإن أقفلتِ الباب، ومضى نصيبكِ لغيري.

توضأت وصليت ركعتين وسجدتُ قائلًا: "اللهم أبدلها خيرًا مني" سلَّمتُ واعتكفتُ أوراقي، أُصَبِّرُ نفسي وجع الفراق.

كل ما في الأمر أن ذكرياتكِ تحشر نفسها بين ورقاتي، وعطركِ يدخل متطفلًا بين رئتيَّ ويزاحم أنفاسي، كأنما كُتب عليّ ألا أنساكِ حتى يأتي وعد اللقاء.

أرعبني الهدوء الذي يأتي نيابة عن الانهيار حمَّلتِني فوق طاقتي، واشغلتني وحيرتي المعاني، أنا منذ أعوام اكتب كي ارضيكِ، كل ورقاتي تبدأ وتنتهي فيكِ، حتى قلمي يشتكي غيابكِ، وصوتي تقطع يناديكِ. أنا باختصار عجزتُ أفارق نجوم ليلكِ. هذا كل ما فيني كتبته على ورقاتي، أنتِ تجاهلتِ المكتوب، وأنا ضيعتُ طريقي.

أنا أيتها الآسرة: "لا أزعم البراءة، ولا أتهرّب من ذنب"، لكن إن أخطأتُ، فما كان ذلك طبعًا، بل ضعفًا لحظةً مرّت. وإن جهلتُ، فما جهلتُ عن سوء نيّة، وإن فسدت تصرّفاتي، فربما كان عليكِ أن تُصلحي نيتكِ أولًا.

كنتُ أرى "الوداع" مقيمًا في عينيكِ منذ البدء، وأدركُ أن العِشرة لا تصمد طويلًا أمام البرود، ومع ذلك، مشيتُ الطريق معكِ، ومع ذلك، أكملتُ الطريق فقط لأتأكد من ذكاء غبائي.

وبينما كنتُ أنتظر حضوركِ، مرَّ العُمر، واشْتَعل الرأس شيْبًا، ليعلم الجميع أن امرأة تخلَّت عنه، تمر السنين ليصبح الشوق أكثر شقاوة، وعطركِ أكثر عبثًا، تمر السنين وأنتِ كما أنت بخيلة في الحضور عميقة وعقيمة. كأنما طُبع على قلبك ألا تأتين!

مكثتُ أعوامًا أخوض معركة لا تُطاق من الصبر، عذابًا أشك أن أحدًا يستطيع احتماله. كنتُ أُجلَد صباحًا ومساءً بأسواط الشوق وهيمنة الحنين، وكأنني أنزلتُ حاجاتي في وادٍ غير ذي زرع.

أنا على يقينٍ أن السماء ستمطر مغفرةً ذات يوم، وإن أمطرت وكنتِ الشخص الوحيد الذي يحمل مظلّة، سأكسر تلك المظلّة خوفًا عليكِ، لا منكِ، وأُمسك بيدكِ حتى النهاية. وإن اقتربت النهاية، وكاد أن ينتهي كل شيءٍ في هذه الحياة، فسأقف معكِ كما يقف عيسى عليه السلام يوم يكسر الصليب؛ لا لينهار، بل لتبدأ الحقيقة.

سأمضي ما تبقّى منّي معكِ، كظلٍّ لا يفارق خطاكِ، وكنَفَسٍ لا يبرح صدركِ. سأُحبكِ حتى آخر رعشةٍ في قلبي، حتى تذوب أيامي فيكِ كشمعةٍ في يد الريح. سأعانقكِ عناق الغريق لطوق نجاته، وسنكون معًا نُواجه الفيضانات، ونُقاوم الأعاصير بأضلعنا، ونتلقّى سقوط السماء براحَتَينا، نقف عند حافة العالم وتتشابك أرواحنا لنشهد النهاية سويًّا... لا خائفين، بل عاشقين.

- هل تتمسّكين بيدي وتنالين شرف المحاولة؟

- أم ستكتفين بالنهاية التي اخترتها رغمًا عني (وسأَقبل بها)؟

عفوًا أيها القارئ:

مساحتي الأدبية بين يديك، أمّا قلبي، فلا تجعله مشهدًا عابرًا، ولا تقسُ عليه بوصفٍ جارح.

لا أملك حقًا في هذه الحياة سوى الكتابة. أكتب بلا ملل، لأنني لا أملك في الدنيا إلا ما تركته لي من ذكريات.

أُحاول أن أُنقذ نفسي من أسرها، فلربما كانت كتاباتي أخف وطأة من الحياة التي عشتها، بما حملته من تفاصيل موجعة بعد رحيلها، كأنما خلّت الدار فلم يسكنها إلا الحزن المقيم.

أكتب لأن الكتابة وحدها لا تخون، ولا تُجادلني، ولا تهجرني في منتصف الطريق.

أكتب كي أُرمم ما تهشّم في داخلي، كي أُسكِت ذلك الضجيج المستمر في رأسي، وألملم بعثرات قلبي قبل أن يخذله النبض.

قد لا أجد خلاصًا كاملًا، لكن كل حرف أكتبه يُخفف شيئًا من حملي، كأنني أودع ألمي بين السطور، كالصابرين الذين تحملوا البأساء والضراء، فلا أثقل به صدري.

فدعني أكتب كما أشاء... فالكتابة وحدها ما تبقّى لي من حياةٍ تُشبهني؛ حياةٍ لا تنبض، لكنها تتنفّس بالحبر، كما تتنفّس الأرض بعد موتها.

ذكرتكِ بين الورق، لا لأنكِ ذكرى...

بل لأنكِ نعمة تُروى.

وماهي إلا دقائق وقد طُرق باب غرفتي. فتحتُ الباب فوجدتُ طفلًا يهرب إلى المطبخ، ذهبتُ خلفه، فوجدتُ العجوز تبحث عن شيءٍ بين أواني المطبخ، نظرتْ إليّ، ثم أكملتْ البحث.

فقلتُ لها: عمّ تبحثين؟ نظرتْ إليّ مرةً أخرى، ثم رفعتْ بصرها إلى سقف المطبخ وأطالَت النظر، ثم قالت بهدوء: ليس الآن!

احتلّني الخوف، ولكن شجاعتي كانت أقوى. فقلتُ لها: أعتذر منكِ لضربي على رأسكِ، لم أقصد ذلك. نظرت إليّ وابتسمت ابتسامة صفراء، ثم قالت: ألستَ خائفًا؟

فقلت: مِمَّ أخاف؟

فقالت: أن أكون في منزلك وأعيش معك.

قلتُ لها: أعلم تمامًا أن فيكم عجبًا لا يُدرك؛ لا تنهككم العلل كما تنهكنا، ولا تمسّكم الحاجة كما تمسّ سوانا. لا تحرثون أرضًا، ولا تغرسون شجرًا، ولا ترفعون جدارًا، ولا تسعون لرزق. تأكلون من زرع غيركم، وتسكنون في ظلّ تعبنا، وتعيشون فوق ظهورنا كأنما كُتب عليكم ألا تُرهقوا، وكُتب علينا أن نحملكم.

فقالت بسخرية خفيفة، كمن يطعن بخفّةٍ ثم يبتسم: أنتم البشر... تأكلون التراث أكلًا لمًّا، وتُحبّون المال حبًّا جمًّا، وتُكفّرون بالحقيقة إن خالفت شهواتكم. وأنت "غريبٌ وغبيٌّ في آن" تبكي على أوراقٍ

وذكرياتٍ وماضٍ أعرج، رغم ما أحطتَ به نفسك من حصون. كان حزنك بوّابتي، ووجعك سلاحي. كان العبث بك أسهل مما ظننت.

قلتُ: أنا راضٍ عن حالي، فكل أمر المؤمن خير.

فقالت: أعلم أنك بلا قدرات، ولا مقارنة بيننا. نحن نتشكّل بأشكالٍ ما شئنا، ولنا قدرة على سرعة الحركة كسرعة الضوء.

فقلتُ لها مستنكرًا: تتشكلين كما تشائين! وسرعتكِ كسرعة الضوء! وأنتِ عجوز تزحفين على يديكِ! وليس لديكِ منزل!

فقالت ساخطة: أتهزأ أيها الإنسي؟ أنت تافه مثل تصرفاتك، حبيبتك لها حق أن تبتعد عنك.

فقلتُ: ولم تقبل اعتذاري مثلكِ تمامًا.

فقالت: أنا لستُ أمك، تغضب منك ثم تسامحك، أنا هنا لتدميرك.

نظرت إليّ بتهكّم وأكملت بحثها، ثم أخرجت طفلَيها من بين الأواني وسحبتهما من أيديهما. بعد ذلك، بدأت تحبو بسرعة مذهلة على جدار المطبخ حتى اختفت!

دخلتُ غرفتي واستلقيتُ على سريري، كمن يعود إلى كهفه بعد معركة لا يدري إن ربحها أم خسرها. ابتسمتُ وقلتُ لنفسي: أهذه حقيقة أم خرافة؟ أهذا وجعٌ أم حلمٌ ثقيل؟ كأنما سُحِرَت أعيننا واسترهبونا وجاؤوا بسحرٍ عظيم... شيءٌ ما في العالم انقلب، وأنا بين أطلالي أبحث عن تفسيرٍ لم يحدث.

فتحتُ النافذة... كل شيء ساكن. الظلام منتشر في كل مكان كورم خبيث، السواد كثير كجناح غراب! وكأنها ليلة مغمورة بالهموم والغموم؛ لا نجوم، ولا قمر، ولا غيوم، كأن ناقوس الخطر قد دقَّ. ساعتي تشير إلى الواحدة مساءً.

نظرتُ إلى أوراقي بانزعاج وهدوء، باستياء ورضا، ولكن الأفكار الكثيرة تسكنني، والحيرة ممتدّة على جدار غرفتي، والحنين يغتصب دهاليز أفكاري.

وباب منزلي يُفتح من غير استئذان لعجوز وأطفالها، تتحرك الأشياء من حولي، وتُطفأ الأنوار وترتعش. أقعدتني آلامي وهمومي، لستُ إلا صراعًا داخليًا بين يقيني وخيالي.

وضعت رأسي مرة أخرى لأنام، فإذا الباب يُطرق ثلاثًا! فتحت الباب ولم أجد أحدًا!

ساعتي مازالت معلّقة عند الواحدة مساءً، وكأنّ الليل ليلٌ أكثر من اللازم! وكأن همًّا واحدًا لا يكفي، وكأنّ الهموم يستأنس بعضها ببعض! من يشتري مني هذه اللّيلة السوداء؟ أو يبادلني إيّاها بأغنية خليجية!

هذا حالنا عندما نعبث مع "الأقدار" باستهزاء وننسى أنها لا تنسى، وتأخذ كلّ شيء بقوة. وها أنا ذا أحمل ذكرياتكِ بين قلبي، وتلك الأوجاع ظلّت ترافقني منذ أعوام، وكأن النسيان تعمّد أن يتخطّاني، فأبقى أسيرًا لذاكرة لا تهدأ.

خرجتُ من غرفتي رأيتُ العجوز واقفة عند باب الحمّام، وبين يديها بعض من العظام والمسامير الصدئة، ومشطٌ عالقٌ به شعر، وريشةٌ سوداء، وسكّين... كانت تتمتم بكلمات غامضة لا يُفهم منها شيء، وتخطّ على العظام باللون الأحمر، ثم ترسم نجمة خماسية وتُردّد فوقها عزيمة إبليسية خمسًا وعشرين مرة.

وضعت الشعر فوق العظام، ثم لفّتها بقماش أسود وعقدتها سبع عقد محكمة. بعد ذلك، توجّهت إلى عكس القبلة، رفعت رأسها إلى السقف وقالت بصوتٍ غريب: "الملك إبليس، اسمع عزيمتي واقبل دعوتي!" أخذت تكرّر عبارتها مرارًا حتى ارتجف جسدها بعنف، وانهارت باكية، ثم صرخت بصوتٍ عالٍ اخترق السكون: "ليحصل المراد... ليحصل المراد!"

وما هي إلا دقائق حتى شعرتُ بانقباضٍ شديد يعصف بجسدي، لمح بصري وميضًا كالبرق يجوب أرجاء منزلي، ثم اختفت قطعة القماش السوداء، وسقطت العجوز الساحرة مُغشيًّا عليها على الأرض. أسرعتُ إلى باب غرفتي وأغلقته بإحكام، وانكمشتُ كخفاشٍ مذعور، تتقاذفني الأسئلة والاستفهامات!

احتلّني "الصمت" طويلًا، وفقدتُ القدرة على التمييز بين الحقيقة والوهم، أترنّح بين نوبات الهلع، وأنزلق نحو عالمٍ غامض... حيث أصبح الخوف عاصفةً هوجاء، تعصف بكل ما فيّ، كأنها إذا مرّت لا تُبقي ولا تذر.

وفجأة، دوّى صراخ وبكاء عالي النبرة، شقّ سكون المكان، فتردّدتُ في فتح الباب، وبدأت أجوب غرفتي ذهابًا وإيابًا كالمسعور. لكن الفضول تملّكني في النهاية، انحنيتُ ببطء، ونظرتُ من تحت الباب خلسةً، فإذا بطفلين بلا ملامح يبكيان حول العجوز، ويزحفان حول جسدها الساكن. وما إن فتحت العجوز عينيها حتى رمقتني بنظرة شيطانية مظلمة، كأنها تطلّ من قاع جهنم!

قفزتُ فزعًا، وأسرعتُ نحو سريري، وما زالت الفوضى تتلبّسني. لا أعلم ماذا أفعل! لم أجد ملجأ سوى أن أهتديتُ لقراءة بعض آيات القرآن الكريم، حتى بدأ قلبي يهدأ شيئًا فشيئًا... لكن، فجأة... فُتح الباب بقوة، واقتحمت العجوز الغرفة وقالت بصوتٍ أجوف: "اصمت، ولا تزعج أطفالي!"

وضعتُ يدي على رأسي منكسرًا، وقلتُ في نفسي: تبدو الأوجاع عظيمة، تقبض الروح بقبضتها الثقيلة ثم يأتي ما هو أكبر وأشد، فيصغر ما كان يومًا كبيرًا. كلُّ شيءٍ بخير إلا أنا.

- ما الحل في أمر هذه العجوز؟

لقد خسرتُ كلّ شيء، فما عاد لدي ما أخسره، بعد أن ضُربتُ بالذل والمسكنة! فما الذي يمنعني من طردها؟ أليست إلا جانًّا من نار؟ سأطردها بآياتٍ من كتاب الله.

فتحتُ إذاعة القرآن الكريم، وبدأت أرشُّ أركان منزلي بماء مقروء حتى انتهيت، ثم تأهّبتُ للخروج، ويمّمت وجهي شطر ذلك المقهى الذي دومًا يُلهمني الكتابة لكِ.

كم من آلاف الأوراق البيضاء مزّقتها من أجلكِ ولا ذنب لها! وكم من مئات الصفحات كتبتُها لكِ... وأنتِ لا تعبئين بها!

وفي نهاية كلّ صفحة، أقسم ألا أكتب لكِ مجددًا، ثم لا ألبث أن أُحلّل كفّارة اليمين، وأعود لأكتب لكِ مستغفرًا... وأنتِ لا تهتمّين! أيعقل أنني كاتبٌ أكتب لكِ وحدكِ؟

- أأنا ضئيل الفكر، شحيح الإبداع؟

- أم أنني مضطرب قليل الصبر بين أسطري؟

- أهي رسائل بلا نبض ولا ظل؟

- أم أن المسافة التي سافرتِ بها أحجبتكِ عن أوراقي؟

الكتابة ليست كما تظنّين، أنا لا أكتب بحبر، بل أنزف. كلّ حرفٍ وجع، وكلّ سطرٍ نجاة مؤقتة من الغرق، وكلّ نهاية... خيبة مؤجلة.

فاعذريني إن بدت بعض الجراح نازفة على السطور، واستشعري الوجع الذي أنهكني، إن كنتِ تشعرين حقًّا. "وجعٌ مكتوب... خيرٌ من وجعٍ مكبوت".

أين أنتِ من تلك الورقة الثامنة والعشرين؟ من الصفحة التاسعة والثلاثين من أوراقٍ سقطت من مذكرتي؟

"ستصلكِ هذه الورقة، وأنا على قيد الحياة، وقيد الوفاء، وقيد الأمل، هناك فراغ حاولتُ ملأه بكل شيء عطركِ، ذكرياتكِ، طيفكِ. ولكن الحنين يزيدني بؤسًا وألما يصعُب احتماله، حتى أيقنتُ أن الفراغ يكبر، والحقيقة أني فقدتكِ، ولن أمتلككِ، وليس لدي سوى الخيال، لأجتمع بكِ وأسرد من خيالاتي قصصًا تجمعني بكِ، وليس على الموجوع حَرجٌ، حتى أصبح الأمل عاجزًا أعرج يرجو الخلاص".

هل تعلمين، أيتها الآسرة؟

البعض يضحك ليخفي جراحه، والبعض يبكي ليغسل وجعه، وآخر يخط بحبر الألم ليطرد ذكرياته، ومنهم من يغرق في نومٍ بلا نهاية لينسى... أما أنا، فأعيش في دائرة لا تنتهي؛ أضحك، أبكي، أكتب، أنام، أصمت، ومع كل ذلك، تظل صورتكِ محفورة في قلبي كوشم لا يمحى.

حاولتُ أن أدفنكِ بين صفحات الماضي، لكنكِ صرتِ قصيدةً تعيدني إلى وجعي، كنداءٍ من خلف الغيب لا ينقطع، جرحًا يهمس في نبضي، وظلًا لا يغادر روحي، ووطنًا يسكن قلبي رغم الخراب، كما تسكن الطير أطلالها بعد أن عافها الزمان.

بين أرجاء المشفى عجوز تسكن جدرانه.

خرجتُ من المقهى دون أن أحتسي "قهوتي السمراء"، كلُّ ما في الأمر أنّني كنت أحتاج كثيرًا من الهدوء، وقليلًا من الاستقرار؛ لأُخلّص نفسي من بؤسي وخوفي. فوجدتُني، دون أن أشعر، أكتب لكِ من جديد. عذرًا، عزيزي القارئ: كعادتي اليأس مغرمٌ بحبّها!

ركبتُ سيارتي، وإذا بضيقٍ خانق يعصر صدري. دقّات قلبي أخذت تضرب بعنف، كأنها تكسر ضلوعي واحدًا تلو الآخر، والأشياء من حولي بدأت تدور كعقارب ساعةٍ مجنونة.

لا أدري ماذا حدث بعد ذلك سوى أنّهم نقلوني إلى المشفى. أيامٌ وأنا بين أحضان المشفى... لإبر تنغرس في جسدي كقطع زجاج مكسور، حادةٌ لا ترحم، والكادر الطبي يجول حولي كخلية نحلٍ لا تهدأ. أسلاك، وأنابيب، ومغذيات متشبثة بذراعي كأنها قيود سجينٍ في معتقلٍ لا يُفرج عنه، أو أسلاك حدودٍ تشبه تلك التي خنقت فلسطين، تشدّني إلى سريري بقوة لا فكاك منها.

نظرات الأطباء تتلاقى، تهمس وكأنها تقول: إنّها حالة غريبة لم ندرسها من قبل! كلُّ طبيبٍ يُشخّصني تشخيصًا مختلفًا عن الآخر، وكأنّهم ضلّوا الطريق إلى فهم ما بي. وفي اليوم الخامس، بعد الساعة الثانية صباحًا، رفعتُ عيني إلى سقف الغرفة، فوجدتُ تلك العجوز معلّقة هناك، في عتمة السقف، وجهها يملؤه الحروق، تنظر إليَّ بعينين سوداويّتين جامدتين. كنتُ أنظر إليها، وهي تحدّق بي، وانتابني في تلك اللحظة طوفان من الخوف والهلع لم أعرف له مثيلًا.

دخلت الممرضة سماح، تتمتم بكلمات غير واضحة، ووقفت بجانبي، وبدأت تنظر إليّ بنظرات لا أعلم كيف أصفها، ثم قالت: أنت لعنة على المشفى، ثم بصقت في وجهي وغادرت مسرعة!

بقيت مشلول اللسان، مذهولًا من فعلتها المشينة. لم أنطق، لكنني كنت أرى وأشعر بكل شيء من حولي بوضوح مؤلم. كان الوقت ينساب بثقل، كأنه يزحف فوق شفرات سكاكين، حتى بزغ الصباح على مضض، وكأنه جاء مكرهًا. نظرت إلى سقف الغرفة فوجدت سوادًا ولم أجد العجوز!

دخل الطبيب بهدوء، وصوته مزيج من المجاملة والفتور حين قال: كيف حالك اليوم؟ نظرت له ولم أستطع الكلام! بدأ يقلب في الملف الطبي، ثم نظر إليّ وضحك وقال: الحالة غريبة ولا يوجد فيها تشخيص طبي!

عند الساعة الثانية ظهرًا، بدأت الزيارة، لم أستطع الرد على أي زائر فقط أنظر وأحرك رأسي، وقبل انتهاء الزيارة دخل صديقي عبد الله ينظر لي وأنظر له، ثم سأل الطبيب كيف حاله الآن؟

فقال الطبيب: حالته مستقرة، مسألة وقت ويكون بخير، التفت عبد الله إليّ وقال بصوت مملوء بالأمل: الزم قراءة القرآن والأدعية لعل الله يشفيك. ثم ودعني وغادر المشفى.

وفي تمام الساعة الواحدة صباحًا، اخترق سكون الليل صوت عويل وبكاء مرير، نظرتُ في أرجاء الغرفة ولا يوجد أحد، ثم نظرت إلى سقف الغرفة فوجدت العجوز متعلقة في زاوية الغرفة! وقالت: لقد حرقتني وحرقت أطفالي، ولن أتركك، وسوف أنتقم منك.

لم أتمالك نفسي من الرعب الذي اجتاحني، وما هي إلا دقائق حتى دخلت الممرّضتان، تحملان أكواب القهوة بأيديهما. بدأتا بتركيب المغذي بهدوء وكأن شيئًا لم يكن. حينها تمتمت الممرضة سماح بحدّة: "هذا المريض شؤم على المشفى." استدارت إليها زميلتها هناء بدهشة وسألت: لماذا تقولين ذلك؟

قالت سماح: منذ دخول هذا المريض، انطفأت الكهرباء في المشفى لساعتين كاملتين دون سبب واضح، واختفت بعض ملفات المرضى من الأرشيف، وفي اليوم نفسه توفي مريضان بشكل مفاجئ.

ومنذ ذلك الحين، والمشفى يرزح تحت ثقل غريب... الخلافات والمصادمات لا تفارق كادر التمريض، والمشاكل بين الزملاء تزداد يومًا بعد يوم.

رفعت هناء حاجبيها بدهشة، ثم تمتمت بتردد: الأمر غريب فعلًا أيمكن أن يكون هذا المريض هو السبب؟ لا أظن ذلك يبدو غير معقول.

مرّ يومان قضيتُهما في قراءة القرآن الكريم والتحصين بالأذكار قدر استطاعتي. شيئًا فشيئًا، بدأ صوتي يعود بثقل، لكن جسدي بقي مقيدًا، عاجزًا عن الحركة وكأن قيودًا خفية تشدّ أطرافي.

وعند الساعة الثامنة مساءً، دخلت الممرضة هناء إلى الغرفة، وعلى وجهها ابتسامة دافئة. اقتربت بخفة وقالت بنبرة لطيفة: كيف حالك اليوم؟

قلت: الحمد لله، اليوم أحسن.

قالت: أتعلم أن الأطباء حتى اليوم لم يستطيعوا تشخيص حالتك؟

قلت: انظري إلى سقف الغرفة هل ترين شيئًا؟

فقالت: لا يوجد شيء! أأنت ترى شيئًا؟

فقلت: توجد عجوز.

ضحكت بسخرية وقالت: لعل الأدوية أثرت عليك، فقلت: يمكن. ثم قالت: أتحتاج أي شيء؟ فقلت لها: شكرًا، خرجت وهي تنظر إلى سقف الغرفة.

وماهي إلا ساعات وقد حل الهدوء، نظرت إلى سقف الغرفة فوجدت العجوز تنتف رموشها، بعد دقائق ثقيلة كأنها دهور، بدأت بالنزول ببطء من السقف، وكأن الجدران تسهّل لها الطريق، ثم قامت بفصل الأجهزة وسحبت المغذي من يدي، وقامت بشد شعري بقوة حتى شعرت بألم يخترق جمجمتي.

وقالت: "ستموت قريبًا" ثم خرجت من الغرفة، ابتلعت خوفي كما يبتلع الغريق أنفاسه في مستنقع مظلم، وصدري يعلو ويهبط بجزع.

وفجأة... ومن دون أي مقدمات، اخترق سمعي ضجيج عنيف من خارج الغرفة! سمعت صوت صرخة ترعب القلب، دب الخوف في من جديد، ولكني عاجز عن الحركة، وكل الأمور تتدحرج بالتدرج نحو الأسوأ.

وبعد ساعة من الضجيج، فتحت العجوز باب الغرفة وبيدها، كيس من الدم تدلّى كأنه قلب نابض، بدأت تصعد مجددًا نحو السقف بخفة مريبة، حتى استقرت في زاويتها المعتادة. ثبتت عينيها عليّ، ثم اندفعت تشتم وتبصق في وجهي بقسوة.

بدأت أكبّر في قلبي، فقالت: اصمت، تجاهلت كلامها وأكملت، نزلتْ من سقف الغرفة ورمت ما حولها، وقالت لي باستعلاء: أن كل التحصينات التي تلهج بها لا تعنيني؛ أنا لا أمرض ولا أصاب، لدي حُرّاس يحمونني، وأملك القدرة على معالجة حروقي بنفسي.

أنا أعيش لتدليسكم... لنشر الفواحش والأمراض بينكم! ثم، وفي لحظة غضب عارم، فتحت نافذة الغرفة بعنف، واختفت من خلالها، تاركة خلفها أثرًا من الغيظ والهواء البارد يلسع وجهي.

حافظتُ على هدوئي حتى أتى الصباح. تسلل الضوء باهتًا، كأن الفجر أتى على استحياء، والهواء باردٌ خفيف، كنسمةٍ تائهة لا تدري أين تستقر. كانت الاستفهامات تتساقط أمامي كأوراق خريفٍ حائر، والحيرة تأخذني هنا وهناك. أشعر بازدحام المخاوف والقلق. طُرِق الباب ثلاث مرات، فرفعتُ بصري، فإذا بهناء تبتسم لي. ابتسمتُ لها، وكأن الدنيا بأسرها بخير.

قالت: كيف حالك؟

فقلت: الحمد لله.

قالت: هل يمكنني أن أسألك سؤالًا؟

فقلت: طبعًا، وبكل سرور.

فقالت: كيف كان شكل العجوز؟

فقلت: لماذا؟

فقالت: أجبني أولًا.

فقلت: إنها عجوزٌ غريبة الأطوار، لها طفلان بلا ملامح، يثيران الريبة بمجرد النظر إليهما. ترتدي السواد دائمًا، وملامحها مشوهة بشكل مرعب، وجهها يحمل قبحًا لا يوصف. متمرّسة في السحر، خادمة للمشعوذين. تراها أحيانًا تزحف على الأرض، وأحيانًا تمشي كأنها تجرُّ خلفها ظلالًا مثقلة بالأذى. تسكن منزلي منذ أن اعتديت يومًا على قطة كانت تقف أمام بابي، ولم أعلم وقتها أن تلك القطة

كانت مسكونة بروحها. حين حاولتُ مواجهتها بآيات القرآن، انتقمت مني وآذتني بشدة، كأنما أصابتني صيحة فأصبحتُ صريعًا، ولهذا أنا الآن في المشفى.

فقالت: فهمت الآن، لهذا حتى اليوم الأطباء غير قادرين على تشخيص حالتك.

- أتعلم يا عماد؟

أنها أمس ضربتْ ممرضة على رأسها والتوى فمها بسبب الضربة، ودخلت بنك الدم وكسرت الأشياء، ومن ثم دخلت غرفتك! والحقيقة أن هذا المشفى مخيف وكأنه مسكون. دائمًا نرى أشخاصًا يمرون بالطابق الثالث وتصدر منهم أصوات، رغم أن هذا الطابق مغلق تمامًا.

فقلت: هي هناك... في تلك الزاوية المظلمة من الغرفة. تظهر دائمًا عند منتصف الليل، حين يسكن الصمت وتصبح كل الظلال تتحرك كأنها أرواحٌ ضائعة، وكأنها تراقبني بأعينٍ لا ترى، تنتظر اللحظة التي ينهار فيها عقلي.

ابتسمت وقالت: انتهى دوامي.

فقلت لها: شكرًا لإصغائك لي.

قالت: عفوًا إلى اللقاء.

وعند الساعة التاسعة صباحًا، حضر الطبيب. نظر يمينًا ويسارًا، كمن يحمل في صدره سرًّا ثقيلًا أُمر أن يُلقيه، ثم سأل عن حالي... وكأن السؤال مجرّد ستارٍ لا يُخفي العاصفة!

فقلت: الحمد لله. عفوًا، متى سأخرج من المشفى؟

فقلت: بصراحة المشفى ممل.

فقال: لا عليك، أيام وتخرج بصحة وعافية. ولكن ما هذا الحزن الذي يسكنك؟

فقلت دون قصد: الحب

فقال: اسمع هذه النصيحة: "إذا ركبت سفينة، وتعايشت مع الناس فلا تفرط بمشاعرك، وتأكد أن خلف كل مبالغة صفعة خذلان، امنح الثقة لمن يستحقها، ولكن لا تفرط. أحبَّ الناس وامنح البسمة والمشاعر الطيبة للجميع، ولكن بتعقل، ولا تنسَ حكمة التوازن".

ابتسمتُ وقلت: "إن شاء الله". وبين نفسي راق ما قاله لي، شكرًا على النصيحة.

لكن كان كلامه من وراء قلبه! وفي طياته شيء من الكذب الذي لم يخفَ عليّ. تمرّ الساعات تلو الساعات، وما زلت أنظر إلى الباب، لعل صاحبة الابتسامة الجميلة تعود. وكأنها امتلكت وجهًا خُلق ليبتسم، فتضيء كل زاوية في عالمي، ويظل طيفها يلاحقني في كل لحظة.

بعد ساعة من الانتظار، رنّ هاتفي؛ كان صديقي سلطان يتصل ليطمئن على حالي. قال: رأيتُ أمس حلمًا غريبًا... كنتُ أجلس في أحد المقاهي القريبة من منزلي، وفجأة تسللت إلى أنفي رائحة دخان. هرعتُ إلى البيت، فوجدت النيران تلتهمه. سارعتُ إلى إخراج والديّ وإخوتي، والحمد لله، خرجوا سالمين دون أذى.

بعدها عدتُ إلى الداخل لأتفقد غرفتي، تلك الغرفة التي كانت تُعرف باسم الغرفة قبل الحريق، فإذا بها وقد تحوّلت إلى كهف مظلم موحش.

فقلت له: حمدًا لله على سلامتكم.

ضحك وقال: الله يسلمك.

فقلت: ماهي إلا أضغاث أحلام، ثم ننس ما حلمنا به.

طُرق الباب ثلاث مرات، ثم فُتح ودخلت هناء كعادتها مبتسمة، وفي يدها كوبان من القهوة. قالت بلطف: كيف حالك اليوم؟ أحضرتُ لك قهوة.

ابتسمتُ وقلت: أنا بخير، شكرًا على القهوة.

رفعت بصرها نحو السقف وقالت بتردد: وأعتذر لعدم الإفصاح عن كل شيء... هل العجوز موجودة؟

قلت لها: لا.

فقالت: الحمد لله. وبصراحة، جلستُ أفكر في حديثك وقصتك مع العجوز، ووجدت أنك رجل قوي في مواجهتها، رغم ما عانيته من أوجاع. لم تختبئ خلف الظلال، بل وقفت بثبات... أنت وحدك تعادل قوة عشرة رجال!

فقلت لها: من يمرَّ في مقصورة الأحزان ويخرج منها ولا يتعلم فهو عاجز، وأنا عاجز يا هناء.

قالت: لا، بل أنت قوي. فقط ابذل ما في وسعك، وأَحِط نفسك بسياج من الفرح قدر المستطاع. وإن بدا بعيد المنال، فامضِ نحوه بثبات. واعلم جيدًا أن الحياة لا تسير على وتيرة واحدة؛ لذلك خذ من هذه التجارب خبرة ودروسًا وعبرًا. الآن، اشرب قهوتك... وأكمل لي قصة العجوز. ماذا تريد منك؟

قلت: تريد أن تؤذيني كما فعلتُ بها، وأنا على يقين أن أمري لله وحده، حيث قال ﷺ (وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ) رواه الترمذي قد تكون المواجهة صعبة؛ لأنها ساحرة، لكنني أعلم يقينًا أن الله أقوى منها، وأقوى من كل شيء.

قالت: أنت أقوى منها بكثير. قد لا أعرفك معرفة عميقة، لكنني أرى فيك قوة واضحة. تفضّل، سجّل رقم هاتفي لديك، ولا تتردد في الاتصال بي متى احتجت... أنا هنا لمساعدتك.

فقلتُ لها: لا تُعامليني بشفقة، فأنا أكره ذلك.

فقالت: شفقة! أ أنت ضعيف؟

فقلت: لا.

فقالت: إذًا، كيف أعاملك بشفقة؟ أنت كاتب، وأنا إحدى المعجبات بكتبك. أكتسب الصبر من أسطرك، وتشبيهاتك البليغة تجذبني من القاع إلى السماء. أنا أحب كلماتك كما أحب المطر والغيوم.

فقلتُ: أنا مُزعِج باتصالاتي.

قالت: أتمنى ذلك، أيها الكاتب. إلى اللقاء...

أحدهم يراك هامشًا، وآخر يراك أُمنية. ابتسمتُ حينها لصدق مشاعرها، واضحة كالشمس، بلا مقدمات. غفوتُ ولا أعلم كم لبثتُ! تشرق الشمس معلنةً أملًا جديدًا، وترسل أشعتها الذهبية على وجهي، وكأنها تمسح الأوجاع من ملامحي. فتحتُ عيني، فوجدتُ هناء مبتسمة، وقالت: صباح الخير، إن شاء الله ارتحتَ في النوم؟ قلتُ: الحمد لله، أحلى نومة منذ أن حضرتُ المشفى.

فقالت: الحمد لله، ونوم العافية. انتهى دوامي، وسيبدأ مجددًا اليوم في تمام الساعة العاشرة مساءً. هل تريد أن أحضر لك شيئًا؟ فقلت: يا ليت قلمًا وورقات.

فقالت: أبشر من عيوني، إلى اللقاء.

لن يَخذلَ اللهُ قلبًا ظنَّ به خيرًا. نحنُ بالله، ولا حولَ ولا قوةَ لنا إلا به. حُسن الظنِّ بالله من أجمل العبادات، وما نالَ أحدٌ الخيرَ والرضا إلا بحُسن ظنِّه بالله. ومن أجمل ما قال الصدِّيقُ لصاحبه: "نظرتُ إلى أقدام المشركين ونحن في الغار، وهم على رؤوسنا، فقلتُ: يا رسول الله، لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا." فقال ﷺ: (مَا ظَنُّكَ يا أبا بكرٍ باثْنَيْنِ اللهُ ثالثُهُما) متفق عليه

حين دقّت الساعة العاشرة والربع مساءً، دخلت هناء وبيدها أوراقٌ وقلمٌ وكوبُ قهوة. كان حضورها كحضور المرسلين، يملأ المكان بهدوءٍ غامض، وتستطيع أن تشعر بحضورها دون أن ترى سوى نورٍ خافتٍ يحيط بها. ابتسمتُ بشدّة، وكأن الوقت توقّف لحظة، وأنا أغرق في عينيها.

قلت: شكرًا.

فقالت: ولا يهمك، أنا في خدمتك. في الحقيقة، لديَّ اليوم مناوبة في الطابق الأول. لو احتجتَ شيئًا، اتصل عليَّ دون تردد. وأنا سأطمئن عليك عبر الواتساب.

قلتُ: إن شاء الله، وأتمنى لكِ يومًا جميلًا.

عكفتُ تلك الليلة بين الأوراق وكتبتُ:

بين أرجاء المشفى، عجوزٌ تسكن الجدران كما تسكن الندبةُ جسدًا عليلًا، تُدخل الهلع في قلوب المرضى والزوار. أرواحٌ عالقة، تتشبث بالهواء ولا تنوي الرحيل، وصبيٌّ بلا ملامح يهرول خلف كرته في ممراتٍ لم تعد تعرف النور.

تظهر العجوز بثيابٍ ممزقة، ويدين تقطران بالدم. تصرخ صرخة تشقّ السكون، ثم تزحف إلى سقف الغرفة رقم (٢١٧) وتستقر هناك، كأنها تنتمي إليه. وفي الظلام، تعمل ممرضة كالقمر، تبتسم فتكنس أوجاعي كما تكنس الرياح أوراق الشجر في فصل الخريف. عاملتني كطفلها، فبقيتُ في المشفى رغم ألمي، وكأنها هي الشفاء وسط هذا الخراب، كما هو الضوء في عمق الليل الحالك. وفي كل لمسة من يديها، كان هناك وعدٌ بالنجاة من عتمة الأيام. لكأن هذا المكان يسكنه الماضي، وتلاحقه ظلال الأرواح المعلقة بين الحياة والموت.

نِمتُ ثم استيقظتُ على أشعة الشمس تُداعب وجهي، وكأنها تهمس: هنالك خياران؛ أن تكمل نومك أو تستيقظ وتتابع تحقيق أحلامك. فتحتُ عينيّ، فوجدتُ هذا الكلام مكتوبًا أمامي.

راقت لي كلامتك وشكرًا على الإطراء،

ما أحببت إزعاجك، انتهى دوامي وأتمنى لك يومًا جميلًا يشبهني.

كم أنتِ بارعة،

في إحياء مشاعري المقتولة...

بلمحة، كأنكِ عيسى إذا مسّ الجسد الميّت،

فنبض القلب بعد طول سكون.

تلويحة من نور الخيال تزورني، فتفتح الروح عينيها بشغف. تهبُّ عاصفة الأمنيات، ملتحفةً سماء محبتي، فتتناثر سنابل الكلمات راقصةً في حقول البهجة.

تشرق الحروف بعدما عَبَرت فضاء البوح، متجاوزةً غبش المعاني، فتنطلق الأنفاس نشوى، وترتقي غواياتي. أُبحر في ترانيم حبك؛ فالحبُّ رزقٌ من الله، وطاقةٌ تهب الحياة نبضها. وكأنكِ تمنحين حياتي طعمًا، ولونًا، ومعنًى لا يشبهه معنًى.

بعد دقائق، جاءت الممرضة سماح تحمل الفطور، وقالت بابتسامة صفراء: تفضّل.

ابتسمتُ وقلت في نفسي: أأنا لعنة على هذا المشفى؟ نظرتْ إليّ بنظرات غير مرحِّبة، حتى حضر الطبيب وقال مبتسمًا: وجهك مُشرق اليوم.

قلت: الحمد لله.

قال: ما السبب؟

قلت: الحب.

قال مبتسمًا: عجبًا من الحب، يُفرحنا ويُبكينا! ثم فتح الملف وبدأ يتصفحه، قبل أن يقول: حالتك الصحية أفضل بكثير. نحتاج فقط إلى إجراء بعض التحاليل للاطمئنان عليك.

قلت: إن شاء الله، ولكن هل هناك مشكلة؟

قال: لابد من التأكد من الحالة الصحية.

فقلت: إن شاء الله.

فقال: نطمئن، ومن ثم نكتب لك خروجًا. ثم غمز لسماح، وطلب منها عمل التحاليل، وبعد ساعة قامت بأخذ بعض الفحوصات وعينة من الدم وخرجت.

وما هي إلا ساعات حتى حضر لزيارتي صديقي عبد الله وسلطان، فخرجت معهما إلى فناء المشفى. سألتُهما عن المشفى، فقال سلطان: هذه أول مرة أحضر إلى هذا المشفى. وقال عبد الله: المشفى قديم، وإمكاناته ضعيفة، وقد مر بالكثير من الأحداث الغريبة، والكثير من الذكريات التي لا تُنسى. كل ركن، وكل زاوية، وكل شيء فيه يحمل الكثير من الحكايات المزعجة؛ لذلك لا يأتي إليه الناس. ثم سألني: لماذا اخترتَ هذا المشفى؟

فقلت: لا أدري، فقد فقدتُ الوعي، والإسعاف نقلني إلى هذا المشفى.

قال: أتعلَم أنك في منطقة نجران؟

فقلت: تمزح! نحن في مكة؟

قال: لا، نحن في نجران.

خيَّم عليَّ الصمت، وغرقتُ في دوامة من الذكريات. تذكرت لحظاتي الأخيرة بوضوح عندما غادرتُ المقهى وركبتُ سيارتي ثم انقطعت الصورة، وكأن ستارًا ثقيلاً أُسدل على وعيي، فأُغشي عليّ كأن لم ألبث إلا قليلًا.

لا أذكر شيئًا بعدها! من الذي نقلني إلى نجران؟ ولماذا جئتُ إلى هذا المشفى تحديدًا؟

نظرتُ إلى جدار المشفى، وقد بدت عليه علامات القِدَم واضحة؛ طلاء متشقق، وبناء قديم الطراز. كانت الإضاءة ترتعش بخفوت، وكأنها تحتضر.

شجرة ضخمة تجاور الجدار، تجاوزت حجمه بكثير، وكأنها لم تستأذن أحدًا لتنمو بهذا الشكل الجامح، فتصدَّعت جذورها عبر الجدار وأضعفته.

زجاج النوافذ لم يكن أكثر وفاءً؛ تهشَّم إلى قطع بلورية متناثرة على الأرض. الأثاث عتيق، والرائحة العابقة بالقدم تملأ المكان، حتى يخال إليك أن الهواء ذاته قد شاخ مع هذا المشفى. الجدران متصدعة والممرات معتمة، ينساب فيها ضوء خافت من مصابيح متعبة. الأصوات خافتة كأنها أنين الماضي، والظلال تتراقص كأشباح ترفض الرحيل... كأنك تمشي في دارٍ نسيت أهلها، فصارت عبرةً لمن عبر، وسكنتها الوحشة بدل الساكنين.

HOSPITAL

عند الغروب، تصير الحيرة نافورة راقصة؛
تتمايل بين رجاءٍ يتوهّج، وخوفٍ يتكسر بصمت.

انتهت الزيارة، ولم تنتهِ حيرتي. تساقطت الأسئلة على رأسي كالمطارق على المسامير، بلا إجابة تشفي صدري. عدتُ إلى غرفتي وتمددتُ على سريري، الذي بدا وكأنه "علبة كبريت"، يشعل أفكاري ولا يُطفئها. دخلت الممرضة سماح، وحقنتني بإبرة، فغفوت سريعًا، كأنما أُلقِي عليّ سباتًا لا أدرى كم لبثتُ فيه.

عندما استيقظت، شعرت بضيقٍ شديد وانقباض خنق صدري. كان ذلك بسبب حلمٍ ثقيل راودني في الليلة الماضية؛ رأيت فيه رجلين قويين يمسكان بي، يرفعانني عن وسادتي، ويضعان كأسًا في فمي. شربتُ منه سائلًا مالح الطعم، ثم رشّا ما تبقّى من المشروب في أركان منزلي. حاولتُ أن أقاومهما، لكن دون جدوى.

استفقتُ من النوم، والعرق يتصبب من جسدي، والألم يعتصر بطني. أخذتُ نفسًا عميقًا، واستعذتُ بالله. أكان حلمًا أم خيالًا؟ الأعجب من ذلك أن طعم ذلك المشروب ما زال عالقًا في فمي حتى الآن!

اتصلتُ بمفسر أحلام، وقصصتُ عليه ما رأيتُ في منامي. فقال: المشروب في المنام يدل على أن هناك من يحيطون بك، ويكيدون لك كيدًا، والله أعلم.

أما رش السائل في المنزل، فقد يكون إشارة إلى وجود شخص قريب منك يرغب في إلحاق الضرر بك، أو صرفك عن طريق الحق والهداية. لذا، عليك أن تكون حذرًا.

أغلقتُ السماعة، وتمتمتُ لنفسي: لم تأتِ العجوز منذ يومين، أيمكن أنها منشغلة بعمل السحر؟ لا أدري، لعلها مجرد أوهام وأضغاث أحلام.

اتصلتُ بهناء وطلبتُ منها أن تأتي. وبعد ساعة حضرت، مبتسمة كعادتها. سألتُها: ما هذا المشفى؟

فقالت مستغربة: لماذا؟ وتغيرت ملامح وجهها على الفور.

فقلتُ لها: كنتُ في مكة، في مقهى قريب من منزلي، ثم شعرت بأنني أفقد الوعي. فمن الذي جاء بي إلى نجران؟ وكيف انتهى بي الأمر في هذا المشفى الغريب؟

فقالت: لقد بدأ دوامي، أستأذنك الآن.

قلت: أجيبيني.

فقالت: إلى اللقاء، وخرجت وأقفلت باب الغرفة بقوة، وكأنها تخفي شيئًا! خرجتُ من الغرفة أبحث عنها فلم أجدها، نهضتُ بسرعة وخرجت أبحث عنها، لكنني لم أجد لها أثرًا.

فتحت أبواب الغرف المجاورة، فلم أجد فيها مرضى؛ كانت الأجهزة الطبية قديمة جدًّا، والممرات غارقة في الظلام. وفجأة، دوى صوت صراخ من الطابق الأعلى، فشعرت بانقباض شديد يعصر جسدي. لفت انتباهي وميض خاطف كالبرق يجوب المكان. اعتراني الخوف، وكاد قلبي يتوقف من هول المنظر.

عدتُ إلى غرفتي، وقد اجتاحني شعور بالاختناق والبكاء والغثيان. كان الألم يعتصر بطني، وحرارة مرتفعة تسري في جسدي. انكمشتُ كالأرنب الخائف، وكل جزءٍ مني كان يقطر رعبًا وحيرة. حاولت أن أهدئ نفسي، فبدأت أتلو بعض آيات القرآن، كأنما ألوذ بحبلٍ لا انفصام له.

فجأة، دوى صوت طرقٍ عنيف على الباب، ثم اندفعت العجوز إلى الداخل، وقالت بصوت حاد وقاطع: اصمت، ولا تزعجني!

قلتُ بقلق: ماذا تريدين مني؟

قالت بغضب: قلتُ لك، لا تعبث معي! ضربتني في المرة الأولى، وفي الثانية فتحتَ إذاعة القرآن فأحرقتَ طفلي. أتدري من أنا لتجرؤ على العبث معي؟

قلت: أين أنا؟

قالت بصوت متوعد، وعيناها تلمعان شرًّا: أنت الآن في مملكتي، وتحت تصرفي، ولن تخرج من هنا إلا مختلًّا، أيها الأحمق. ستفقد الإحساس بالزمان والمكان، ستتبول على نفسك، وتفقد قدرتك على التصرف. ستسمع أصواتًا لا وجود لها، وترى أشياء غير حقيقية، وتتحدث مع نفسك كالممسوس. سيبكي أهلك عليك، تمامًا كما بكيتُ أنا على أطفالي. ثم استدارت، وغادرت الغرفة ببطء، وهي تحبو على الأرض، كأن ظلًّا ثقيلًا يسحبها بعيدًا.

حالة من الفوضى ما زالت تعصف بي؛ أفكاري مشوشة، وكأنني غريق في مستنقع مظلم، أحاول أن أتنفس وأكافح، لكن الهواء نفسه كان يلسع حنجرتي مع كل شهيق.

ساعات وأنا غارق في هذا الغثيان، حتى فُتح باب الغرفة بهدوء، ثم أُغلق بنفس الرتابة.

في الخارج، كانت السماء وكأنها تمزقت كما يُمزق بكْرٌ في ليلتها الأولى. جاء الصباح، لكنه كان ساكنًا كالموت؛ لا أثر لأحد، حتى الطيور صمتت عن أناشيدها المعتادة.

انتظرتُ الطبيب، وهناء، وسماح حتى الساعة التاسعة صباحًا، دون جدوى. خرجت من الغرفة، وأسراب من الأسئلة تتساقط خلفي، بينما الحيرة تتمدد في داخلي كمرض جلدي قبيح لا فكاك منه.

وفي نهاية الممر، رأيت العجوز ممددة على بطنها، تحدّق بي بنظرات مملوءة خبثًا وسخرية. كانت تنتف رموشها بأصابعها اليابسة، ثم تغرس أظافرها في فروة رأسها، تشد خصلات شعرها بشراسة، فتتساقط بين يديها كأنها خيوط محترقة.

كانت تضحك بصوتٍ مكتوم، وأناملها تلتف على الشعر المقتلع، تدلّكه بين كفيها كأنها تفتل حبالًا من لعنة قديمة. ثم لوّحت بيدها، إشارة واضحة وكأنها تقول: ارجع إلى غرفتك.

عدتُ إلى غرفتي، وحاولت الاتصال بصديقي عبد الله، لكن إشارة الاتصال كانت مختفية تمامًا، كأنها لم توجد أصلًا!

ظللتُ أحاول بلا جدوى، حتى الساعة العاشرة صباحًا، حين دخلت هناء بهدوء وقالت بصوت منخفض: حافظ على هدوئك.

قلت: لماذا؟

قالت همسًا، وعيناها تتلفتان بحذر: أنت في مكان غير آمن. الطبيب يعطيك حبوبًا وأدوية مخدرة، وهو متواطئ مع تلك العجوز لتدميرك. انتبه... "واحفظ هذا السر بيني وبينك فقط".

قلتُ متوجسًا: أنا لستُ في مشفى... أليس كذلك؟

قالت: صحيح.

قلت: ومن أنتِ؟

فقالت: أنا هنا لمساعدتك.

قلت: أنتِ من الجان؟

ابتسمت وقالت: لا تخف، أنا هنا لأجلك... ولأساعدك.

قلت: أريد الخروج من هنا.

قالت: الخروج من هنا صعب. هذا المشفى تسكنه العجوز الشريرة، ويرافقها جن يحرسونها. لكن هؤلاء ليسوا كغيرهم... إنهم صنف مختلف، غرباء الأطوار، ذوو أجساد قوية، وشعور شعثاء، ومظهرهم متوحش. بينهم الضالون والمضلون، ولهم قدرات خارقة؛ يفعلون أشياء عجيبة، يتحركون بسرعة خاطفة، ويُنجزون أفعالًا شاقة لا يقدر عليها البشر.

تكمن قوتهم الكبرى "عند الغروب"، أما تحصينك الصباحي والمسائي، فهو ما أبقاك على قيد الحياة حتى الآن. أنا أحاول إخراجك قدر المستطاع من هذا المكان. الأهم... عندما يدخل الطبيب أو سماح، كن محصنًا، وكرر الأذان في قلبك دون أن يشعر أحد، ولا تتناول أي دواء منهما أبدًا.

تذكرتُ والدتي حينها كانت دائمًا تتمنى أن أكون "مؤذنًا "عندما أكبر، تلك كانت أُمنيتها التي لم أحققها بعد. عذرًا يا أمي... ودّعتُكِ، لكنني لم أنسَ إحسانكِ إليّ منذ أن عرفتُ الحياة.

كنتِ لنا العطاء والاحتواء، والصبر والوفاء. كنتِ أنتِ البارة بنا، ولم ننل شرف برّكِ كما يليق بكِ. زرعتِ فينا كرم الخُلُق، وسماحة النفس، ولين الطباع، وصدق التواضع، وحبَّ المساكين. لم أسمعكِ يومًا تذكرين أحدًا بسوء، ولم أشهد في حياتي أحدًا يُبغضكِ.

قلت: صعب الخروج؟

قالت بصوت مليء بالثقة: جاء في القرآن الكريم أن القمر انشق، وأن الطفل نطق، وأن النائمين استيقظوا بعد سنين، والعذراء أنجبت. فالله لا يعجزه شيء.

قلتُ في نفسي: إن شاء الله. لكن الصمت اجتاحني، واستوقفني السؤال: هل أنا ملموس أم مسحور؟ هل أصبت بعين؟ هل وضعت نفسي في هذا الجحيم؟ وأسقطت نفسي في هاوية لا أعرف أين يقبع قاعها؟

ليتني لم أضرب تلك القطة! الآن بدأ الندم يتسرب من حيث لا أدري. اشتعل الرأس شيبًا، وفي يقيني الداخلي أن أمري وأقداري بين يدي الله، وما كان لي أن أغفل، فيُسلَّط عليّ من لا يرحم، فتزلّ قدمي بعد ثبوتها.

تمر الساعات تلو الساعات، وما زالت حالة الارتجاج تسيطر عليّ، أفكاري مشتتة كأنها موجة عاتية ضربت حياتي وجعلتها تهتز.

وعند الساعة الثانية ظهرًا، طرق الباب ودخل الطبيب قائلاً: كيف حالك؟

قلت: الحمد لله. تذكرتُ كلام هناء، فبدأت بالأذان في نفسي، ونظرتُ إلى الطبيب. عندها بدأت ملامح وجهه تتغير بشكل غير مألوف، ثم قال بصوت منزعج: الأمر غريب.

قلت: لماذا؟

قال: لا شيء، وخرج من الغرفة بسرعة، كأنما كان يحاول الهروب من شيء ما.

وما هي إلا دقائق حتى دخلت الممرضة سماح، وضعت بعض الأدوية وكوبًا من الماء على الطاولة الجانبية، ثم خرجت بسرعة. أخذت الأدوية ورميتها في سلة المهملات.

بدأت بالأذان، وتلاوت بعض آيات القرآن بصوت خافت يتسلل بين أركان الغرفة. فجأة، دخل الطبيب غاضبًا، صوته حادًّا كالسيف: "لا تقرأ هنا، لا تزعج الآخرين!"

قلت: من الآخرين؟

قال: المرضى.

قلتُ: لا يوجد مرضى غيري!

فقام الطبيب بوضع إبرة على المغذي، ثم ربط المغذي بيدي، ثم خرج من الغرفة. تركني في حالة من الذهول! سحبت المغذي من يدي، وفي تلك اللحظة تأكدتُ من كلام هناء. حاولت الاتصال بها، لكن لم يكن هناك أي إرسال، وعلامة برج الاتصال اختفت تمامًا!

وضعتُ رأسي على الوسادة، وقررت الخروج من هذا المشفى. لم أكن واثقًا بقدراتي، ولم يكن لدي ما أخسره بعد أن ضُربتُ بالذلة والمسكنة. لكنني علمتُ أن الأمر يتطلب الكثير من التخطيط والتحصين، فالصراع مع الجان ليس سهلاً.

مع بزوغ شمس اليوم الثاني، دخلت هناء، تحمل في يدها كوباً من القهوة تفوح منه رائحة دافئة، وفي يدها الأخرى كتاب تتخلله ورقة صفراء باهتة كأنها تخفي سراً قديماً. اقتربت بخطى واثقة وقالت: أتريد الخروج؟

ابتسمت وأجبتها دون تردد: أكيد. سكنت لحظة، ثم رفعت عينيها نحوي، وفي نظرتها مزيج من الجد والتحذير، وقالت بهدوء عميق: إنها معركة كبيرة... وقد تسقط فيها وتموت.

قلت: إن الله لا يُعطي أصعب المعارك إلا لأقوى جنوده.

قالت: وأنت كذلك، في هذا الكتاب ورقة، عليك العمل بما فيها لمدة ثلاثة أيام.

وإذا سنحت لك الفرصة للخروج، فاخرج صباحًا من بوابة سبعة، حين تكون الشمس مشرقة، وقبل أن تسجد لله تعالى.

تذكر جيداً: الجن الكافر يخاف من ذكر الله، ويهرب من أي مكان يُذكر فيه اسمه عز وجل، ويرتعد من كتاب الله وآيات القرآن الكريم. إنه يكره الطهارة والنظافة، والحقيقة أن تحصينك هو سبب نجاتك حتى الآن.

لم تستطع العجوز وشياطينها أن يؤذوك لهذا السبب؛ فاحرص على التحصين بشدة. لا تخف. قوِّ إيمانك بالله، وثق بقدرته على حمايتك من كل ضرر، وليبقَ هذا سرًا بيني وبينك، اتفقنا؟

قلت: اتفقنا، ولكن لماذا تساعديني؟

ابتسمت هناء ابتسامة دافئة، وعينيها يلمع فيهما شيء من الحنين، ثم قالت بصوت خافت كأنها تبوح بسر دفين: أحببتك لنقاء قلبك... تبتسم وقلبك يقطر دماً من ألم الفراق. وأكثر ما يأسرني هو الشيب الذي يزين لحيتك...

- أتعلم؟

أنا مغرمة بكتاباتك. لقد حرّكت مشاعري وأيقظت شيئاً في أعماقي حين كتبت: (أوراق سقطت من مذكرتي) وتطرقتَ لعالمنا، وجن جنوني حين كتبتَ لتلك الآسرة:

- هل تعلمين ما الحب؟

الحب هو أني جعلتكِ بعد أمي وقبل نفسي!

- هل تعلمين ما الوجع؟

الوجع حين وجدتكِ راحلة لرجلٍ غيري.

وما زلتُ أنظر إليكِ كلوحة الموناليزا ارتسمت بالشوق والحنين، أتأملك وكأنكِ كل ما أرى، وبين كلماتي حنين إليكِ لا تعملينه، وإليكِ أميل وأتمنى.

وهدأ جنوني حين كتبت: "فكم كنتِ بلا مروءة حين احتجتكِ!" لهذا قررت أساعدك.

ابتسمتُ حينها وقلت: شكرًا لأنكِ رأيتِني بعين تختلف عن سائر العيون. ابتسمت هناء ابتسامة خفيفة، وانحنت برأسها بإجلال وهمست بنبرة دافئة يغمرها الود: على رأسي يا سيدي الكاتب... إلى اللقاء.

استدارت بخفة، وتركت خلفها عبير قهوتها وصدى كلماتها يتردد في قلبي، كأنها مرّت مثل نسمة رقيقة خُطّت لي من لُطف الأقدار.

في تلك اللحظة، همس في داخلي معنى الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾، كأنها إحسانٌ عابر خصّ قلبي المتعب، ليمنحه نفحة أمل وسط الصمت المطبق. فاطر، الآية ٤٤

كلما تذكّرتها، شعرتُ أن الزمان قد اختصر في تلك اللحظة، وكأن الدنيا تجمّدت في ابتسامتها... والهواء الذي تنفّسته يومها ارتدى طعم السلام.

كانت - وحدها - كنفحةٍ من لطفٍ نزلت على روحي في ساعةٍ ضاعت فيها الأسباب، وأملًا يتسلّل إلى أعماقي في غفلةٍ من الزمان، كما يتسلّل النور إلى كهفٍ طال ليله.

فتحت الورقات فوجدت مكتوبًا فيها:

عند الشروق اقرأ سورة الفاتحة وآية الكرسي وسورة الإخلاص وسورتي المعوذتين والبقرة.

عند الغروب كرر قوله سبحانه:

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ * فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ﴾ الأعراف:١١٧-١١٩

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ * فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ * فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ * وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ يونس:٧٩-٨٢

﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى * قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى * فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى * قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى * وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ طه:٦٥-٦٩

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ فصلت: ٣٦

في اليوم الأول ومع إشراق الشمس، جلست أقرأ تلك الورقة بعناية. كان قلبي مطمئناً ويقيني راسخاً أن الله معي ولن يخذلني. مرّت الساعات بثقل، حتى دقت الساعة التاسعة والنصف صباحاً. حضر الطبيب، فتح باب الغرفة ببطء، ثم وقف عند العتبة يتلفت بعينين مضطربتين، يتفحص أركان الغرفة وكأن شيئاً غير مألوف يُثقل الجو. أخيراً، رفع عينيه إليّ، وبتردد مشوب بالخوف سأل: ماذا فعلت؟ قلت: لا شيء.

قال: أتقرأ القرآن الكريم وتحصن نفسك؟

قلت: وما المشكلة في ذلك؟

قال: أنصحك لا تكرر ذلك وإلا ستموت.

قلت: أمري لله وحده، لم يعلّق، بل اكتفى بأن أطبق شفتيه بغضب ثم أغلق الباب بقوة، حتى ارتجّت الجدران. مرّت لحظات ثقيلة، وإذا بسماح تأتي، تحمل بين يديها علبة الدواء. فتحت الباب ببطء، لكنها لم تستطع الدخول... وكأن قوة خفيّة حالت دون عبورها العتبة. ارتسمت على وجهها ملامح الغضب والحيرة، ثم صاحت بنبرة ملأها السخط: أيها اللعين... تعبث معنا؟

قلت: ومن أنتم؟

قالت: نحن السادة وملوك الجان.

قلت: ما أنتم إلا من نار... وأطردكم بآيات من القرآن.

قالت: سأدخل قلبك وأحطمك كالزجاج.

قلت: إن الأمر كله لله.

شعرتُ بقوة تسري في عروقي، وإيمان كامل يملأ قلبي بأن الله عز وجل معي، يحرسني ويرعاني. مضت الساعات ببطء، ساعة تلو أخرى، حتى اقترب الغروب. حينها، بدأت العاصفة تعبث بالأشياء من حولي، تهز الستائر، وتطفئ الأنوار التي راحت ترتعش كما لو أنها تتهيأ لاستقبال ضيف خفي مجهول.

الأصوات بدأت تدب في الممرات همسات، خطى، ووشوشات غريبة تتسلل إلى مسامعي. ثم بدأ باب الغرفة يُطرق بقوة وعنف، طرقات متتابعة كأنها تريد اقتلاع الباب من مكانه.

شعرت بالقلق يجتاحني، وأصبحت أجوب الغرفة ذهابًا وإيابًا على غير هدى، أنفاسي تتسارع وقلبي ينبض بقوة. استجمعت قواي بصعوبة، ثم تحرّكت بخطوات متثاقلة نحو الباب. انحنيت ونظرت من أسفل الباب... فرأيت أقدامًا كثيرة تجوب الممرات، تتحرك جيئة وذهابًا كأسراب النحل المتزاحمة.

وما هي إلا لحظات، حتى سمعت خطوات متسارعة تقترب من الباب مباشرة. لكنها هذه المرة لم تطرقه... بل انحنت صاحبتها لتراني من أسفله. شهقتُ بفزع، شعرت بقشعريرة تجتاح جسدي، وعدتُ هاربًا نحو سريري، أقدامي تتعثر والخوف يتلبّسني.

ارتميت على السرير، أخرجت الورقة، وبدأت أقرأ بصوت خافت بعضًا من آيات القرآن الكريم. شيئًا فشيئًا، بدأ الهدوء يعمّ المكان... الأصوات خمدت، والعاصفة خفتت، وكأن سكينة ربانية نزلت فجأة على الغرفة. حينها فقط، أيقنت يقينًا لا شك فيه... أنهم ضعفاء، وأن قوتهم وهم أمام ذكر الله.

فجأة، قُرِعَ الباب بعنف. ثم فُتح دون استئذان بعنف مباغت. وقف في عتبة الباب رجل أو بالأحرى، كائن طويل القامة، ضخم الجثة، جسده أسود حالك كالفحم المحترق، له قرنان بارزان يلتفان إلى الخلف، وعيناه حمراوان تلمعان بنيران خبيثة. وجهه مشوّه، بشع المنظر، أسنانه حادة بارزة كأنها خناجر صغيرة، ونظراته تنفذ إلى أعماقي، تزلزل كياني.

سكن الهواء من حولي، وانتفض جسدي رهبة، انتابني وجل وجزع لم أعرف له مثيلاً. ثم انحنى الكائن برأسه نحو الأرض ببطء مريب، وبحركات دقيقة بدأ يرسم على الأرض نجمة خماسية يتوسطها رسم لعين غريبة، وكتب فوقها رقم (٢١٧).

وضع تحت النجمة عظمة كبيرة بيضاء، ثم رسم إلى جانبها ثلاثة خطوط متوازية داكنة. رفع رأسه نحوي مجددًا، عيناه تزدادان توهجًا، ثم قال بصوت أجش متحشرج كأنما يخرج من قاع بئر سحيق: "نفروبك... نفروبك..."

بعدها استدار واختفى كما ظهر، تاركًا خلفه رائحة كبريت خانقة... وسكونًا مشؤومًا يطبق على المكان.

أصابني الذعر، جف حلقي تمامًا، عقَلَ الخوف لساني، شفتاي ترتجفان وتصطكّان ببعضهما، ويدي تهتزّان بلا سيطرة.

اقتربت بخطوات مرتجفة من النافذة، نظرت خارجها... لا شيء، كل شيء ساكن، والظلام يبتلع الأفق بلا رحمة.

فجأة، ارتجّت النافذة بعنف حين ارتطمت بها حمامة سوداء، ريشها منكوش، وملامحها تنذر بالشؤم.

شعرت أن الأرض تميد بي، تلعثمت، ولم أعد أدري ما أفعل. وضعت يديَّ على رأسي، وانهمرت دموعي وحدها دون إذن مني.

أكانت ليلة قاسية، ثقيلة، كأنها عجوز في السبعين من عمرها تمضي ببطء مُنهك. أغمضت عينيّ بقوة، محاولاً الهروب من كل ما يحيطني، لكني شعرت بأطياف الليالي الهاربة تحوم حولي، وأصوات غريبة غير مفهومة تتردد في أرجاء الغرفة... لغة مجهولة تتسرب في الأجواء، تتهامس بها الأشياء بقلق وخوف.

حتى الجدران بدت وكأنها تنكمش، والضوء يرتجف كشمعة تلفظ أنفاسها الأخيرة. كل شيء ساكن، لكنّه مريب، كأن الزمن نفسه تراجع خطوة للوراء.

في اليوم الثاني عند شروق الشمس، جلست أقرأ الورقة وأتحصن بثقة ويقين. بعد قليل، طرق الباب وانفتح ببطء. وقفت امرأة حدباء، ملامحها غريبة، لكن صوتها كان صوت سماح، وقالت بنبرة حادة: لن نتركك في حالك.

قلت: من أنتِ؟

فقالت: أنا سماح.

قلت: ادخلي.

قالت: لا أستطيع الدخول... لكن اخرج، خذ أدويتك. ثم قالت: أتعبث معي؟ وقفلت الباب بقوة ورحلت!

نظرت إلى هاتفي وما زالت شبكة الاتصال في سبات! انتظرت حتى الساعة الثانية ظهرًا ولم تأت هناء، استلقيتُ على سريري من شدة التعب والإرهاق، فشعرتُ فجأة وكأن أحدًا جالس على طرف السرير نظرت ولكنى لم أجد أحدًا معي، وجوه الجان ورائحتهم الكبريتية تتراكم على وسادتي الآن!

تبًّا لهذا "الخوف" الذي نزل على حياتي كأوّل السقوط... لا صوتَ له، لكنه يهدم الجدران من الداخل. احتلّني كما يحتلّ الغزاة المدن النائمة: بسيوف الظنون، وبنارٍ لا تُرى!

في حقيقة الأمر أنا لم أنكر أن الجن خلق من خلق الله - سبحانه وتعالى - خلقهم الله لعبادته وطاعته، مثلهم مثلنا، فالعداء بين الإنسان والشيطان عداء بعيد الجذور، ولا يمكن أن ينتهي إلا بانتهاء الحياة، ويعود تاريخه إلى اليوم الذي شكَّل الله فيه سيدنا آدم عليه السلام، فقد عزم على أن يعادي آدم، وآدم لم تُنفخ فيه الروح بعد، لأن الله عندما خلق آدم، تركه ولم ينفخ فيه الروح، فأخذ يُطيف به الشيطان ويقول: لئن سُلِّطتُ على لأعصينك، ولئن سُلِّطتَ عليك لأهلكنك.

الجن يتطفل على شؤون حياتنا نحن البشر، كأنهم سحابة سوداء تخيم على أجوائنا، يستغلون خوفنا بأصواتهم وحركاتهم، يبثون الرعب في قلوبنا، ويحولون الحب والمودة إلى ضغائنٍ تغرز أشواكها في الروح. يزرعون الضيق والحزن، ويجلبون قلة البركة في المال والصحة، ويحجبون التوفيق، كأنما هم فتنةٌ لا تُرى لكنها تثقل كواهلنا.

وأنا على يقين أنه لا يصيبني إلا ما كتبه الله لي، فلو اجتمع الإنس والجن على أن يصيبوني بشيء فلا يمكن أن يصيبوني إلا بما قدَّره الله لي.

وعند الغروب المشؤوم، أصبحت الغرفة يملؤها الضيق والتعاسة، تُطفأ الأنوار وتُضرب الأبواب، ويُثار الضجيج بأصوات وكلمات غير مفهومة. أقرأ بعضًا من آيات القرآن فتهدأ نفسي، وما أن أتوقف حتى يعود الإزعاج بشكل أكبر!

شعرت أن يدًا خفية تدفعني نحو الباب، فتحت الباب فوجدت تلك العجوز ساجدة لتلك النجمة الخماسية. ثم قامت وأخرجت صورة لشخص ووضعت دبوسين على العين، وقامت برسم مربعات وكتبت فيها رقم (٢١٧)، وتحت المربع كتبت: يا نافع أهلك اللعين، وكثير من الأرقام والحروف المقلوبة حتى انتهت.

ثم قامت إلى زاوية الممر، وبدأت تحفر حتى انتهت، وقامت بدفن تلك الصورة. بعدها بدأت تصرخ صرخة تصم الآذان، مزعجة لا تبشر بخير، وتبكي بصوت عالٍ، وتضرب نفسها وتشد شعر رأسها حتى انتهت. نظرت يمينًا ويسارًا، ثم بدأت تحبو نحو النجمة الخماسية وتنظر إليّ. انتابني الخوف وأقفلت باب الغرفة.

جلست على الأريكة، والعجوز تراقبني من تحت الباب بعينين تشتعلان شرًا، وتقول: أقسم "بعزازيل" لن أتركك، وستبكي حتى الموت.

ثم تمتمت بكلمات غير مفهومة وأصدرت أصواتًا مخيفة، وبدأت تعض بأنيابها باب الغرفة. واستمرت على هذا الحال حتى اهتديتُ لقراءة تلك الورقة، فازداد صراخها حتى صاحت: اصمت، ورحلت...

عمَّ الهدوء المكان، فتحتُ باب الغرفة فلم أجد أحدًا. أحسستُ بغثيان وألم في البطن، وكأنها تتقطّع بسكين مثلوم. دخلتُ الحمام وتقيّأتُ شيئًا أصفر ذا رائحة كريهة. سمعت صوت ضحك في زاوية الحمام، رفعت رأسي، فوجدتُ رجلًا نحيل القامة متعلقًا في الزاوية.

وما إن رأيته حتى نزل بسرعة وأمسك شعر رأسي بشدة، ووجّه لكمات سريعة على أنفي. حاولتُ أن أدافع عن نفسي، ولكن ضرباتي وركلاتي تغدو فارغة. وضعني على زاوية الحمام وصعد فوق صدري وخنقني صائحًا: "سأقتلك!" بدأتُ أستعيذ بالله منه حتى اختفى، وأنا في حالة من الرعب، ينزف الدم من وجهي.

أصبحت ساقاي غير قادرتين على حملي، حبوتُ حتى خرجت من الحمام. كل عضو في جسدي يشتعل بكدمات لا تطاق. في حقيقة الأمر، هذا العراك غير متكافئ! ولكن... ما الذي أتى به؟ فهمت! لأنهم يسكنون النجاسات وهنا تكمن قوته.

تسمّرتُ في مكاني وقلت: يتشابه الأذى في محاولة استدراك ما يحدث لي، إنني أراجع تصدّع الأشياء من حولي، وألوم نفسي في كل مرة أُخذل فيها. قد مللتُ الأوجاع والخيبات وما يحدث لي، في كل مرة أحلب فيها ذاكرتي المُحقنة لألقى اللوم على تصرفاتي بكل نرجسية دون أن أجد جوابًا يشفي ألمي... حبوتُ نحو الحمام، ونظرتُ في أركانه، ولم أجد أحدًا.

أكملتُ الحبو نحو باب الغرفة لعلي أرى هناء، فتحتُ الباب ولا يوجد أحد، كل شيء ساكن... أقفلتُ الباب، وسألتُ الله أن تكون بخير.

عندما يسكن المستحيل عقلك، اجعل أمنياتك سماوية ليأتي بها الله، فوحده تعالى الذي لا يهمل ما تطلبه. وقل لذاتك: لا شيء مستحيل، فاليقين بالله يصنع المعجزات.

حينها سجدتُ لله باكيًا شاكيًا حالي، وقلت: اللهم رب السماوات السبع والأرض، ورب العرش العظيم، ربنا ورب كل شيء، فالق الحب والنوى، مُنزِّل التوراة والإنجيل والقرآن، أعوذ بك من شر نفسي، ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها.

أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء. أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق.

اللهم أعنّي عليهم، وأخرجني من هنا بقدرتك وقوتك. هدأت نفسي ونمت، دون أن أشعر، وكأن النوم هو نهاية كل شيء مزعج!

في قرية صغيرة غاية في الروعة، بدت وكأنها لوحة رسمتها يد الطبيعة بعناية. تحيطها من كل الجهات أشجار التوت الوارفة، ويسكنها هدوء عميق لا يعكره سوى أصوات العربات القليلة التي تمر على الطريق الترابي، تجرها الأحصنة بخطى متثاقلة.

في هذه القرية عاش رجل حياة هانئة، لكنها لم تدم طويلًا؛ فقد اختفى ذات يوم دون أثر، تاركًا خلفه منزله الذي كانت تداعبه أشعة الشمس كل صباح بإشراقتها الوديعة، وتظلّله طوال النهار، ثم تودّعه بلطف عند الغروب. وغادره أيضًا أصدقاؤه العصافير، التي اعتادت أن تبيت كل ليلة على أغصان التوت، وتملأ صباحاته بزقزقاتها العذبة.

وعند الساعة السادسة صباحًا سمعت صراخ رجل، قمت من النوم مفزوعًا تاركًا الحلم الجميل، فتحت الباب فوجدت رجلًا ذا ثياب بالية، وجزءًا منها ممزق، بدون حذاء، متوسط القامة، عيناه واسعتان، شعره أسود طويل، وبه الكثير من الغبار، نحيف الجسم، وجهه شاحب، يبحث عن طعام بين سلة المهملات، نظرته مكسورة خلفها حزن دفين، يعبر عن مشقته في الحياة، أطلت النظر، معالم تفاصيله كأنه إنسي وليس بجان! ألقيت السلام عليه، نظر نظرة خوف، وقال: أنا أبحث عن الطعام أرجوك لا تؤذيني.

فقلت: لا تخف أنا هنا منذ أسبوعين وأكثر.

فقال: أنت إنسي؟

قلت: نعم، وأنت ما اسمك؟

فقال: أنا حسن، أنا هنا منذ سنتين، ولا أحد يزورني! ولا أعلم أين أنا؟ فقط أعلم أني في غرفة (٣٨٣) بالطابق الثالث، ونزلت هنا من شدة الجوع.

قلت: لماذا لم تخرج من هنا؟

فقال: لا أستطيع، ثم نظر يمينًا ويسارًا، وقال بصوت خافض: الحراس هنا في كل مكان.

قلت: لماذا أنت هنا؟

قال: قرأتُ كتاب "شمس المعارف" في ليلةٍ مقمرة... فاستيقظتُ هنا! ثم رفع عينيه نحو السقف وارتبك، كأن فوقه سرّ لا يُقال. رحل دون أن يلتفت إليّ. نظرتُ إلى السقف... لم يكن هناك أحد. مشى بخطى ثابتة حتى الدرج، توقف، أدار وجهه إلى الفراغ، كمن يُحادث طيفًا. ثم التفت إليّ وقال: تعال... عندي طعام وشراب. ولا تجلس وحدك، فإنّ الوحدة تُنبت ظلالًا لا تنام.

أقفلت باب الغرفة، وجلست على الأرض، أفكر في أمر هذا الرجل: أَمِنَ الإنس هو أم من الجان؟ وهل كلامه صحيح؟ أم مجرد أوهام؟

وفي يقيني أن ما رأيته لم يكن وهمًا ولا خيالًا، فلستُ ذا خيالٍ جامح. حاولت ترتيب أفكاري قدر المستطاع، ولكن لم أعرف من أين أبدأ؟ تزاحمت أفكاري مع خوفي!

قمت بقراءة سورة البقرة، وما هي إلا دقائق حتى شعرت باختناق، ورُكلت في ظهري. حاولت مواصلة القراءة ولم أستطع، كان الخوف كثيرًا يتمدد نحو أفكاري كصواعق برق تضرب عقلي وقلبي.

لا بد أن أكمل ما بدأت به، وأن أثق بقدراتي، وإن وجدت من يعرقل عزيمتي ويمنع خروجي. ولا أنكر أن الحياة محطات مصيرية قد تُرضينا أو لا ترضينا، إنما العبرة من الرضا تكمن في الخروج من هنا. افتقدت هناء، صاحبة الابتسامة الجميلة، والسؤال:

- لماذا لم تأتِ حتى الآن؟

- هل أصابها شيء؟

- هل هي بخير؟

ابتسمتُ ببؤس وقلت: في غيابها، تتكلم الجدران بالحنين، ويخفق القلب بالشوق، وتبقى ابتسامتها حيّة في الذاكرة...

عجبًا أن نحب من لا يشبهنا، ولا يُمكن أن يكون لنا. أما الأقدار، فتلك حكاية أخرى؛ يُقلّب الله الليل والنهار، ويتركنا نشتاق حتى التبعثر.

وفي مساء اليوم الثالث من القراءة، اتجهت نحو الباب فوجدت الباب مربوطًا بحبلٍ ومعقودٍ عليه سبع عقد. حاولت فتح الباب ولم أستطع، بدأت أجوب المكان، وخطواتي هنا وهناك، حتى اهتديت لقراءة الورقة سبع مرات. توضأت وحصنت نفسي، وبدأت أقرأ حتى انتهيت من المرة الأولى، تحرك الباب، وسمعت صوت الحبل يتحرك وكأنه فُتحت عقدة واحدة. أكملت القراءة، وعند كل مرة تُفتح عقدة، حتى وصلت إلى المرة السابعة، ضُرب الباب بقوة، وسمعت من خلف الباب رجلين يتكلمان، والباب يهتز وكأنهما يعيدان ربط العقد من جديد.

تابعتُ القراءة حتى فُتحت النافذة بقوة، وبدأ باب الحمام يُضرب، وسمعتُ صوت العجوز تصرخ صراخًا يشق السكون، وتقول: "يا معين، يا معين، يا معين". ابتلعتُ خوفي وأكملتُ ما أنا عليه من قراءة، حتى صدر صوت من تحت الباب، وقال: اصمت ولا تحرقنا.

أكملتُ القراءة لساعات، حتى عمَّ الهدوء وسكنت الفوضى، ترددتُ كثيرًا حتى استجمعتُ قواي، وفتحتُ النافذة فإذا بالشمس تأتي على خجل، وقلتُ في نفسي: قوتهم في الليل. فتحتُ باب الغرفة، لا وجود لأي أحد، خرجتُ وأنا أقرأ تلك الورقة متجهًا نحو بوابة سبعة كما قالت لي هناء، وأنا أبحث عن تلك البوابة صرختُ لا شعوريًا، فقد لمحتُ ظل شخص يقف بركن الممر، هربتُ وأكملتُ البحث، حتى سمعتُ خطوات سريعة نحوي.

نظرتُ فوجدتُ شبحًا عملاقًا، مشوّه الوجه كأنما صيغ من كوابيس الطفولة، بشع المنظر، يحمل مطرقة هائلة تئنّ كلما جرّها على الأرض، كأن الحديد نفسه يتألم. لم أجرؤ على التوقف، واصلتُ مسرعًا نحو نهاية الممر، والقلب يدق كطبول النجاة، حتى اختفى ذلك الشبح كما يظهر الكابوس عند اليقظة... بلا أثر، بلا وداع.

نظرتُ يميني فوجدتُ بوابة سبعة، كانت كبيرة ومتهالكة، وكأن الباب يتكئ على نصف الباب الآخر، عليه كثير من المسامير والحلقات، ويد حديدية تستخدم لطرق الباب، ولا أظن ذلك، وكأن الباب صخرة ثقيلة تسد فتحة كهف في غابة، وكأنه فصل بين عالمين هما: الداخل والخارج، الباطن والظاهر، السر والجهل. خرجتُ من هذا الباب المكتوب على طرفيه: "مولود مولود"!

نظرت وكأن الحياة بدأت وكأن الحياة قد وُلدت من جديد، وكأن نور الصباح قد انبثق باسماً، فيما تراجعت جيوش الظلام، والشمس أشرقت بثوب من النقاء. تنفست بعمق، وحمدت الله على نجاتي.

وقع بصري على أرجاء المشفى، فإذا به يغرق في رمادية قاتمة، نوافذه متهالكة، وخيوط العنكبوت تتدلى من زواياه، جدرانه مشققة وأعمدته آيلة للسقوط، أما الأرض فمزقتها التشققات، والغبار عانق أسواره، وكأن هذا المبنى شُيّد في عزلة موحشة.

مولود
مولود

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ النحل: ١١٢

بدأتُ أسير نحو الطريق الرئيسي، فلا مبانٍ تلوح في الأفق، ولا معالم تدل على وجود بشر. كنتُ مرهقًا حد الإنهاك، والرعب يمتزج بجوعي الذي يكاد يمزق أحشائي. رياح باردة تعصف من خلفي، تصفر وتئن في أذني، أمضي الساعات كأنها سنوات عجاف، ثقيلة لا تنقضي.

وأثناء سيري، شعرت بخطوات مسرعة خلفي، وأصوات أنفاس لاهثة تلاحقني. تجاهلت الأمر، ومضيت دون أن ألتفت. نظرت إلى هاتفي، فما زالت شبكة الاتصال غائبة عن الوعي، وكأنها صُمّت سنين عددًا، لا رسالة تصل ولا صوت يعبر. كان الشارع خاليًا إلا من ظلالٍ تتطاول على الرصيف، وريح باردة تلفح وجهي كأنها تذكرني بأنني وحدي في هذه اللحظة. الغربة أثقلت كتفي، والخوف بدأ ينفث أنفاسه حولي رويدًا، كأنه جاءني على حين غرّة، فسدّ عليّ كل مخرج.

التفتُّ خلسة يمينًا ويسارًا، ولا شيء جديد، وكأن هذا الطريق لا يؤدي إلى نهاية. واصلت السير، فلا خيار لي سواه. وكأن عيني لمحت بيوتًا وأشجارًا في الأفق؛ لعل فيها نجاتي. تابعت السير وقد اختلط في رأسي الفرح بالحزن، والتعب بالقلق.

تساءلت في نفسي:

- هل نجوتَ أخيرًا؟

- أم أن هذه البيوت مهجورة؟

دخلتُ القرية، فوجدتها عامرة ببيوت صغيرة من الطين، شُيِّدت بدفء أيدي أهلها، فصارت - رغم بساطتها - من أجمل البيوت. بيوت يحيطها الكرم والعطاء، تتناثر بينها مساحات خضراء تفصلها، لكنها لا تفرق بين القلوب. هنا يعرف الجميع بعضهم بعضًا، متآلفون في أفراحهم وأحزانهم، يتزاورون بنظرة ويتعاونون بقلب واحد..

حتى وصلت إلى شيخ القرية "أبو صالح"، فوجدته رجلًا كبيرًا في السن، ذا لحية بيضاء كثيفة، ووجه بشوش، وكلامه يبعث الطمأنينة. سلمت عليه، فرد السلام بابتسامة، ثم قال بلطف: ما الذي جاء بك يا بني؟ وما هذا الحزن الذي أراه في عينيك؟ فقصصت عليه حكايتي، والغريب أنه كان ينظر إليّ بدهشة، كأنه يصدقني ولا يصدقني في آن واحد، حتى أنهيت حديثي.

فقال مطمئنًا: أنت بخير الآن يا بني، ما حدث لك ليس إلا عبثًا من الجان، يشبه السحر، وهو من الكبائر ومن المهلكات السبع. لقد ابتلاك الله بهذا ليكفّر عنك ذنبًا ويطهّرك. واعلم أن لو اجتمع الإنس والجن على أن يصيبوك بشيء، فلن يصيبوك إلا بما قدّره الله لك. فاطمئن، فرحمة الله وسعت كل شيء.

ثم قال مبتسمًا: ولا أظنك كاذبًا، وإن بدا الأمر غريبًا بعض الشيء. انسَ ما حدث الآن، وتفضل كل من هذا الطعام. فسميتُ بالله وأكلت حتى شبعت.

ثم قال: اذهب مع صالح إلى غرفتك واسترح.

قلت: إن شاء الله. دخلت الغرفة الطينية البسيطة، وفيها حمام متواضع. اغتسلت، ثم تمددت على السرير المصنوع من القش، وأطلقت زفرة عميقة. كان التعب قد أثقل جسدي، فاستسلمت للنوم كأنها نومة أهل الكهف.

لم أفق إلا على صوت صياح الديك عند الفجر. صليت مع أهل القرية جماعة، وبعد الصلاة، بدأ الناس يقتربون مني يسلمون، وفي أعينهم مزيج من التعجب والاستغراب.

اشار إليَّ أبو صالح بيده فدنوت منه وجلست إلى جواره، فقام مرحبًا بي أمام من كانوا حوله من المقربين. ثم التفت إلينا مبتسمًا وقال: هلموا بنا لنتناول الإفطار. وأثناء تناولنا الطعام، التفت إليَّ وسأل بلطف: كيف أصبحت اليوم يا بني؟

فقلت: الحمد لله بخير وأفضل بكثير.

قال مبتسمًا: الحمد لله. ثم مال نحوي وقال بلطف: أأقول لك شيئًا؟ لا تغضب مني.

فقلت: أكيد.

فقال: قصتك غريبة لم أصدق بعضها.

فابتسمتُ وقلت: معك حق، لو لم أعشها بنفسي لما صدقتها أنا أيضًا. ليت حسن معي للتأكد من كلامي.

فقال: ومن حسن؟

فقلت: حسن رجل من الإنس كان في نفس المشفى في الطابق الثالث، وبسبب قراءة كتاب عن الجان اختفى، ومنذ سنتين وهو يقطن المشفى كما رأيت.

فقال: وكيف شكل حسن؟

فقلت: قمحي اللون، متوسط القامة، عيناه واسعتان، شعره أسود طويل، وبه الكثير من الغبار، نحيف الجسم ووجهه شاحب.

فقال: اسمه حسن؟ وله سنتان؟ سكت وحرك رأسه.

فقلت: تعرفه؟

فقال: نعم، كان أحد سكان القرية، ولكنه قد مات منذ سنتين!

فقلت: لعله تشابه أسماء وأحداث.

فقال: اسمع يا بني، الحياة مليئة بالعثرات، ولا يوجد طريق معبّد يقود مباشرة إلى النجاح. لذا، لا تتوقف عند كل عقبة تعترض طريقك، بل تعلم كيف تقوى، وكيف تجمع تلك العثرات لتبني بها سلّمًا تصعد به نحو أهدافك.

كن أقوى في مواجهة واقعك وصعوبات الحياة، فعندها يتحقق الرضا، وتصل إلى السعادة والاطمئنان. قل لنفسك دائمًا: أنا أستطيع، أنا قادر على تجاوز الصعاب وتخطّي كل ما يؤلمني. سأكون بخير، لأن الله معي، يحبني، يحتويني، ويكتب لي الخير.

لا تنسَ أن في كل قدر حكمة ورحمة ولطف خفي يمضي به الله حياتنا. حان الوقت يا بني أن تنهض، وتتحرر من الأوجاع التي أنهكتك وسيطرت عليك. لا تهدر وقتك في الإحباط والاستسلام، بل خذ مما مررت به درسًا يقوّيك.

فقلت: إن شاء الله. ثم نظرت إليه وقلت بهدوء: ولكن، هل تظن أو تشك في أنني أكذب عليك فيما رويت لك من قصتي وما مررت به؟

فقال: لا، بل أصدقك يا بني. لكن نصيحتي لك، لا تروي قصتك لأحد من أهل القرية.

فقلت: بالتأكيد، سيبقى هذا الأمر سرًّا بيني وبينك. أنا من سكان مكة المكرمة، وكل ما أريده الآن هو أن أعود إلى بيتي.

فقال مبتسمًا: لا تقلق يا بني، لك حق الضيافة عندنا ثلاثة أيام، نعتني بك خلالها، نداوي جراحك، ونكرمك كما يليق بك، وبعدها تعود إلى منزلك سالمًا بإذن الله.

فقلت: جزك الله خيرًا، إن شاء الله.

وبالفعل، بعد صلاة العشاء، بينما بدأ أهل القرية يتقاطرون كعادتهم نحو مجلس أبو صالح، مجلسٌ عامر بالحكمة والإنصاف، حيث يجتمعون كل ليلة ليطرح كل صاحب مظلمة قضيته، فيحكم

بينهم الشيخ بحكمة وعقل راجح، فيرضى الجميع بحكمه ويعم الصفاء قريتهم الصغيرة.

كان مجلسهم أشبه بواحة عدل في صحراء الحياة. تقدم زيد وقال: أبو صالح، إن جابرًا لا يعرف لي حقًا!

قال أبو صالح: وماذا فعل؟

فقال: طلبتُ منه أن يساعدنا في رفع أكياس الأرز، لكنه تجاهلني ودخل بيته. وبعد أيام، طلبتُ منه أن يقرضني خمسمائة ريال، فرفض، مع أنه كان قادرًا على ذلك.

قال أبو صالح: هل لديك شيء آخر تود قوله؟

قال: ليس لدي شيء آخر أقوله، ولا أريد أن أتهمه بما لم يفعل.

قال أبو صالح: بارك الله فيك، فإن اتهام الناس بما لم يفعلوه يُوجِب سخط الله تعالى. ثم التفت إلى جابر وقال: أصحيح ما قاله جارك؟

فقال جابر: نعم، ولكنني لم أعتدِ عليه، ولم أدخل بيته دون إذنه، ولم أقترض منه مالًا ثم أُماطل في سداده. فكيف يقول إنني لا أعرف حقه؟

قال أبو صالح: كل ما ذكرته طيب وحسن، لكنه لا يكفي. فمجرد عدم الاعتداء على الجيران لا يُعد إحسانًا إليهم؛ فقد يكونون محتاجين إلى معونة أو مال، فإذا امتنعتَ عن مساعدتهم أو

إقراضهم، كنتَ بذلك قد أعنت عليهم المصائب وزدتَ من معاناتهم. فهل ترضى بهذا؟

فقال جابر: بالطبع، لا أرضى بذلك!

قال أبو صالح: إن لجيرانك عليك حقوقًا كثيرة قد بيّنتها الشريعة. وكان رسولنا الكريم ﷺ يوصينا بالجار دائمًا، فكيف لك ألا تفي بحقوق جيرانك؟

ثم قال: يا زيد، ويا جابر، ألم تعلما أن الأعمال لا تُرفع وتبقى معلقة حتى تصطلحا؟ فالخصومة بينكما تمنع قبول الأعمال. تصالحا قبل أن ترحلا.

ابتسمتُ حينها لحكمة أبي صالح وعدله، وقلت في نفسي: الحمد لله، ما ضاق أمر ثم هان. الحمد لله مبدّل العسر باليسر. الحمد لله، الأمر لله ثم لأبي صالح.

وبعد ساعة، خرج الناس من عند أبي صالح، فجاءت امرأة حدباء الظهر، تشبه العجوز لكنها لم تكن كذلك تمامًا. فقال أبو صالح: ادخلي، عافاكِ الله.

دخلت المرأة وقالت: أنا عابرة سبيل، وأريد بعض الماء والطعام. فقال أبو صالح أبشري وطلب من ابنه صالح إحضار بعض الطعام لها، نظرت إلى تلك العجوز ومازالت تنظر في الأرض وتتمتم حتى أتى صالح بالطعام، وبدأت تأكل وبدأت أقرأ آيات من القرآن الكريم، حتى نظرت تلك العجوز بنظرة حادة!

رجعتُ إلى غرفتي وأنا بين الشك واليقين بأنها العجوز الساحرة! وضعتُ رأسي على الوسادة ونمت، وما هي إلا دقائق حتى أحسست بوجود أحد في الغرفة، يسحب قدمي بقوة. فتحتُ عيني فلم أجد أحدًا! استعذتُ بالله، وحصّنتُ نفسي، ثم أكملت نومي.

في صباح اليوم التالي، استيقظتُ على صراخ امرأة في منزل أبي صالح. خرجتُ ووقفتُ عند الباب، فرأيتُ أبا صالح يقرأ القرآن الكريم. ثم أحضر إناءً، وملأه بماء زمزم، وأضاف إليه ملعقة من العسل، وملعقة من زيت الزيتون، وسبع حبات من الحبة السوداء.

بعد ذلك قرأ عليه الفاتحة سبع مرات، وسورة البقرة، وسور الإخلاص، والفلق، والناس ثلاث مرات. عندها صرخت المرأة بصوت عالٍ، والتفتت حول نفسها كالثعبان، ثم نطقت قائلة: "اتركني!"

فقال: من أنتِ؟ وماذا تريدين؟

فقالت: "أنا سلعوة"، سأُصيبكم بالضيق والحزن. لن أخرج منها حتى يغادر هذا اللعين القرية! وأشارت بيدها نحوي. نظر أبو صالح إليَّ، وأكمل رقيته حتى عادت المرأة إلى حالتها الطبيعية، وكأن الجنيّة قد خرجت منها. لكنها لم تغادر القرية، بل بدا وكأنها قد سكنتها! بدأ أهل القرية يشتكون من وجود من يعبث في بيوتهم، ويحرّك الأشياء من أماكنها. وأصبحت أجواء القرية ثقيلة وكئيبة!

وفي اليوم الثالث، دخلتُ على أبي صالح وقلت له: ما أصابكم من مسّ وعبث ومصائب هو بسبب تلك العجوز التي رويتُ لك قصتي معها. وكأنها هي نفسها التي جاءت بالأمس وطلبت الطعام.

فقال: كل هذه الأمور بقضاء الله وقدره، فلا عليك، ولا تهتم. فهذا الجن يسكن معنا وبيننا، ولا تنسَ أن الشيطان إذا سمع القرآن والأذكار والتحصينات هرب واختبأ، ثم يعود مرة أخرى. فالشيطان ينفر ويبتعد عن العبد عند قراءته للقرآن الكريم؛ لذلك اجعل لسانك رطبًا بذكر الله.

فقلتُ: أعلم ذلك يا أبا صالح، ولكنني أُفضّل أن أرجع إلى منزلي.

ابتسم حينها وقال: كما تريد، والله خير الحافظين. غدًا بعد صلاة الفجر، سيأخذك أبو عامر مع ابني صالح إلى محطة الحافلات، وستصل إلى أهلك سالمًا بإذن الله.

فقمتُ وقبّلتُ رأسه وقلت: عاجز عن شكرك، وأسأل الله أن يجعل دعائي من نصيبك.

عدتُ إلى منزلي وكان وصولي كالحلم.

وبعد صلاة الفجر، توجهنا إلى محطة النقل، وودّعتُ كلًّا من أبي عامر وصالح. تولّى صالح محاسبة السائق، ثم ركبتُ الحافلة المتجهة إلى مكة المكرمة.

سرعان ما امتلأت المقاعد عن آخرها. كنت أعلم أن لرحلات الحافلات طقوسًا خاصة؛ فهي لا تعرف موعدًا ثابتًا للانطلاق، ولا توقيتًا دقيقًا للوصول. اعتادت أن تبتلع أعدادًا كبيرة من الركاب، يتكدّسون كعلب السردين، مثقلين بالتعب والزحام والانتظار.

لكنني تجاوزت كل ذلك، وسلّمت نفسي راضيًا لسلطان العودة، راجيًا منه أن يكون رفيقًا بي، لا قاسيًا عليّ.

أما الطريق، فكان وعرًا تتمايل معه الحافلة كلما ضغط السائق على دواسة الوقود. مضت الساعات، واحدة تلو الأخرى، حتى أوشكت الرحلة على نهايتها، واقترب موعد نزولي. وبينما كنت أتهيأ للنزول، سمعت صراخ رجلٍ من خلفي. التفتُّ، فإذا برجل قوي البنية يتحسّس جيوب ثوبه الممزق، ويُفرغ شكواه للسائق.

أدركت حينها أن أمرًا ما قد وقع، وسرعان ما تبيّن أن هاتفه المحمول قد سُرق أثناء الرحلة. أوقف السائق الحافلة على جانب الطريق، وبدأ بتفتيش الركاب والبحث بينهم عن الهاتف المفقود.

وأخيرًا، وصلت الرحلة إلى غايتها، وأُعلن الوصول إلى مكة المكرمة. نزلت من الحافلة، وسجدت على الأرض شاكرًا لله، حامدًا على السلامة.

عدتُ إلى منزلي، وكان وصولي أشبه بالحلم. كنت في أمسّ الحاجة إلى الهدوء والاستقرار. دخلتُ الحمام، وعندما نظرتُ إلى المرآة، رأيتُ عينيَّ وقد أحاطتهما هالات سوداء من فرط الإرهاق، ووجهي بدا ذابلًا، كأنما أنهكته كثرة التفكير، فغلب عليه الكآبة وسوء الحال. كانت الحيرة لا تفارقني، تتقاذفني بين الأفكار، وتُضرم في داخلي قلقًا لا يهدأ.

وبينما كنت أُصارع أفكاري، غلبني النعاس دون أن أدري كم من الوقت مضى. وحين استيقظتُ، تسللت إلى ذهني صورة هناء، صاحبة الابتسامة الجميلة التي أزاحت عن طريقي وحل اليأس. لولاها، لكنتُ ما زلت أتلوّى وجعًا.

تلك الجنيّة، المخالفة لي خِلقةً وفطرةً، رأتني بعينٍ لم يرَني بها أحد. كنت أرجو من الله رسالة تُجبر كسري، وتطفئ نار التعلّق بها، لكن رحيلها لم يكن فُقدانًا فقط... بل هزيمة صامتة لقلبٍ لم يعرف كيف يُقاتل.

لم أُخفِ عاطفتي خلف أسوار الخوف، ولم تعنِ لي نظرات الناس شيئًا، فأنا أعبّر عمّا أشعر به بقلمٍ شجاع لا يعرف التردد، وما أنا إلا بشرٌ أُوحي إليّ أنما أنا نذير مبين لمشاعري..

تناولتُ هاتفي المحمول الثاني، الذي كنت قد أهملته منذ فترة، واتصلتُ بصديقي عبد الله، وطلبتُ لقاءه في المقهى المعتاد.

وبعد ساعتين حضر، وجلس أمامي قائلًا: اتصلتُ بك مرارًا، لكن هاتفك كان مغلقًا، وكلما حاولت زيارتك تأجل اللقاء. بدأتُ أُساورني الشكوك... هل أنت بخير؟

قلت له: لا أعلم حقًا كيف أصف حالي... لكني أريد أن أحكي لك قصتي كاملة. أرجوك، لا تقاطعني حتى أنتهي. وبعد أن أُتم حديثي، لك مطلق الحرية؛ إن شئت صدّقتني، وإن شئت غادرت دون أن ألومك.

فقال: اهدأ يا صديقي، أنا هنا لأسمعك، خذ وقتك، تحدث كما تشاء.

فقلت: وكأن أبواب الجحيم السبعة قد فُتحت في وجهي، كل ذلك بسبب قطة من الجان سكنت منزلي، فوقع ما وقع. احترق طفلاها عند سماع القرآن، فجرى أذاها في عروقي كما يجري الدم في جسد الإنسان. لم أفق إلا وأنا في مشفى نجران، حيث أنقذتني هناء، تلك ذات الجمال الفاتن.

خرجتُ من المشفى مثقلاً بذلٍّ ومسكنة، ثم مكثتُ في قرية طيبة كريمة. لكن لم تسلم هي الأخرى من أذى تلك الجنية، فقد عاثت فيها فسادًا، وألبستهم ثوب الأحزان... حتى غادرتُ القرية، فخرجت معي.

فقال عبد الله بنبرة صادقة: أنا أصدق كل ما تقوله، وقد شعرت بشيء من ذلك حين زرتك. لكن لا تنسَ يا صديقي... عندما تتجاوز المصائب وتخرج منها، عش حياتك كناجٍ منتصر، لا كضحية مثقلة بالألم.

فقلتُ: كل ما أريده الآن هو أن أطمئن على هناء.

فقال: لا عليك، ستصل إليك في يوم ما، وأنها بخير، تأكد من ذلك. المهم الآن أن تبدأ معركة قدوم تلك العجوز في حياتك من جديد، إما أن تقتلها أو تقتلك، وسلاحك هو تلك الورقة والتحصين والماء المقروء. ولا تنسَ أن الجان فوضويون وهمجيون بشكل لا يُطاق، ولن تجد منهم إلا كل حاقّ، لذا احترس منهم المساق.

فقلت: لا عليك، ما هم إلا جان، أطردهم بآيات من القرآن الكريم، وقد عشتُ معهم أيامًا من العذاب، ورأيتُ منهم ما لا يُطاق ولا يُباح!

فقال: هل حببت هناء؟

فقلت: أحببتُ ابتسامتها واهتمامها ومساعدتي، وأحتاج أن تكون بخير كما فعلتْ بي. فهي من أصحاب الفضل عليَّ بعد الله.

فقال: وكيف شكلُها؟

فقلت: وجهها جميل كالأمنيات المؤجلة، رقيقة كأوراق الورد، مشرقة كضحيٍ لا يعرف الغيم. صوتها نغم نازل من السماء، ومزاجها طب مضمَّد، لا يكسبها إلا قلبٌ أنهكته الجراح. أما ابتسامتها... فلا أدري، كأنها تسرق من القلب وجعه دون أن تطلب الإذن.

ينتهي اللقاء ...

وتأتي "ذكرياتُكِ" حاملةً على كتفي الحنين. حصنتُ نفسي من ذكرياتِكِ أيتها الآسرة، حتى لا يتمطّى ظهرُ الحنين، ويطقطق الوجعُ أصابعه، وأنثاءبَ وجعًا. كسرتُ هذا السكون بالاستغفار، حتى لا يتمادى الشوقُ بالحضور.

مترددٌ وفي حيرةٍ من أمري، معطَّلُ الحواس، حبيسُ التردد في زنزانةِ الاختيار بين تلك الآسرة وهناء! لم أنكر حقيقةَ أن موتَ المشاعرِ رحمةٌ، إن ماتت حقًّا. لكنها ما ماتت، بل زادها التردد مرضًا وثِقلاً على قلبي كحملٍ ثقيل. ضاقت بي الأرض بما رحبت، وضاقت نفسي بي، فلم أجد في داخلي متّسعًا للهرب من هذا الاختبار.

ليت مشاعري ماتت، ليتني لم أكبر يومًا لأعرفَ الفراقَ فأتوّجع، ليتني لم أتعدَّ المكانَ والزمانَ وأصبحَ محتارًا بينكما! فكم كنتِ بلا مروءةٍ حين احتجتكِ! وكم كنتِ بمروءةٍ حين احتجتكِ! وكأنما تبدّلت القلوب وما جعل الله لرجلٍ من قلبين في جوفه.

هناك أشياء تبقى حبيسة في القلب،

كأسرى محاصرين في زنزانة من الصمت، لا يشملها قانون الفضفضة.

أيتها الآسرة ...

لا تلوميني على كتاباتي لكِ. صدقيني، ما كتاباتي لكِ إلا محاولةٌ يائسةٌ للنجاة منكِ. على الرغم من أني أقسمتُ ألا أكتبَ لكِ، وعلى الرغم من أن الليلَ والنهارَ يتداخلان ويتعاقبان، إلا أنني لا أعيشُهما في الوقت ذاته. ولا أعلم كيف أعيشكِ وأعيشُ هناء، كل شيءٍ مربكٌ، وتتذبذب مشاعري المتضاربة نحوكما!

دعيني أقول لكِ، أيتها الآسرة: عند رحيلكِ عانيتُ وبكيتُ، وتمنيتُ رجوعكِ بشدة. كتبتُ لكِ، وقلبي يحبو إليكِ، يحيد عن طريقه، ويعود ويتخبط هنا وهناك، لا يصيب ولا يخيب، وأنتِ لا تهتمين! وكان حضورُ هناء كحضورِ المرسلين؛ يحمل السكينة في كفٍ، والمغفرة في الأخرى.

أيتها الآسرة هل تتذكرينني؟

هذا السؤال كسؤال موسى عن عصاه. كتبتُ لكِ، ولكن لم تكن كتاباتي كافيةً للوصول إليكِ. لهذا، قلبي وعقلي وورقاتي ممتلئون بكِ، وحياتي خاليةٌ منكِ تمامًا.

أنا بحاجةٍ الآن إلى أن أتيه بعيدًا، إلى مكانٍ لا يعرفني أحدٌ فيه، ولا أعرفه. أحاول أن أفسر مشاعري، وأن أرتب أفكاري. أريد أن أتحرر من هذه الذاكرة المثقلة بينكِ وبين هناء. في رأسي آلافُ الكلمات، لم أستطع أن أكتبها، وعجزتُ عن نسيانها حتى تعفنت. لهذا أشعر بالصداع، ولهذا أدمنُ القهوة.

كنتُ أشعر بأنَّ الفنانَ عبدالمجيد عبدالله...

يعاتبني على أوجاعٍ تركتُها لكِ، وأنتِ غارقةٌ في خيبتكِ، وأنا ما زلتُ أكفِّر عن معصيتي. باتت الأيام تتشابه، ولم أعد أُميِّز من أيامي شيئًا. فأنام كلَّ ليلةٍ على يأس، وأستيقظ كلَّ صباحٍ على أملٍ ورجاء. لم أتوقع منكِ، أيتها الآسرة، هذه القسوة. أنتِ التي خُلِقتِ من مغفرة، كيف تنتقمين مني بكل هذا، ولا تغفري؟

كل منا حكايته مع الحلم ...

سألتُكِ ذات يوم: ما حلمُكِ؟ فقلتِ: اسألْ كاتبَ "كتاب سقف الكفاية"، محمد علوان، هل تزوَّج من مها؟ أيقنتُ حينها أنكِ تحبين القراءة، ولهذا أكتبُ لكِ. أتذكر كلَّ التفاصيل الصغيرة والكبيرة التي جمعتنا. أتذكر حين أهديتِني في بداية علاقتنا أغنيةً للفنان حمود ناصر "غالي حبك"، وأهديتِني الهاتفَ المحمول نوكيا الدمعة ذا اللون الفضي، وطلبتِ أن أستخدمه بطريقة صحيحة. وأهديتِني" قلم مون بلان"، وما زلتُ محتفظًا به حتى الآن.

اليوم، أجلس في ذلك المقهى متألمًا، وبيدي مذكرتي. وأكوابُ القهوة ملَّت مني، ومللتُ منها. أنا الرجلُ الذي بات لا يملك شيئًا بعدكِ، والذي كان يملك كلَّ شيءٍ بوجودكِ معه. أفتح هاتفي، وأبحث عن رسالةٍ تحمل اسمكِ من بين عشرات الرسائل، ليُحبطني غيابكِ من جديد. كان صدودُكِ يزداد ثباتًا، وكانت محاولاتي تزداد خضوعًا وتضرعًا. أسكت ألمي دون دواء!

أفتح هاتفي كلَّ يومٍ، وأنظر إلى صورتكِ... كم أنتِ جميلةٌ جدًّا!! وأنا على يقينٍ أنني قد أُصبتُ "بلعنةِ الجمال"، تلك اللعنة التي ظلَّت ترافقني وتُصيبني بمرضِ العشق، وتُصيبكِ بمرضِ "الغرور والكبرياء"... منذ فُراقكِ، وأنا أتعثر بكِ في كل شيء؛ في الأغاني، في الطرقات، في الوجوه التي لا تشبهكِ. حتى نومي صار هشًّا... كأن قلبي ينام بعينٍ واحدة، ينتظر اسمكِ في حلمٍ لا يأتي!

وعندما أراكِ، سأُخبركِ أن فيكِ من السحرِ ما يجعل الأخبارَ السيئةَ محبَّبة. سأحدثكِ عن عينيكِ، وكيف تحملانِ حربًا وسلامًا، وعن شفتيكِ؛ فيهما العذابُ والمغفرة! وعن عطركِ؛ فيه الهزيمةُ والنصرُ، وكم أغار منه! كأنكِ خُلقتِ وجُمِع فيكِ ما لا يجتمع، فتفيضين تناقضًا يأسرني ولا أملك منه فكاكًا.

أخيرًا، أيتها الآسرة...

لا تبخلي عليّ برسالة فأنا على يقينٍ أنها لن تكون كما تظنين، ليست حروفًا تمضي في الهواء، بل تذكرةٌ ثمينة، أعبر بها نحو المدنِ والشواطئِ التي أحبّها قلبي، وأخرج بها من ظلمات القلب إلى نور العافية، أترك خلفي مدنًا من الأحزان، وألوّح لحبٍّ "هناء" بآخر وداع.

لم أكتب منذ مدةٍ طويلة. تركتُ الكتابة، أو هي من تركتني. لن أقول إنني هجرتُها أو أنها هجرتني. تستنزفُ الكتابة أشياءَ كثيرة، ولا أظنُّ أنني قادرٌ على أن أمنحها ما تستحقُّ من تركيزٍ، وجهدٍ عاطفيٍّ، ونفسيٍّ، ومعنويٍّ، وجسديٍّ. فتحت مذكرتي لتسقط عيني على ما كتبته: تجاهل ...

" كل شيء يزعجك، وتأكد أن الأيام لا تعوض، والخيبات ستنال منك، اقفل بابك جيدًا ولا تنتظر شيئا، فرحيل العابثين لم يعد يؤلم، والسبب الوحيد لرحيلهم سيمنحك عشرات الأسباب لنسيانهم، يوم مضى، وستمضي الأيام تلو الأيام، ويزداد نضجنا، دروس تعلمناها وأشخاص ودّعناهم، لنتفق ألا شيء يستحق الانتظار، تخطَّ المستحيلات بمغامرة، دوّن بمذكرتك قصة حتى لو كانت فاشلة يكفيك شرف المحاولة، ولا تدعْ أيامك تمضي بصفحات فارغة، لتصل قناعاتك أن قيمتك الحقيقية في ذاتك".

آمِنْ بالجمال الكامن في روحك،

فلا شيء يهزم من أضاءتْه يقينه.

تجاوز ما انكسر،

واترك الحلم ينبت في أرضٍ يابسة،

كما تُحيي الأرضَ بعد موتها نسمةٌ من غيب.

الآن

أعظمُ أمنياتي هي ألّا أشعر.

عدتُ إلى منزلي، فرششتُ الماء المقروء في أركانه، باحثًا عن سكينةٍ تُهدّئ اضطرابي. جلستُ وأشعلتُ التلفاز على صوتٍ خافت، كانت مباراةٌ تدور بين الشباب والهلال؛ وكان الهلال متقدّمًا على الشباب. سرعان ما تسلّل إليَّ الملل، فأطفأتُ التلفاز وغادرتُ المنزل متجهًا نحو المقهى مجددًا.

طلبتُ كوبًا من القهوة وجلستُ أراقب المكان بصمتٍ. لفت انتباهي شابٌ يجلس غير بعيد، يرمق فتاةً بنظراتٍ تفيض رغبةً في التودّد والتعارف، بينما هي منشغلةٌ بهاتفها، غافلةٌ تمامًا عن نظراته.

نظرتُ إلى ذلك الرجل العجوز؛ كان يرتدي بدلةً بيضاء، وشَعرُه أشيب، تعلو وجهه نظّارةٌ مستديرة، ويزينه شاربٌ ولحيةٌ قصيرة ناصعا البياض. رفع يده بهدوء، وطلب عصير ليمون بالنعناع.

وفي الزاوية القريبة من النافذة، كان شابٌّ وفتاةٌ، ربما لم يبلغا بعد نهاية العقد الثاني من حياتهما، يتبادلان النظرات، وتملأ ابتسامتهما البريئة أرجاءَ المقهى سعادةً صافية.

كانت عيونه تبحر في عيونها كما لو كانا وحدهما في عالمٍ لا يعرف سوى همسهما الناعم، ويداه تقتربان بخجلٍ وحذر، كأن كل لمسةٍ هي وعدٌ صامت، وكل ابتسامةٍ هي قصيدة حب تُكتب على جدار الزمن. في تلك اللحظة، بدا الهواء من حولهما مشبعًا بدفء الغزل الحميمي، حيث تنبض القلوب أسرارًا لا تُقال إلا بالأنفاس.

وما هي إلا دقائق حتى وصلت قهوتي السمراء على استحياء. جلست أمامي كأنثى خجلى، بثوبٍ داكن وعطرٍ فواح. رغم مرارتها، كان عبيرها يوقظ رجولتي، ويوقظ الحنين في أعماقي.

كل رشفة منها تشبه قبلة مسروقة عند أول الصباح، دافئة، مرتعشة، تترك أثرها في الحلق كما تترك أنفاسكِ آثارها على عنقي. كانت القهوة تشبهكِ...، ساخنة، لا تُشرب على عجل، بل ترتشف على مهلٍ كما ترتشف الروح أنوثتكِ.

وعند خروجي من المقهى، لمحتُ امرأةً عجوزًا تبكي. بدا أنها ناهزت السبعين من عمرها، قصيرةَ القامة، ممتلئةَ البطن والصدر، وجهُها مغطّى بتجاعيدٍ ونمشٍ كثيف، وحاجباها مقترنان على نحوٍ يزيد ملامحها حدة. كانت واقفةً بين الناس، تكرر بمرارة: لن أتركه!

احتلّني الصمت، وغمرتني الحيرة، فسألتُ نفسي:

- من هذه العجوز؟

- ومن لن تترك؟

في عينيها كان حزنٌ عميقٌ كبحرٍ لا ينضب، ممزوجًا بغصةٍ دفينةٍ من انتقامٍ لم يكتمل، كأنها تحمل في قلبها نارًا لا تهدأ، تستمد قوتها من وجعٍ عتيق، وتصرّ على ألا تترك شيئًا، لا حتى الذكرى، دون أن تردّ له الثأر الذي طال انتظارُه.

كانت قميص يوسف، نقية وبريئة،

أما أنا فكنت يعقوبًا المكسور، أئنّ من وجع الغياب.

وما إن عدتُ إلى منزلي، وتمددتُ على أريكتي، حتى سُمِع طرقٌ خفيف على النافذة ثلاث مرات. نهضتُ وفتحتُ النافذة، فإذا بهناء تقف أمامي. دون وعيٍ مني، احتضنتُها بقوة، وهمستُ بلهفة: "أأنتِ بخير؟" وكأنما رُدّت إليّ روحي.

فقالت بصوتٍ خافتٍ يحمل عتابًا رقيقًا: نعم، أنا بخير... ولكن، لماذا لم تسأل عني؟

فقلتُ وأنا أُخفي انكساري: عجزتُ عن الوصول إليكِ... وكنتُ بأمسِّ الحاجة للاطمئنان عليكِ.

قالت: افتقدتُك كثيرًا... أكثر مما تظن.

فقلت: وأنا أيضًا.

جلسنا معًا على تلك الأريكة، وقدّمتُ لها كوبًا من القهوة. ما لبثت أن وضعت رأسها على صدري وهمست بهدوء: العجوز ما زالت تتابعك... وجدتها متعلّقة على باب منزلك. لهذا جئتُك من النافذة. لن تتمكّن من الدخول ما دمتَ ملتزمًا بالتحصين وقراءة القرآن.

فقلتُ وأنا أمرّر يدي برفقٍ على شعرها: احكي لي عنكِ... هل آذاكِ شيء؟ هل مسّكِ ضرر؟

فقالت بهدوء: هي بين الشكّ واليقين أن أحد الحراس قد ساعدك. لم يمسسني أذى، وانقطاعي عنك في الأيام الماضية كان حتى لا تظن بي شيئًا أو تثير شكوكها نحوي. ومع ذلك، كنت أتحسّس أخبارك وأطمئن عليك من بعيد. انحنيتُ برفق، وقبّلتُ رأسها، ثم همستُ: ألا تخافين سماع القرآن؟

قالت: أنا من الجن المسلم. نحن قوم طيّبون، خُلُقُنا حسن، ولا نؤذي أحدًا من البشر. مثلُكم، نحن مكلّفون: نُصلّي كما تصلّون، ونصوم كما تصومون، ونحج كما تحجّون، ونتصدّق كما تتصدّقون، ونسعى لفعل الخير كما تسعون. لكننا نمتلك قدراتٍ عظيمة في القوّة، والتنقّل، والسرعة... قدراتٍ تعجزون أنتم عن بلوغها.

فقلتُ: ألا تخافين أن تؤذيك تلك العجوز؟

فقالت بثقة وابتسامة هادئة: أنا أعلم تمامًا ما أفعل، ولستُ متهوّرة حتى أُعرّض نفسي للسقوط.

كانت تتحدث وصوتها ينساب في أذني كأذان المآذن، أسمعها بخشوعٍ وسكينة حتى غلبها النوم. بدأتُ أتأمّل ملامحها دون قصد... عذبة كطفلة، طويلة فارعة، جمالها يتجلّى في أنفٍ مستقيم، وحلاوة تفيض من عينيها، وشفَتان ناعمتان كعناقيد العنب، وكمال الحُسن يسكن خُصلات شعرها، ووجهها يسرّ كل من نظر إليه. بقيت بين أحضاني تلك الليلة، وكان عطرها عابقًا، يحمل شقاوةً لطيفة. أمسكت يدي بين يديها، فخفق قلبي بقوة

وهي نائمة قريبة من صدري. ابتسمتُ وقلت في نفسي: اهدأ يا قلب... هناء نائمة. أغراني حضورها الناعم!

وكأنها اقتحمت حياتي عنوة؛ قلبت موازيني، غيّرت أولوياتي، وعلّقتني بخيطٍ رفيعٍ متأرجح قد يهوي بي في أي لحظة! أهي جميلة إلى هذا الحد؟ أم أن الشيطان زيّنها في عيني أكثر مما هي عليه؟ تحمل كل هذا الجمال ولا تتعب؟

وبينما كنتُ غارقًا في تأمّلها، فتحت عينيها وابتسمت برقة. نظرتُ إلى شفتيها، وانحنيتُ لأقبّلها بلطفٍ وحنان، وكأنني أخيط جرحًا قديمًا بلمسةٍ شافية. بادلتني تلك القُبلات المتفرّقة، وكأنها تنزع من قلبي بقايا الأوجاع.

كانت ليلةً تفيض قُبلات، كأن شفتيها تكتب على جلدي قصيدةً لا تنتهي، تارة تلامسني برقة النسيم، وتارة تعضّ همسي كأنها تعاتب شوقي. أنفاسها تختلط بأنفاسي، وتذوب بيننا الحروف، فلا يبقى سوى لغة الجسد وهمسات العيون.

كانت قبلة تجر قبلة، حتى غفونا معًا كطفلين أرهقهما اللعب بالعشق. حتى بدأت أصوات العصافير تعلو مُعلنةً بزوغ الفجر. فتحتُ النافذة، فإذا بالألوان تستعيد زهوها، وبأنفاسي تعود تنساب بحرية وكأن الأكسجين عاد يتدفّق في جسدي بعد انقطاع طويل.

نظرتُ في عينيها... وكأنها بعثت الحياة في روحي بعد احتضار طويل. شعرْتُ بالجوع يطرق معدتي، فابتسمتُ وقلتُ لها: هناء، ما رأيك أن نخرج لنتناول الفطور؟

فقالت: حسنًا.

دخلنا أحد المطاعم لتناول الفطور، وما إن وُضعت أطباق الطعام الشهي أمامنا، حتى لاحظت هناء طفلة فقيرة تقف خلف زجاج المطعم، تحدّق بعينين واسعتين في طبقي. كانت عيناها ممتلئتين بالرجاء والجوع، وملابسها البسيطة تروي حكاية حرمانٍ طويل.

نادتها هناء بلطف، وطلبت منها الدخول إلى المطعم، دخلتْ وجلست بجوارها، ثم سألتها عمّا تحب أن تأكله، فرفعت الطفلة نظرها بخجل نحو طبقي، فبادرت هناء بطلب طبقٍ آخر مشابه، وجلست تراقب فرحتها وهي تتناول الطعام بشهية.

بعد أن أنهت الطفلة طعامها، قامت، غسلت يديها، وغادرت بهدوء. ابتسمتُ لطيبة قلب هناء، ومساعدتها للآخرين، ولم يكن ذلك مستغربًا منها. وعندما طلبتُ الفاتورة، فوجئت بأنها مدفوعة مسبقًا. نظرت إليّ هناء وابتسمت، ثم غمزت بعينيها في صمتٍ دافئ.

وبما أن صباح ذلك اليوم كان يكسوه طقسٌ شتويٌّ ورائحةُ المطر تعبق في الأجواء، قررنا أنا وهناء الذهاب إلى المقهى. دخلنا المقهى المفضّل لدي، وجلسنا في زاويتي المعتادة، على طاولتي المحببة. أحضر لنا النادل الشيشة وكوبين من القهوة.

ارتشفتُ بتلذذ أولَ رشفة من القهوة، ثم أخذتُ نفسًا عميقًا من الشيشة، جذبته بهدوء إلى أعماق صدري، ليخرج بعد ذلك كأنه هالة من الدخان تتلاشى في الهواء... تمامًا مثل السكينة التي شعرتُ بها في تلك اللحظة.

ابتسمت هناء، ثم التفتت إليّ وقالت بنبرة لطيفة: "يا معلّم".

فقلت مبتسمًا: هذا مكاني المفضّل... على هذه الطاولة أحتسي قهوتي وأكتب أوراقي.

فقالت: الكتابة والقهوة: شريكان مثاليان في الإبداع، ثم قالت: حدثني عن كتاباتك.

فقلت: الكتابة ليست بالبساطة التي تظنينها، إنني أستأصل قلبي، أغمسُه في الحبر، وألصقه على الأوراق. هذا الهدوء الذي يراه الجميع يخفي صراخًا لا ينتهي، كبركان صامت يحتضر في أعماقي، وتصدعاتٍ لا يرمّمها أحد. أكتب كثيرًا... ولا أبوح إلا بالقليل. أشعر بالألم، ومع ذلك، ما زلتُ أرغب في البقاء.

أصدرتُ "خمسة كتب" خلال سبع سنوات متتالية، وقد أخذت من وقتي وجهدي الكثير. ومع ذلك، لم يكن الأمر مُربحًا. السبب يعود إلى عزوف الناس عن القراءة، في زمن أصبح الوصول إلى المعلومات سهلًا وسريعًا عبر الشبكة العنكبوتية. هذا الكم الهائل من البيانات المتاحة خلق حالة من التكاسل عن مطالعة الكتب، وأدى إلى غياب الوعي بأهمية القراءة ودورها في تنمية الفرد والمجتمع. إضافةً إلى ذلك، كثرت المُلهيات وتنوّعت: من الإنترنت، إلى الألعاب الإلكترونية، ثم الأفلام، وكلها سلبت الناس متعة التفرّغ للكتاب.

فقالت: القراءة تصنع شبكة معقّدة من الدوائر والإشارات داخل الدماغ، ومع نضوج مهارة القراءة، تصبح هذه الشبكات أكثر قوةً ونشاطًا. كما أن الانتظام في القراءة يجعل العقل أكثر وعيًا واستنارة، وهو أمر ضروري لتنمية الفكر وصقل القدرة على التصرف في المواقف المختلفة. صحيح أن كثيرًا من الناس لم يعودوا يقرؤون كما في السابق، فقد أصبح البديل هو محركات البحث مثل غوغل وغيره.

ثم قالت وهي تنظر في عينيّ بنبرة خافتة: ومن أكون أنا في حياتك؟

فقلت: أنتِ جوهرة ثمينة، أود أن أحتفظ بها في السماء، كما خُلقت في صيغتها الأولى، خالصةً نقية. وأظل أُشخص بصري نحوها، أراقب نورها يشعُّ في قلبي قبل عيني.

فقالت مبتسمة وعينيها تلمعان بشيء من الحنين: ليتك كنت ريحًا، فأحلق معك أينما تمضي، ولا أفترق عنك أبدًا.

فقلت مبتسمًا مطمئنًا: أنتِ معي، وهذا يكفيني. ثم ارتسمت ابتسامة على وجهي، وقلت: صحيح، هل يمكن أن تحكي لي عن تلك العجوز؟ وكيف يمكنني أن أتخلص منها؟

فقالت بهدوء وجدية: "اسمها السوداء"، عمرها يتجاوز المئتي عام. هي عفريتة من العالم السفلي، تُستعمل في أعمال السحر والشعوذة. تظهر في هيئة امرأة سمراء تحيط بها النيران من كل جانب. عادةً، ترسل شيطانًا يسبقها إلى مستحضرها ليأخذ منه العهد بالخروج عن طاعة الله، فيربطه بعالمها ويُخضعه لإرادتها.

ثم أكملت بنبرة خافتة: هي من أخبث العفاريت، ماهرة في التضليل، ونشر الفواحش والأمراض بين البشر. متمرسة في خدمة المشعوذين، والكهنة، وعبدة إبليس. لديها عدد كبير من الأبناء، لكنها باتت مكروهة بين ملوك الجان بسبب تصرفاتها الطائشة، وطيشها المستمر، وانتقامها المبالغ فيه دون مبرر واضح. لا تملك وليًّا ولا نصيرًا، لأنها عاقّة، فوضوية على نحوٍ لا يُحتمل. لقد ضعفت قوتها مؤخرًا، وأصبحت تعتمد بشكل رئيسي على حراسها من الشياطين ليحموا نفوذها ويُنفذوا أوامرها.

قالت هناء بنبرة حازمة: إن أردت التخلص منها فعليك بالمداومة على التحصين وقراءة القرآن الكريم. إن عجزت عن اختراق منزلك أو التسلل إلى جسدك، ستجن جنونها، وتنشغل بالانتقام بإثارة المشكلات من حولك أو افتعال أذى جديد.

لكنها، مع الصبر والثبات على الذكر والتحصين، تضعف شيئًا فشيئًا حتى تنكسر شوكتها وتنقطع عنها السُبل.

فقلت: ومن هناء؟

فقالت: أنا لست امرأة كباقي النساء. لستُ طفلة تكتشف الحياة بعينيها لأول مرة، ولا مراهقة تتعثر في طريق إثبات ذاتها. لستُ صورة من أمي، ولا ظلًا لأختي. أنا امرأة تنبض بتراب الريف، تحمل قيمه في قلبها، ونقاؤه في روحها؛ وهذا ما يجعلني مختلفة دائمًا.

أنا هادئة، صبورة، لا أتسرع في قراراتي، وأحكامي وليدة التجربة لا الوهم. مبدئي واضح كالشمس: لا أفعل سرًا ما أخجل من إظهاره علنًا. ومعك... وجدتني أتغير، دون أن أدري.

فقلت: لماذا سميتها نقطه ضعف؟

قالت: حبي لك مثل عملية جراحية دون بنج، فالموت من الألم فيها مؤكد. ولا تنسَ أننا مختلفان خلقة وفطرة، ولن يقبل بكَ الجان، ولن يقبل قلبكَ بي. وأنا أكثر من يعلم أن قلبكَ متعلّق بتلك الآسرة.

فقلت: اطمئنّي... قلبي كدار أبي سفيان؛ من دخله كان آمنًا، ومن طرقه متعبًا وجد فيه سكينته. لا تُنقّبي في التفاصيل، فكل ما قبلك كان فصلاً بلا عنوان، وأنتِ وحدكِ ما يستحق الحكاية.

ولا تنسي أن الحب، حين يكون صادقًا، يشبه السكينة التي نزلت في لحظة خوف؛ وُجد ليطمئن قلوبنا، لا ليقلقها.

نحن أكثر من ذاق مرارة التيه قبل أن نُؤتى هذا اللقاء، كمن ظلّ يتبصّر أثرًا حتى لقيه. نحن من جدد الأمنيات كلما يبس الرجاء، ومن تمسّك بالأمل كما يُمسك الغريق بخشبةٍ في اليمّ.

فلنبقَ معًا... فبعض البقاء رحمة، وبعضه نجاة، وبعضه كأهل السفينة: إن نجونا، نجونا جميعًا.

فقالت: أنا مؤمنة أن الحب لا يعرف قبيلة ولا دينًا، ولا عمرًا ولا شكلاً؛ هو يعرف الثبات إذا اضطرب كل شيء، ويعرف الإخلاص حين تُنسى الأسماء.

كل شيءٍ عنده بمقدار؛ فكما شاءت الأقدار أن نلتقي من بين طرقٍ متشابكة كخيوط العنكبوت، قد تكتب لنا فُرقة ذات يوم، لا نملك ردّها ولا استعجالها.

فإن حدث ذلك... لا تنسَ اللحظات التي جمعتنا؛ اكتبها على تلك الصحائف البيضاء، كما تُكتَب الآيات: محفوظة، وإن انطوت.

لتأتي الشمس مرسلة خيوطها الصفراء الواهنة، المشوبة بحمرةٍ خفيفة على كتفي هناء، وكأنها تغازلها. هي فتاة لا تُستبدل ولا تتكرر، لا تشبه أحدًا ولا يشبهها أحد. هي كل الأشباه، وهي الأربعون منها، وكأنها مكتملة خَلقًا وخُلقًا!

بدأ الصوت يعلو بين النادل مازن والرجل العجوز الذي تعبر السنين في ملامحه. نظارته مقعَّرة، ثيابه أنيقة، وشعره أبيض ناصع. كان يشكو من تأخر الطلب، وحين حضر، وجد قهوته باردة.

نظرتُ إلى مازن وقلت لهناء: هذا النادل تحديدًا لا أرتاح له. حركاته سخيفة ولا أفهم مغزاها جيدًا، ومع ذلك أواصل تجاهلها. يختفي لساعات، وأحيانًا لأيام كاملة، ثم يظهر فجأة ليلقي بفنجان القهوة على الطاولة وينصرف متذمرًا. يبدو أن لديه مشكلة معي، أنا واثق من ذلك. فأنا زبون يقضي ساعات طويلة ملتصقًا بالكرسي، منشغلًا في كتاباتي.

وبعد دقائق، خرجنا وركبنا السيارة. نظرتْ في عينيّ، تتأملهما وكأنها هي التي تحرقني بأشعتها نهارًا كشمس ماجنة، وتضيء أمسياتي كقمر زاهد. كأنها جُمِعت في عينيها أن تكون لي ليلًا لباسًا ونهارًا معاشًا. وكأنها تقول لي:

اعصف بحبك حولي،

واحرق شكوكي، وانثر خوفي رمادًا في الريح.

اجعلني أُحلّق بحبك، وأبلغ بك حدّ السماء،

دون أن أخشى

أن تلحقنا شُهبُ الفراق.

وعند وصولنا إلى المنزل، وضعتْ حقيبتها فوق مكتبي، ثم ألقت بنفسها على سريري وقالت: دعني أحتضنك وأقبلك، لأهبك اشتياقي، وأذهب بك بعيدًا لأُحلّق في سماء الحب، وأترك نفسي تموت عشقًا على صدرك، ولن أحيا إلا باستنشاقك. كأنما أُلقِي السكينة في قلبي.

اتجهتُ نحوها ومددتُ يدي، فاندفعت إلى أحضاني كالطفلة التي تبحث عن لعبتها. ضممتها إلى صدري بشدّة، حتى اطمأنت إلى أنها تجري في مجرى دمي، وأن لعبتها بدأت تعبث بصدري.

كان عطرها يأخذني هنا وهناك، وكأن كل العطور ينتهي مفعولها إلا عطرها هو الباقي. خصلات شعرها تداعب فمي، وأنفاسها تتسلل إلى أذني، وكأنها تقول: أغمض عينيك ونَم قرير العين، أنا هنا لأحمي أحلامك بدعائي، وأسرق عنك ثقل التفكير لأهبك راحتي.

مكثتُ ذلك اليوم بين أحضانها، حتى غلبني النوم. نمتُ، ولا أعلم كم مضى من الوقت، حتى استيقظتُ على أناملها تلامس وجهي برفق. فتحتُ عيني، فوجدتُ هناء تبتسم وتقول: الشيب بدأ يغزو سواد لحيتك، كأنه ليلٌ جاوره النهار.

ابتسمتُ وقلتُ: الشيبُ، وشيءٌ من التجاعيد التي بدأت ترتسم على وجهي... أشعر وكأنني كتبتُ شيكًا بخمسة عشر عامًا دون رصيدٍ من العمر، فتورطتُ، وبات عليَّ أن أسدّد ديني!

فتحتُ النافذة، فرأيتُ غيومًا سوداء رمادية مكتنزة بالمطر، لا تسمح للعتمة بالتبدد، على الرغم من قدوم الصباح. كان صوت قرع المطر وهديل الحمام يتناغمان مع عبير عطرها، فأعود بذاكرتي إلى ليلة الأمس. ابتسمتُ خجلًا، وقد تسكعنا طويلًا على هذا السرير!

نظرتُ إلى هناء فوجدتها قد غابت في سبات هادئ من جديد. ما دمتُ قد أتعبتها، سأتركها تستريح بين أحضان النوم قليلاً، ثم تستيقظ على رائحة قهوتي الدافئة، فنشربها معًا في صمت صباحٍ يهمس بالهدوء والحنان.

هناء تغفو، والمطر مشتعل بالحنين، والذكريات تتداعى. كان المطر يذكرني بها. وبعد ساعة من الانتظار، فتحت عينيها كمن يحيي الله به الأرض بعد موتها، وكأنها تقول:

في حالنا هذا،

الصمتُ أبلغُ من الكلام،

يتحدث قلبي أنيناً، وتبكيك عيني إذا توارت عن الأنام.

أغلقتُ بعدك أبواب قلبي، وأحكمتُ إقفالها،

ولكنّك تعلم مفاتيح... ولو كانت صدئة!

ألا تعلم؟

أنى قبل لقائك نويتُ عن الحب صيامًا،

لكنّني حين رأيتكِ،

صرتُ كمجنون ليس عليها صيام!

شربنا القهوة وأنا أتأمّل عينيها، وشعرها الأسود المنسدل على كتفيها، وأناملها الناعمة. تحدّثنا عن عالم الصورة، وعن حياة الصورة وموتها، ثم حدّثتني عن بيئتها المتشددة، وعن الجن الفارغي العقول من بيئة الذين يدورون حولها ويعرضون عليها الزواج، فكانت ترفضهم لأنهم متشددون لا يؤمنون بحرية المرأة.

ثم انتقلت الأحاديث إلى تفاصيل حياتها اليومية؛ كيف تنهض متكاسلة من فراشها في ساعة متأخرة من الصباح، فتجلس في غرفتها وتشرب قهوتها وحدها قرب النافذة، فهي لا تحب ثرثرة والدتها وأختها الصباحية مع النسوة.

تحدثت عن كل شيء، عن كل تفاصيل حياتها في المنزل، ولم يبق أمامي إلا أن أسألها عندما تنامين ماذا ترتدين، البيجاما أم قميص النوم، وما هي ألوانك المفضلة؟

هناء ناعمة وجميلة في بداية الثلاثينات من عمرها، خفيفة الروح، عذبة كالأحلام، استمتعت بحديثها، وهي تقرأ ما أكتب وتستمتع به وبحديثي، منفتحة على الحياة، إضافة إلى وهذا المهم .إنها تمتلك عينين زرقاوين، فلماذا لا أغرم بها؟

أجملُ الألوان أزرقُها أختارهُ اللهُ لونًا

للسماء

والبحر

وعيناكِ

كيف تجانسنا إلى هذا الحد،

حتى بتُّ نسخه مفضّلةً منكِ؟

أكاد لا أفتقدكِ...

وأنا وحدي، من شدة تشابهي بكِ،

وكأنكِ خُلقتِ من ضلعي!

فتحتُ التلفاز فوجدت عرضًا سحريًا. سألتها عن حقيقة "الساحر الأمريكي" الذي يظهر في هذا البرنامج؛ فهو يرتفع في الهواء، ويخرج من الدمار سليمًا معافى، أو يضع فتاة في صندوق ويغرس فيه عشرات السيوف، فيُقطّع الفتاة دون أن تتأذى!

فقالت: هذا الرجل معروف في عالم الجن، فعندما يرتفع في الهواء تكون مئات من الجن تحمله وتحميه من السقوط. أما الفتاة التي يقطعها في الصندوق، فهي جنية متشكلة تختفي ثم تعود دون أن تتأذى.

فقلت: إيه، طيب، أَصحيح أنَّ قرين النبي ﷺ ما زال حيًا؟

فقالت: نعم، ومسكَنه بالبقيع، وله مجالس علم يعلِّم فيها الجنَّ المسلمين أحكامَ الله تعالى، ويُفسِّر لهم القرآن الكريم، ويشرح لهم أحاديث رسول الله ﷺ. وأغلب من يُسلِم من الجن - إن لم يكن جميعهم - يذهبون ليتعلموا على يديه. ولو رأيت الزحام الهائل حوله، لسجدتَ لله مُسبِّحًا على عظمة خَلقه وعجيب مُلكه.

فقلت: وكيف تكون أشكال الجن؟

فقالت: إن أشكالهم تشبه كثيرًا صورة الإنس، مع بعض الفروقات البسيطة في حجم الرأس والعيون. أما الأذنان، فهما تشبهان أذني الخيل أو القطط. وبول الجني مختلف، فهو ليس سائلًا، بل أخف كثافة بكثير من بول الإنسان. ولهذا السبب، فإن المسلم الذي لا يذكر الله عند نومه ولا يبيت النية لأداء صلاة الفجر، لا يشعر

ببول الشيطان إذا بال في أذنه. والجني المسلم يلبس نعلين، بينما الجني الكافر يلبس نعلًا واحدة في قدمه اليسرى.

فقلت: وكيف يدخل الجن ويتلبَّس بالإنس؟

فقالت: إن الجن يدخل إلى بدن الإنسان عن طريق فتحة الشرج، لأنه يحب الأماكن القذرة.

فقلت: وكيف هي حياتهم؟

فقالت: الجن خلقٌ كثير العدد، إلى درجة لا يتخيلها عقل البشر. وتِندر أن يوجد مكان في هذه الأرض - برًّا أو بحرًا أو جوًّا - غير معمور بالجن. وهم أجناس وأصناف وألوان وأُمم.

وعالمهم يشبه عالمكم؛ فيه دول وملوك وقبائل وشعوب وأمراء ورعية. وأديانهم كأديان بني البشر؛ فيهم المسلم، وفيهم المسيحي الضال، واليهودي المغضوب عليه، وفيهم الهندوسي، والبوذي، والوثني، وفيهم الملحد الشيوعي.

وأغلبهم - والعياذ بالله - مسوخ قبيحة، أو كلاب. ولإبليس مملكة ضخمة، فيها وزراء وحكومة وإدارات كبيرة. وله - أي إبليس - خمسة مندوبين كبار ما زالوا أحياء حتى يومنا هذا.

والجن معمَّرون، فأغلبهم يعيش آلاف السنين. وهم يتلصصون على أخبار السماء ويسترقون السمع. وإن جدي الكبير كان يسترق السمع، فأتبعه شهاب ثاقب فأهلكه.

وهناك جيوش لإبليس منتشرة في كل مكان، وهم المتسكعون. هؤلاء هم الذين يُزيِّنون النساء في أعين الناظرين ليزدادوا إثمًا. ومن هؤلاء الشياطين مَن هو مختص بالنصف الأسفل من المرأة؛ يوسوس لها بالإكثار من تحريكه، ويُزيِّن هذه المنطقة لكل ناظر. وهذا الصنف من الشياطين يعمل ليل نهار بلا كلل أو ملل، ولا يستريح إلا قليلًا.

فقلت: وكيف يكون الزواج والحمل؟

فقالت: إن ليلة العرس عند الجن مثلها عند الإنس؛ يخلو الرجل بأنثى الجن ويفض بكارتها التي خلقها الله دلالةً على عذريتها. والشرف عند الجن له أهمية عظمى. ومعاناة الجنية الحامل تفوق معاناة الإنسية الحامل، لأن مدة حمل الجنية خمسة عشر شهرًا، ويتراوح عدد الأولاد في البطن الواحد بين سبعة إلى تسعة، وأحيانًا تضع الجنية اثني عشر ولدًا بين ذكور وإناث. وهي تُرضع أولادها كما تفعل إناث الإنس، مع فارق أن مدة رضاعة طفل الجن تستغرق عمر إنسان من الإنس.

ثم سكتت، واحتسَت قهوتها، ثم قالت: أما بشأن السحر، فأنواعه عديدة، وأشهرها: أسحار الكراهية، وإصابة المحال بالكساد، ووقف حال فتاة عن الزواج. وهناك أيضًا السحر المصحوب بتسخير جني لإصابة إنسان بمرض في عضو من أعضائه؛ كشلل اليد، أو تعب الكلى أو الكبد، فيتوهم المرء أن الإصابة عضوية.

وقد يُسلَّط جن على رحم المرأة لسد قناة فالوب، ومنع مني الرجل من التسرب إليها، مما يؤدي لاحقًا إلى إصابتها بأمراض سرطانية. لكن أخطر أنواع السحر هو ربط الزوج عن زوجته.

قالت: ما رأيك أن آخذك إلى مملكتي لتراها من بعيد؟

فقلت: كيف؟

قالت: احتضِنِّي وأغمِض عينيك.

وجدتُ نفسي في السماء أطير بسرعة كبيرة، حتى وصلنا إلى القصور السبعة؛ قصور بيضاء مزخرفة بالذهب، ومزيَّنة بشتى الأحجار الكريمة والنفيسة، مشيَّدة على الجبال بأعمدة عظيمة لا يمكن تصورها أو بناء مثلها، مصنوعة من أقوى أنواع الصخور. قصور، لو رأيتها من بعيد، لأقسمتَ أنها تطفو في الفضاء من غير أعمدة ظاهرة؛ كأنها رُفِعت بغير عمدٍ ترونها، فقد جُعلت أعمدة القصور مثبتةً بالجبال، ومتصلةً بالقصر من الخلف، فيغطيها البناء فلا تُرى. بُنيت القصور بطريقة هندسية عظيمة، تُمكِّن المياه الخارجة من الجبال أن تجري من خلالها بتصميم إعجازي.

أرضها خضراء، كأنها بساط مفروش ممتد إلى آخر مدى البصر؛ أرض خصبة صالحة للزراعة في أي بقعة منها. وتنين أزرق يطير بين القصور، وخيول بيضاء بأجنحة! كأنها من خيلٍ مسوّمة.

رأيتهم يرتدون عباءات من الحرير المزيَّن بخيوط الذهب، والمكوَّنة من قطعة واحدة طويلة تلفّ كامل الجسد. هذا اللباس له عدة ألوان: الأبيض، والأسود، والأزرق. وتكثر الخواتم في أيديهم، والسلاسل من اللؤلؤ والمرجان في أعناقهم.

لفت انتباهي مجموعة منهم على رؤوسهم أغطية سوداء، مقيدة أيديهم بقيود متينة، كانوا يُضرَبون بسوط من حديد ويُعذَّبون.

سألتُ هناء: مَن هؤلاء؟

فقالت: جواسيس كانوا يتجسسون على مملكتنا. وشعبنا مسالم هادئ، ولكن عندما يصل الأمر إلى تهديد أراضينا ومملكتنا، فإننا نتحول إلى كائنات لا تعرف رحمة ولا سلام. بشكل أوضح، نتحول إلى الشر بعينه. ولكن لا عتب عليهم؛ فهم يعيشون في زمن البقاء فيه للأقوى، ويخافون أن تنهار أرضهم، ويُباد نسلهم، ويُسحق مُلك أجدادهم الذين ضحَّوا بالغالي والنفيس لأجل بناء هذه المملكة الأسطورية.

فقلت: ولماذا لم تسكني معهم في هذه المملكة؟

فقالت: أصبح ملكُنا "شمس" لعبةً بيد الكهنة؛ فهم المُسيِّرون الحقيقيون للمملكة. وعندما صار الأمر لا يُطاق، وصار الكهنة هم من يحكمون، وبدأ الظلم ينتشر، والقرارات لم تعد تناسبني، خرجتُ من هذه المملكة.

بدون مقدمات، احتضنتني وقالت: يكفي! فوجدتُ نفسي في منزلي. استغربت: أهو حلم أم حقيقة؟! ثم قامت وجلست على مكتبي وقالت: أتسمح لي بقراءة مذكرتك؟

فقلت: بالتأكيد، وبكل سرور.

فتحت مذكرتي، وكان مكتوب في أول صفحة اجعل لحياتك مرحلة فاصلة ما بين الماضي والحاضر، واحظر كل أفكار الماضي الكئيبة، أرسلها لصندوقك الأسود، وأغلق عليها، وانسها للأبد.

بيدك تغيير كل شيء، وبدء صفحة جديدة نقية لا يشوبها شائب. تعايش مع الناس وانطلق، واجعل لحياتك رونقا وبهجة، فمطاردة خيوط الدخان ما هي إلا رجوعك للخلف، وتعثر بتلك الخيوط الواهية، وعدم نهوضك مرة أخرى، وستكتب نهايتك.

لا تطلْ الوقوف عند تلك المحطات، وخذ منها ما يعلمك ويقويك، ما هي إلا فرصة لتعيد بها ترتيب حساباتك وأفكارك، وتدرب نفسك على الصبر والثقة بالله، وما هي إلا خبرات من الحياة للحياة.

رفعتْ رأسها مبتسمة، وقالت: كلام جميل. وهل أرسلتَ أفكار الماضي الكئيبة إلى صندوقك الأسود؟

ابتسمتُ وقلتُ: لا.

فقالت: عجبًا أن تكتب ما لا تفعل. دعني أقول لك شيئًا: لا تجعل وجعك يُنسيك جمال النعم، فكم من محرومٍ يتمنى ما لديك!

فقلت: إلى هذه الدرجة كتاباتي فاضحة؟

فقالت: جدًا. وليست كتاباتك فقط، بل معالم وجهك أيضًا. كرامتك، ثم كرامتك، وإن وصل بك الحال إلى أن تصير صديقًا لجدران منزلك.

أنت تستحق علاقة أنيقة؛ بلا حيرة، بلا مقايضة، تهديك نومًا هادئًا يطرد عنك سُهاد القلق، وشخصًا يحبك بكل خصائصك صغيرة وكبيرة، ويجمع في حضنه كل أمنياتك. تحتاج الحقيقة لا أماني، تحتاج يدًا تمسك بك في العتمة لا صوتًا يهمس في البُعد.

تستحق صديقًا يثق بك كأنك وطنه، وكثيرًا من الأهل الذين يحتضنونك كعودٍ بين أذرع عود. تستحق مدينة أمان، لا يعرفها إلا من استقرّ فيها قلبه، وسكينة تُلقى في روحك كما تُلقى في الأرواح التي ركنت إلى اليقين.

فجأة، ومن دون مقدمات، انطلقت نظرات هناء نحو النافذة وتجمدت في مكانها! التفتُّ بسرعة... كانت النافذة مفتوحة، وتلك العجوز تحدّق بنا بعينيها الغائرتين! انتفض قلبي، استعذتُ بالله، وانطلقتُ نحو النافذة فأغلقتها بعنف.

التفتُّ إلى هناء، كانت ملامح الخوف قد استولت على وجهها كليًّا. همست، بصوت مرتعش كأن أنفاسها تختنق: أهي العجوز؟ نظرتُ إليها، أومأت برأسي ببطء، وقلت بهدوء مشوب بالتوتر: نعم... هي.

فقالت، وعيناها تلمعان بذعر: كُشف أمري... لن تتركني لحالي... ولن تتركك أنت أيضًا.

فقلتُ: أمرُنا كله لله. هي عجوز ضعيفة، سنحرقها بآيات من القرآن. لا تخافي، أنا معكِ. اقتربتُ منها واحتضنتُها، أحسستُ برجفان جسدها بين ذراعي.

وما هي إلا دقائق... حتى دوّى طَرقٌ عنيف على النافذة! شهقت هناء وقالت بسرعة: ألديك ماء مقروء عليه؟

أجبتُها: نعم، لدي.

قالت بخوف: رشَّه على أركان المنزل... وعلى هذه النافذة!

أسرعتُ، ورششت الماء المبارك في أركان البيت وعلى النافذة المرتجفة. وفجأة... تعالت أصوات ضجيج، وبكاء، وتمتمات غريبة مشوشة، لم أفهم منها شيئًا سوى جملة واحدة تكررت بصوت متهدّج: لن أتركه... لن أتركه...نفس الصوت... صوت تلك العجوز التي كانت تبكي بجوار المقهى!

نظرتْ إليَّ هناء بعينين تغمرهما الحسرة، وقالت بصوت خافت مرتعش: أنا آسفة... حضوري إليك وضعك على بُعد أمتار فقط من الجحيم.

فقلت: لا تقولي ذلك... أنتِ سعادتي وراحتي. وفي كل الأحوال، كانت العجوز ستأتي، ولن تتركني حتى تنتقم مني. أنا فقط خائف عليكِ، وليس على نفسي. ومهما كانت الأقدار والمصائب... سنواجهها معًا، وسنبقى معًا.

اتصل بي جاري وطلب مني أن أخرج بسرعة. نزلت فوجدت سيارتي قد اصطدمت بجدار المنزل المقابل. سألت جاري: كيف حدث هذا؟

فقال: كنت أتكلم بالهاتف، وفجأة تحركت سيارتك وحدها، وعادت إلى الخلف حتى اصطدمت بالجدار! قلت في نفسي: الأمر غريب.

ثم تذكرت أن هناء وحدها في المنزل! صعدت بسرعة، فتحت الباب، وبحثت عنها في كل أرجاء المنزل وبين الغرف، لكن لم أجد لها أثرًا! فتحت النافذة، فلم أَرَ أحدًا. الغريب أن حقيبتها ما زالت على مكتبي...

- هل يعقل أن العجوز أخذتها؟

- أم أنها هربت خوفًا منها؟

خرجتُ من منزلي متجهًا نحو المقهى والمطعم، فلم أجدها هناك. بحثت في كل الاتجاهات القريبة بلا أثر. تسارعت دقات قلبي، وغابت كل الوجوه والأصوات كأنها تلاشت من عالمي، وتركتني وحيدًا وسط ضباب الحيرة والانتظار، حيث الغياب أعمق من أن يُحَدّ. حاولت أن أتمسك بأملٍ ضعيف، لكنّ الصمت كان يصرخ في أذني أكثر من أي صوت. وكل خطوة أقترب بها، كانت تزيد من اتساع الفراغ حولي.

تساءلتُ بمرارةٍ تخترق أعمق جوانحي: هل فقدتُها كما فقدتكِ أنتِ من قبل، أيتها الآسرة؟ جثوتُ على ركبتي، والألم ينهش قلبي كوحشٍ غادر لا يرحم، كأن الفراق قَدَرٌ نُقش على جبيني منذ الأزل، وكل حبٍ مرّ في حياتي مُعلَّمٌ بسطرٍ قاتم من الوداع، يطوقني بلا نهاية.

"اللهم صبرًا على ما لم نُحط به خبرًا".

أكره الانتظار ...

أنتظر... وأعيش ألاحق عقارب الساعة، أدور معها في نفس الاتجاه، يمضي العمر ويجرفني معه. تغوص بي عقاربها القاسية إلى أعماق الحزن، فأدور وأدور بلا نهاية. تتلاشى لحظات السعادة من ذاكرتي، ويظل الحزن في داخلي ظلامًا وحرقة. وهكذا قد ينتهي بي المطاف... لكن الانتظار لا ينتهي، ولا يتوقف دوران عقارب الساعة. جلستُ في زاوية غرفتي، مهزومًا، أنظر إلى النافذة... أبحث عن أي علامة على حضورها.

- لا أعلم أين تسكن... ولا أين أبحث عنها؟

- ولا أعلم أين هي... ولا كيف أصل إليها؟

وكأن الانتظار هو الأمل الوحيد... تكاثرت الخيبات على وجهي، حتى غابت ملامحي معكِ. وكأن القدر يدفعني بعيدًا عنكِ، مهما اجتهدت واقتربت ألف مرة! فقط أنا من يشعر بانتفاضتي واحتضاري... وحدي كما كنتُ، وما زلتُ.

ولا أنكر أن الأيام التي عشتها معكِ كانت أجمل من حياتي كلها. لم تكوني مجرد عشقٍ عابر... كنتِ حياة كاملة أعيشها. كان هناك فراغ في قلبي، ووجدتكِ فاهتدى قلبي؛ ملأتِه أنتِ بكل شيء: عطركِ، ذكرياتكِ، طيفكِ. لكن الحنين إليكِ والشوق يزيداني بؤسًا وألمًا يصعب احتماله.

- كم أنتِ جميلة بعطائكِ... كم أنتِ رائعة بحضوركِ في حياتي؟

-كم كنتِ جميلة... حتى في أوجاعي، كنتِ بلسمي وسط الألم!

تمر الأيام تلو الأيام، وكل يوم يسلّمني لليوم الذي يليه على نفس الحال... وأنا ما زلتُ واقفًا بثبات عند تلك النافذة، أنتظركِ، كمن يترقب فجرًا لا يأتي، وصمتًا يلفّ المكان بلا نهاية. كل لحظة تمرّ تزيد من ثقل الانتظار، وكأن الزمن يماطلني في هدية اللقاء.

أيقنت أن انتظاري عند النافذة لن يعيدكِ، وأن لا حل أمامي سوى أن أترك التحصين، وأدع تلك العجوز تتلبس منزلي... لأسألها عنكِ..

يبدو أنني في الأيام الأخيرة صرت أعيش خارج الزمن... كأنني مريض محموم، لا أعي تمامًا ما يحدث لي. وخاصة منذ أن بدأت أفكر في أن أكتب لكِ، كما طلبتِ... وكما وعدتكِ.

يبدو أن التفكير في هذا الأمر قد تملكني تمامًا... حتى صرت أنفصل عن الواقع، وأعيش في حُمى وهلوسات متتابعة.

لم أعد أميز بين الخيال والوهم، ولا بين الحقيقة والواقع... كأنني أغوص في ظلماتٍ بعضها فوق بعض، وأصبحت أكتب بلغة المنكوبين، بحبرٍ من فزع، وعلى ورقٍ من غياب.

هل تعلمين معنى أن ينتظركِ أحد؟

أن يراهن بشمعته التي أشعلها منذ بدأ انتظاركِ...

على أنها لن تذوب قبل أن تعودي؟

لكنها ظلت تذوب وتبكي... وتبكي،

حتى أوشكت أن تغرق في نفسها.

ولم تكن الشمعة وحدها من سكبت دموعها...

الأشد من الحزن شرحه.

دخل نوفمبر ...

واقترب عيد ميلادكِ... اليوم الذي جئتِ فيه إلى الحياة لتغيري مجرى حياتي. أكتب الآن، وأشعر أن فراقكِ أكبر من أوراقي... وأن كلماتي أعجز من أن تحتوي ألمي. خرجتُ من منزلي، وجلست في المقهى الذي أحببناه. نظرتُ حولي... وكأنني أراكِ في كل زاوية، في كل ركن، في كل همسة.

وبعد نصف ساعة، أحضر النادل كوب القهوة وكعكة عيد ميلادكِ. ابتسمتُ بهدوء، ثم أطفأتُ الشموع... برفقة عطركِ وطيفكِ الحاضر في الغياب.

كل عام وأنتِ حبيبتي ...

هناء ...

أعتذر منكِ... لم أستطع أن أحميكِ كما وعدتكِ، ولم أفلح في أن أحافظ عليكِ. كان أماني بكِ كأمان يعقوب على يوسف وإخوته... أمانًا خذلته الأقدار.

إن كنتِ تشعرين بي... عودي. دعينا نكمل ما بدأنا به سويًا، سأكتب عنكِ، وسأجدد لكِ عهود الحب والطاعة. سأظل أحبكِ حتى يتوقف قلبي عن النبض... أعلم أنكِ غادرتِ مُرغمة... وستعودين حين تشائين.

خرجتُ من المقهى أبحث عن تلك العجوز، لعلّي أجدها. نظرتُ يمينًا ويسارًا... فلم أجد سوى ذكرياتكِ تلاحقني! يا لِكرهة رائحة اليأس، وضياع الخطى، وانكسار الروح... جلستُ على الأرض مهزومًا، منكسر الخاطر، حتى اقترب مني رجل، تبدو عليه معالم التحضر... لكن قلبي لم يصدق ذلك!

قال لي الرجل بصوت هادئ لكنه عاتب: يا بُني، لماذا لا تعمل؟ لمَ تمد يدك للناس؟ التسوّل عارٌ على صاحبه، يُسيء لسمعة المجتمع، يُعكّر صفوه، ويشوّه صورته... يجعلك في صورة المحتاج الذليل.

نظرتُ إليه بصمتٍ وابتسمتُ ابتسامة باهتة، ثم عدتُ إلى منزلي مثقل الخطى... وقفتُ أمام المرآة أحدّق في وجهي طويلًا، وقد خُلق الإنسان في أحسن تقويم، وكأنني أبحث عني ولا أجدني!

تمدّدتُ على سريري، أرهقني التفكير حتى سكن كل شيء حولي. وبعد ساعة من صمتٍ ثقيل... انفتح التلفاز من تلقاء نفسه! حدّقت فيه مذهولًا، ثم التفتُّ يمينًا ويسارًا، وهمست لنفسي: "لعلها العجوز... ربما جاءت، وهذه فرصتي لأسألها عن هناء." نهضتُ بسرعة وخرجت من غرفتي، أبحث عنها بجنون... فتّشت بين الغرف، في الحمام، في الزوايا، حتى رفعت بصري نحو الأسقف... لا أثر لأحد! صرخت بحزن ممزوجة بالتحدي: أنا هنا! أين أنتِ أيتها العجوز؟ أيتها السوداء... أين هناء؟!

سمعتُ صوتًا خافتًا، همسًا يتسلّل من خلف الباب: موجودة... ارتجف قلبي للحظة، لكنني شددت من عزيمتي، واقتربت من الباب ببطء وحذر، يدي على المقبض وعيناي تتأهّبان لأي طارئ. فتحت الباب... لا أحد. لا ظلّ ولا طيف. الفراغ وحده يحدّق بي.

عدتُ وجلست على مكتبي، وضعت رأسي بين يديَّ، والحنين في داخلي يتدفّق كالدم، لا يهدأ ولا يتوقف. وكأنكِ تسكنين أعماقي بقوة لا ترحم...

"ذكرياتكِ" لا تزال حية، مثل قصة لا يقدر الزمن أن يمحوها. تمر في قلبي مثل الكلمات، وتُروى كأجمل الحكايات. يومًا ما ستكونين بطلة قصتي، التي أنقذتني من الحزن. ذكرياتنا الجميلة لا تموت، فهي تعيش في قلوبنا وتمنحنا القوة دائمًا.

وكأن "طيفكِ" يقف أمامي الآن... عيناه دامعتان، يتشبث بي كطفلٍ انتُزعت أمه من بين يديه فجأة. رغم الألم الذي يعتصرني، ذلك الألم الذي يغرس مخالبه في حياتي بلا هوادة... تبقين أنتِ. تبقين هناء... وتبقى أيامكِ أجمل أيامي. وكأنها أيامٌ حُسنها ثابت لا يزول.

ولأنني لا أملك القدرة على كتابة كل ما أتمناه... فقد كتبتكِ بمداد الأيام التي مرت دونكِ. وأنا ما زلت هنا، على ذات العتبة، أعلّق قلبي على احتمالات الرجوع... وأتوق... بل أؤمن... أن عودتكِ قريبة، فإن مع العسر يُسرًا.

لأنكِ...

النور حين يعمّ الظلام،

والحرف الذي يملأ فراغ الكلام،

والقصيدة التي يزدهر بها الغرام،

أقولها الآن بلا تردد، بلا مواربة:

أحبكِ...

بكل ما في الحب من حياة،

وبكل ما في الحياة من حب.

أيّ ثمنٍ أدفعه، لأشتري به

يومًا قضيناه سويًّا؟

ليت أوّل عناقٍ بيننا،

كان نهاية قصّتنا...

ليُكتب (وعاشوا في سعادةٍ مدى الحياة)

ثملتُ بكِ...

وواصلتُ حياتي مترنّحًا!

المطر الذي عرفته يومًا مهذبًا لم يعد يستأذن قبل أن يهطل، أصبح ينقضّ على الأرض بشراسة، يغمر الطرقات والشوارع بلا رحمة. منذ أيام لم أر وجه الشمس الخائفة، السماء تكتسي غيومها كسواد ثقيل لا ينقشع.

وكأن الأمطار قررت أن تسجنني بين الجدران، حاولت الخروج عبثًا! المطر لا يأبه بي، ينهمر بعناد، يغسل كل شيء سوى قلبي العطش. أمطرت السماء وارتوت الأرض، فماذا عن قلبي يا الله؟ متى يرتوي هو؟ ومتى ينقشع غيمه؟

جلست على مكتبي أحدّق في تلك الأوراق المبعثرة أمامي، كم بدت مملة الكتابة اليوم! رغم يقيني أنها متنفسي الوحيد. ما إن خططت الحرف الأول حتى اجتاحني الإرهاق، ومع رابع كوب من القهوة بدأت أتثاءب بتثاقل. نظرت من جديد إلى أوراقي فرأيت فيها انعكاس يأسي، وكم كان غريبًا أنني لا أتذكر حتى طعم القهوة التي شربتها... وكأن الحروف استهلكتني قبل أن أكتبها!

فتحت التلفاز فإذا بأغنية "طلال مداح" تتسلل إلى مسامعي، تلك الأغنية التي لم تغادر ذاكرتي يومًا، ولا فقدت منها حرفًا واحدًا.

جلست أستمع وكأن الزمن يعود بي إلى الوراء، لا أعلم حقًا؟ أكان يقصدكِ بكلماته أم يقصد تلك التي أسرتني قبلك؟ الكلمات تنساب وكأنها كُتبت على مقاسي، على وجعي، على حنيني.

تـصـدق والا أحـلـف لك

عجزت بلساني أوصف لك

نـعيـم الـحب في وصـلك

وأنت كـريم مـن أصـلك

وشـوف قـلبي على يدي

وهـوه أغـلي مـا عنـدي

جلست على الأرض أبكي كطفل مكسور، مغمور بالعجز، ثم نهضت مترنحًا واتكأت على حافة المغسلة، أفرغت كل ما في جوفي بقرف ومرارة، وكأنني أتمنى لو أنني أتسرب مع هذا السيل القذر، وأُلقى إلى مجاري العمارة، فينتهي كل شيء دفعة واحدة. كأن الأرض يومئذ تحدث أخبارها!

يا لضعفي... ما كان يجب لأغنيةٍ مرّت صدفة أن تفتح الأبواب المغلقة. لكنها فعلت! ببساطةٍ موجعة، حملتني إلى حيث كنتَ، إلى هناك، حيث ضحكتكِ تسبقكِ، وملامحكِ لم تبهت بعد.

كأن كل شيء عاد في لحظة: صوتكِ، نظراتكِ، ارتباكي، وذاك السلام الذي لم أعد أملكه منذ غبتِ.

أيتها الآسرة ...

الحب يعلّمنا التطرّف في كل شيء، يجعلنا نرى العالم بلونين فقط. عندما كنتُ أقول لكِ: "إنكِ أجمل ما رأت عيناي"، كنتِ تبتسمين بخجل، تظنينها مجرد غَزَلة عابرة، بينما أنا، أقسم أنني لم أكن أرى في الدنيا كلها شيئًا يُضاهي جمالكِ في عيني.

كنتِ معيار الجمال، ومقياس كل الأشياء. وعندما رحلتِ، لم يبق لي سوى ميزانين أقيس بهما كل ما حولي "إما كفر مطلق أو إيمان كامل". لا منطقة رمادية، لا احتمالات وسطى، فإما أنتِ أو الفراغ.

هناء ...

التردد في الحب يشل القلب كما يشل المرض الجسد، ولم أتخذ قرارًا في حياتي أصعب من قرار أن أحبكِ. ليس لأنني كنت متهورًا أو متعجلًا، بل لأن هذا القرار الوحيد الذي اتخذته تحت سطوة يقين داخلي يعترف أنكِ الأجمل خلقةً وفطرةً.

كنتِ قدرًا لا يُقاوَم، واختيارًا لا يُرد. وعند رحيلكِ، لم يبق لي من أحكام الدنيا سوى اثنين: "قريبٌ يذكّرني بكِ فأحتضنه، وبعيدٌ يسرقني منكِ فأجحده". كل الأشياء بعدها فقدت ملامحها، وكل المسافات لم تعد تقاس إلا بمدى اقترابها أو ابتعادها عنكِ.

اتصل بي سلطان يدعوني لحضور زفاف أخيه، كانت مناسبة هادئة أنيقة، لم يتجاوز عدد الحضور مئة رجل. حين وصلت، التقيت بسلطان، مبتسمًا مرحبًا بحرارة، وما إن تبادلنا التحية حتى انطلقت أبواق الفرقة الموسيقية تعلن بفرح قدوم العريس، مصطحبة الجميع نحو ساحة الاحتفال. تقدمت لأُسلّم على والد العريس، وقد ارتسمت على وجهه ملامح سعادة خالصة، فرحة رجل يشهد عرس ابنه، حلمًا طال انتظاره وتحقّق أخيرًا.

رأيت ذلك الرجل المسن، الذي أخبرني سلطان قبل قليل أنه كان يتمنى أن يكون العريس نصيب ابنته. كان واقفًا على الطرف، ينظر بعينيه نظرات جانبية منخفضة، يملؤها الأسى، يصحبها ضمّ شفتيه واعوجاجهما بين الحين والآخر، وكأن مرارة الخيبة تثقل ملامحه أكثر مما يحتمل.

وبعد نصف ساعة، أمسك سلطان بيدي وقال بحماس: هذا هو أشهر الفنانين، يُلقب بـ شبح الأرض، مغنٍ ومحيي سهرات طربية، ويُعد من نجوم الصف الأول في سوق فناني المناسبات.

اقتربنا منه وسألناه عن حقيقة طقوس الزار، فابتسم ابتسامة العارف وقال بصوت خافت كأنه يفضي بسرّ خطير: الزار مجموعة من الطقوس الشعبية، أشبه بطقوس سحرية قديمة. لها رقصات وعبارات خاصة، تصاحبها دقات دفوف صاخبة مع إطلاق كثيف للبخور. في هذه اللحظات، تتلبس الشياطين بالبشر وهذا أمر ثابت لا ينكره أحد من أهل الخبرة.

هؤلاء الشياطين يحضرون أثناء الطرب وعزف الموسيقى، بل إن بينهم من يُسمون الجن الراقصون، الذين يطربون على أغانٍ معينة، وأحيانًا يطلبون بأنفسهم أغنية بعينها، بل قد يرددون كلمات القصيدة كاملة ويطلبون تكرارها، لأنهم ببساطة يعشقونها.

بدأت الأجواء تغمرها رائحة دخان البخور الكثيف، وكأن الضباب تسلل خلسة إلى المكان. شيئًا فشيئًا، تجمّع بعض الأشخاص وقد ارتدوا جميعهم ملابس متشابهة بألوان موحدة قاتمة، وكأنهم فرقة خرجت من باطن طقس غامض.

تحركوا جميعًا في دوائر، يرقصون بشكل هستيري، أجسادهم تهتز بلا توقف على وقع دقات طبول صاخبة تتداخل مع أغاني غريبة، أنغامها مبهمة لا تدري إن كانت تهويدة سحرية أم أنين قادم من عالم آخر.

لم أستطع أن أفرق، هل هؤلاء الراقصون رجال أم نساء؟ ملامحهم اندمجت في عتمة الجو ووهج البخور، أصواتهم خرجت بنبرات غير مألوفة، وكأن الأرواح نفسها صارت ترفرف حولنا، ترقص معهم على أنغام مجهولة!

وفجأة، وسط هذا الطقس الغريب، تعالت زغاريد حادة، سرعان ما تحولت إلى صرخات مكتومة امتزجت بدقات الطبول، وكأن الأرض من تحتنا تنبض مع كل ضربة.

العيون حولي لم تعد طبيعية؛ توسعت الحدقات، وامتلأت نظراتهم بشيء بين السُكر والنشوة والرعب المقدس.

ثم رأيت واحدًا منهم يسقط أرضًا يرتجف بقوة، فاجتمعوا حوله، يرددون عبارات غير مفهومة، تتسارع كلماتهم وكأنهم يستدعون شيئًا. يداه ارتفعتا بلا وعي، وابتسامة عريضة شقّت وجهه بتشوه غريب. للحظة، أقسم أنني رأيت ظلًا أسود يتسلل خلف ظهره ويذوب داخله كما يذوب الحبر في الماء! فكأنما يصعَد في السماء.

كل شيء صار يضيق حولي، رائحة البخور تخنقني، الأصوات تدوي كطعنات في رأسي، والهواء امتلأ بطعم معدني غريب. أردت أن أصرخ، لكن صوتي ابتلعته رهبة المشهد. لم أعد أعلم، أأنا بين بشر أم وسط كائنات خرجت من طقوس قديمة لم يكن يُسمح للناس أن يعرفوها؟

رجعتُ إلى صالة القاعة، وقابلتُ صديقي عبد الله، وقلتُ له: لماذا لا تذهب وتشاهد العرض؟ فقال: لا يروق لي. أنتَ، كيف حالك؟ وما جديدك؟

فقلتُ: الحمد لله، حالي أممم... ماشي.

فقال: احكِ لي ما حدث.

فقلت: هل لديك وقت لتسمع ما حدث؟ إذن، فلنذهب إلى مقهى قريب وأروي لك كل شيء.

فقال: حسنًا.

وصلنا إلى المقهى، وكان هادئًا يحتوي على تسع طاولات، ويعتمد على البساطة في تصميمه. جلسنا في زاوية المقهى المطلة على الشارع العام. طلبتُ شايًا، وطلب عبد الله قهوة. تنهدتُ وبدأت أحكي له قصتي، وهو يهز رأسه مستمعًا. ثم ارتشف قهوته وتغيرت ملامح وجهه. سألته: ما بك؟

فقال: لا شيء، أكمل حديثك.

أنهيتُ حكايتي، ثم طلب عبد الله من النادل فنجان قهوة آخر وقال مبتسمًا: كرمًا، قهوة سادة بسكر مضبوط... "بدون ملح". ابتسم مرة أخرى وأضاف: الفنجان الأول يبدو أنهم أخطأوا ووضعوا ملحًا بدل السكر، وما أحببت أن أقاطعك أثناء حديثك.

ثم تنهد وقال: قصتك غريبة جدًا، المهم أنك بخير الآن. اسمع يا عماد... لكل شيء بداية ونهاية. ومؤلم أن تخسر شخصًا لم يخطر ببالك يومًا أن تخسره، أو أن تستيقظ على واقع لم تتمنَّه قط. سواء كان الفراق من أهل، أو أصدقاء، أو حبيب - مهما اختلفت المسميات - فالألم واحد.

إن ما ذكرته يُعد من حقائق الحياة المسلّم بها، فلا ينبغي أن نقف طويلاً ونتساءل: لماذا؟ بل علينا أن ندركها بوعي ونُسلّم بها، لا أن نجلس نبكي على اللبن المسكوب كما يقولون.

حان الوقت لأن تنهض، وتتخلص من كل ما يزعجك... لا تضيّع وقتك في الإحباط واليأس. ابتسم عبد الله وهو يهز رأسه موافقًا، وكأن كلماتي وجدت طريقها إلى أعماقه.

فقلت: وهناء.

فقال: هناء كانت سببًا في إنقاذك بعد فضل الله، ولا تنسَ أنها ليست من جنسك ولا من عالمك، ولا تنسَ أيضًا أن العبث مع الجان ليس أمرًا هيِّنًا... لقد نجوتَ بأعجوبة في المرة الأولى، فلا تكرر المجازفة.

اتصل سلطان قائلًا: أين أنتم؟ العشاء جاهز وقد وُضع على الطاولة. فقلت: حسنًا، دقائق ونكون عندك.

عند وصولنا، جلسنا على طاولة الطعام وكانت مليئة بالحضور. وأثناء تناول الطعام، قال أحد الجالسين: كان هناك رجل من الأعيان استغفله دجال، أوهمه بأن في بيته كنزًا لا يُفتح إلا بوجه ابنته، ثم غافله وأخذ ابنته وماله وهرب بهما.

ثم قال رجل آخر: للدجالين فراسة قوية، قد تمرّسوا فيها كل التمرّس. ينظرون إلى الشخص، فيقرأون ملامحه ويعرفون مقدار ذكائه أو غفلته، ويُميزون سريعًا إن كان ممن يُمكن أن يُخدع أم لا، ومن أي زاوية يمكن التسلل إليه. ثم ينصبون شِباكهم بدقة، مستغلين ما أدركته فراستهم.

والمغفلون والمستغفَلون أنواع؛ فمنهم من يسهل خداعهم لسذاجتهم وضعف عقولهم، ومنهم من يصعب استغفاله لقوة فطنته وحكمته، لكنه قد يُبتلى بمن هو أمكر وأدهى منه، فلا يزال يلتف عليه بالحيل حتى يُوقعه في الفخ. ثم قال رجل آخر: ولماذا لم يتصل بالجهات المختصة حينها؟

استيقظت صباحًا، غسلت وجهي، وخرجت إلى عملي. جلست على مكتب الاستشارات الذي أُعِين فيه الآخرين، رغم عجزي عن إعانة نفسي. تذكرت حينها قصة امرأة كانت تزورني بين الحين والآخر، تثير كثيرًا من الجلبة والضوضاء حتى تتمكن من مقابلتي، ثم تطلب استشارة قانونية وتغادر.

كنت ألاحظ دائمًا أنه عندما أبدي لها رأيي القانوني، تقول: نعم، هذا ما قاله لي بعض المحامين من قبل، وكنت أكره ذلك الشعور حينها.

الحقيقة أن عندي مشكلتين واضحتين؛ المشكلة الأولى: أنني لا أُقدِّم أي استشارات قانونية في قضية يوجد بها محامٍ موكَّل بالفعل، احترامًا لمهنة الزملاء، وتجنُّبًا لأي تداخل غير محمود.

أما المشكلة الثانية: فهي مع الأشخاص غير المنضبطين في مواعيدهم، وكأنني كما يقول أصدقائي ساخرين ساعةٌ سويسرية دقيقة لا تتأخر ولا تتقدَّم.

وفي إحدى المرَّات ذكرت جزئية استوقفتني، وأخذت تسأل وتجادلني بها ثم انصرفت. وبعد فترة، وفي أحد الأيام، زارني صديقي - وهو موظف في إحدى الشركات - وحكى لي عن امرأة أتت إليهم وكان لديها مشكلة مع الشركة. رفعت صوتها وبدأت تهددهم، ثم أعطتهم بطاقة تعريف وقالت إنها المحامية فلانة بنت فلان.

وعندما أخبرني صديقي بالموقف وبمواصفات السيدة، عرفتها على الفور، وأدركت لماذا كانت تأتي إليّ وتذهب إلى غيري. كانت تُقدِّم نفسها على أنها محامية وتنصب على الناس، فتأخذ حلول قضاياهم من مكاتب الاستشاريين، وتدّعي أنها من وضعتها.

لكنها اختفت منذ فترة ولم نعد نسمع عنها شيئًا. ولهذا، لا بد من توخي الحذر وعدم الوثوق بأي شخص إلا بعد التأكد من هويته وصدق عمله، لأن هناك كثيرين يدّعون أنهم محامون، وهم في الحقيقة غير ذلك.

سماع الناس وتقديم الاستشارات أمر ذو حدين أم أن تتضحك أو تخاف المستقبل. ذات يوم حضرت لي إمراه تحكي قصتها عندما كانت تبلغ التاسع من عمرها، انفصل والديها عن بعض، والدها سافر إلى اليمن ووالدتها تزوجت من رجل آخر، وكان نصيبها أن تسكن مع جدتها وكانت متعلقة بوالدها كثير وبعد أشهر قررت أن تذهب لوالدها وبعد حصة "مادة الجغرافيا" ورجوعها من المدرسة، أخذت علبة تمر، وقارورة ماء، وفتحت الكتاب على خريطة اليمن، وبدأت "الرحلة"...

وانتهت بساعات عندما وجدها أحد الجيران في الحارة المجاورة من منزلها ضائعة تبكي، واعادها إلى منزل جدتها ثم مسحت دموعها وقالت: أريد والدي الذي لم أره منذ سنين وتوفي قبل يومين.

وأخيرًا، اتصلت بي أخرى، وصوتها يحمل ثقل الحزن والذهول، تحكي أن ابنها، الذي لم تتجاوز أعوامه الخامسة والعشرين، قد ذبح والده على سجادته، متجهًا للقبلة، في أول أيام عيد الأضحى، والسكين لا تفارق يده، والسبب موجعٌ كسم في القلب: تعاطيه "مادة الشبو" التي أضاعت عقله، وجعلت من عيد الفرح مأساة لا تُنسى.

وكان سؤالها: هل ينفع أن تذهب للمحكمة وتكتب تعهدًا وإقرارًا بأن ولدها قد تاب ولن يفعل ذلك مرة أخرى، فيقوم الشيخ بإطلاق سراحه؟

اللهمَّ ارحم ضعفي، ولا تجعل للشتات مكانًا في قلبي وفكري. اللهمَّ اجعل مكان قلقي راحةً، ومكان خوفي طمأنينة، ويسِّر لي أموري، ما كَبُر منها وما صَغُر.

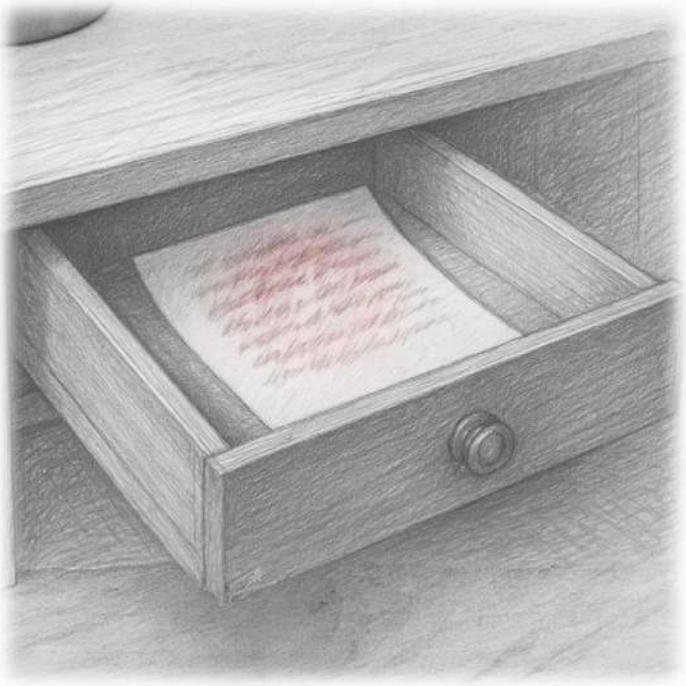

فتحتُ درج مكتبي، فوجدتُ "رسالة" تجمعني بكِ، أيتها الآسرة، فعادت بي الذكريات إلى ماضٍ نقضتِ عهده. ربما أحببتكِ أكثر مما ينبغي، وربما ضحيتُ لكن في الاتجاه الخاطئ، وربما أهدرتُ كثيرًا من الوقت في الانتظار وكأنكِ "صفقة فاشلة".

فالخطأ خطئي، لأني وضعتُ كل مشاعري في موقدكِ بينما كنتِ تتلذذين بإحراقها.

أعلم أني كنت سيئًا في بعض الأحيان، وأعلم أني سقطتُ من عينكِ ولن تعودي ولو فرشتُ الأرض وردًا. لهذا استودعتكِ الله، لعل الله أن يأتي بكِ. ليتني أستطيع إعادة الماضي لتعديل خطأ ارتكبته ولا زلتُ أتألم منه.

هل تعلمين أيتها الآسرة أنهم أثقلوا كاهلي بقولهم إن حبنا كان من طرف واحد؟ وأنا لا أهتم، فقد أحببتك حب الطرفين معًا.

جاءني اتصال من رقم غير معروف، رددت وقلت: نعم... فلم يتكلم أحد. أغلقت السماعة، وبعد دقيقة خطرت ببالي هناء، فقلت: لعلها هي من اتصلت.

حاولت الاتصال على نفس الرقم، لكن الهاتف أبلغني أن الرقم خطأ! كررت المحاولة، لكن النتيجة ذاتها... الرقم خطأ! شعرت حينها أن قلبي يسابق أنفاسي، وإذا العِشار عُطّلت، وكأن الأمل هرب من بين يدي.

ثم جاء كوب القهوة، نظرت إليه فإذا بصورتكِ، يا هناء، ترتسم على سطحه بهدوءٍ عجيب. ابتسمت ابتسامة باهتة، وارتشفت منه رشفة صغيرة، لعلها تسكن معدتي بعدما غِبتِ عن قلبي... وفي كلّ رشفة، أجد طيفكِ ينبعث، يذكرني أن الحبّ أعمق من الوجع، وأن الغياب هو حضورٌ بأشكال مختلفة.

وكأن للقهوة قلبًا لا ينبض إلا بكِ دفء الرشفة تسلل إلى عروقي، تمامًا كما كنتِ تفعلين حين تمررين أطراف أصابعكِ على عنقي.

كان طعمها يشبه طَعم قُبلتكِ الأولى... مُرّة لكنها توقظني للحياة، سوداء لكنها تفضح بياض شوقي إليكِ.

تمنيت في تلك اللحظة أن تكوني بخير، كما كنتِ دائمًا بخيرٍ من أجلي، حين ملأتِ حياتي بهذا الكمّ الهائل من الحنين.

وجُعل بيننا مودة ورحمة؛ كنتِ الحضور حتى في الغياب، والطمأنينة حتى في الحيرة، والنكهة التي لا تفارق روحي، وإن ابتعدتِ عن مرآي.

تتوالى الشمس في إشراقاتها ومغيبها،

لكنّي مازلتُ عالقًا في حضنكِ

منذ آخر عناق.

مازالت دقّات قلبكِ تنبض بين أضلعي،

وكأنها تحاول إنعاش قلبي،

في كلّ مرةٍ يتضاءل فيها نبضه.

سيعوضني الله بكل شيء مررتُ به سابقًا.

وبعد أشهر وجدت رسالة على مكتبي مكتوب فيها:

قد أحببتكَ بشدة، بكل ما في قلبي من صدق وعُمق. أتذكر حين قلت لك: "إنك نقطة ضعفي"؟ نعم، قلتها وأنا أعنيها؛ لأنني أحببت إنسي... وحبي لك كان كعملية جراحية بلا تخدير، موت مؤكد من شدة الألم، ومع ذلك قُلتها وأنا أعلم يقينًا أنني سأعاقب يومًا على هذا الحب، لكني تماديت... تماديت لأنني وجدت فيك كل ما أحببته يومًا. رأيتك رجلًا نبيلاً، شجاعًا، ملهمًا، رغم قسوة آلامك التي لم تزدك إلا وقارًا في عيني. ويكفيني أنني كنت يومًا ما حبيبة لكاتب... حبيبة لحروفك التي لا تموت.

غدًا، في منطقةٍ قصيّة من شمال إفريقيا، سأقف أمام محكمتي الأخيرة... على قمة الجبل، حيث تنعقد محكمة ملك ملوك الجن على الأرض، المحكمة التي تفصل بين نزاعات الإنس والجن. سأحاكم بتهمة الخيانة، أمام "شمهروس"، ملكُ وقاضي قُضاة الجن، وأحد مُلوك الجن السبعة، أكبرهم سنًا وأكثرهم بطشًا وحكمة. لا أدري إن كنتُ سأنجو من هذا المصير، فالحكم عندهم لا يعرف رحمة ولا رجوع، والخيانة لديهم أعظم الكبائر.

ولكن... يكفيني أنكِ بخير. يكفيني أنني أحببتك بصدق، مهما كان ثمن هذا الحب. وإن كان الغد يحمل نهايتي، فلتعلم أنك ما كنتَ يومًا خيانةً لقلبي، ولا خذلتُ العهد الذي قطعته لك.

شعرتُ "بالاختناق"، أخذتُ نفسًا عميقًا، وسجدتُ لله داعيًا، وبكيتُ بحرارة. ماذا أفعل؟ ولماذا أحببتُ امرأةً لا أملك حق الدفاع عنها؟ ليس الذنب ذنبكِ أن تعاقبي بسببي، وإنما الذنب ذنبي؛ لأني لم أستطع أن أحميكِ.

ليتني أستطيع حضور الجلسة، لأترافع وأدافع عنكِ، ليت القاضي "شمهروس" يحكم عليَّ بدلًا منكِ. ليتني أنا من يقف في موضع الاتهام، ليتهم يأخذون روحي فداءً لكِ؛ فكل ما فيَّ فداء لامرأة علّمت قلبي الحب ثم رحلت مُكرهة.

يا الله، لا تتركها وحدها، إني أُشهدك أنك تعلم أني ما أحببتُ إلا بصدق، وما تمنّيتُ لها إلا خيرًا. رفعتُ رأسي من سجدتي، مسحتُ دموعي بيد مرتجفة، ونهضتُ ببطء وكأن الأرض تميد بي. ليس لي حيلة إلا الدعاء، ولا ملجأ لي إلا الله.

حاولت أن أشتت نفسي، فعكفتُ على الكتابة ليل نهار، أنام على أوراقي وأصحو على مسوَّدات الحزن. ظلّت على قلبي غمامةٌ سوداء ثقيلة، لكنها بلا مطر؛ حُرقة وحيرة وعجز يسكنني، وضميري أصبح كطفل أبله يعاني من اضطراب التعلُّق.

بكل سواد الدنيا أشعر بالحزن، وكأن قلبي يقود جنازته بنفسه! إن لم تعودي، فلن يوقف هذا الانهيار شيء، سوى الموت.

- لماذا جاء نصيبي من الحزن بهذا الشكل؟

كأن "الأقدار" حين وزّعت الأحمال، ألقت بكامل ثقلها على قلبي وحده، دون أن تترك لي فسحة للهواء أو استراحة للمضي قدمًا.

كأن "الحزن" خُلق قبلي بقرون، ثم انتظرني صابرًا حتى وُلدت، ليضع يده على كتفي ويهمس: كنتُ في انتظارك يا صاحبي فمنذ ذلك الحين، لم يفارقني، ولم أفلت منه.

ومنذ "فراقكِ" تحديدًا، صار يسير بي في طرقٍ لا ضوء فيها، يلقنني لغة الانكسار، ويسقيني مرارة الأيام قطرةً قطرة، حتى صرت أعرف طعم الدمع أكثر من طعم الماء، وأحفظ ملامح الليل أكثر من وجوه الأحبّة.

ومن العجز ما قتل ...

لا شيء أصعب على الإنسان من شعوره "بالعجز"، كل شيء قد يهون إذا امتلكت القدرة على التعامل معه أو مع تداعياته، لكن المشكلة تبدأ حين تجد نفسك خاليًا من أدوات المواجهة والفعل ورد الفعل، متحصنًا خلف قواعد دفاعك الهشة، لا تملك سلاحًا تقي به نفسك وأحبابك، وما أنت إلا عرضة لهجمات الحياة وتجاربها التي تنهشك بلا رحمة، فتشعر أنك عارٍ أمامها تمامًا، بلا حول ولا قوة.

الشعور بالعجز موت في حد ذاته، لكنه ليس كأي موت؛ بل هو موت بطيء مؤلم، يقتل روحك رويدًا رويدًا، ويشل جسدك خليةً خلية، حتى تغدو كهيكل بلا نبض، وكأنك عجوز أنهكته السنين، عاجز عن كل شيء، لا يقدر على الحراك ولا على الكلام، ولا حتى على البكاء. إنه احتضار صامت، لا يراه أحد، لكنه يمزقك من الداخل دون أن يشعر بك أحد.

الانتظار ضيفٌ مربك، متسلّط في حضوره، يرتدي ساعةً معطّلة، بلا دقائق تُعدّ ولا ثوانٍ تُحسب؛ يأتي ليقتل الوقت بدمٍ بارد، كأنه لا يعرف الرحمة. أوكلتُ إليه اللقاء، فاستوطنني، وكأن ألف عام مرّت، وأنا أخوض حربًا لا تُطاق من الصبر؛ حربًا تنهش أعصابي وتُهدر روحي، فيما الدقائق تنهار على صدري كجبال لا هوادة فيها، والآمال تتآكل كالورق المهترئ تحت مطرٍ ثقيل من الترقب.

كالطفلِ أحملُ أحلامي البريئة، ما زلتُ أنتظر رسالتكِ، وأظن أنكِ بخير. لا يكفيني أن أُحدثكِ كل ليلة بما يجول في خاطري، متخيّلًا أنكِ تسمعينني وتبتسمين بصمت، كأنكِ هناك، رغم البُعد الذي يثقل بيننا. في كل كلمة أرسلها، أزرع بذور أمل، علّها تنمو وتصل إليكِ، فتخفف قليلاً من وجع الانتظار.

وكأن "فراقكِ" لم يُعلّمني النسيان، بل علّمني كيف أحتضن الغياب كمن يحتضن السراب، وكيف أُطيل الحديث مع ظلٍّ لا يردّ.

ما أثقل هذا الفراق حين يصبح أليفًا يسكن الزوايا، وحين تذبل الأيام وأنا أنتظر حضورًا لا يعود.

كنتُ أنتظركِ بلهفة يعقوب، لا حين عاد إليه يوسف، بل حين أُخذ منه. حين نظر في وجوههم ولم يجد فيهم وجهه، حين عادوا بقميصٍ لا يشبه دفء ابنه، حين انكمش صدره على قميص الحنين، وقال: "إنما أشكو بثي وحزني إلى الله".

كنتُ هكذا، أعيش غيابكِ كما عاش يعقوب كل مساءٍ بلا يوسف، لا أعوّل على الزمن، ولا على الأمل، بل على المعجزة التي تأتي من حيث لا نحتسب. وكنتِ كلما مرّ طيفكِ، رائحة قميص، أو وهجُ ذكرى، عاد بصري للحظة، ثم فُقِد.

أخبريني أيتها الشواظ

كيف اللقاء رغم الاختلافات التي لدينا؟

فلا الدنيا تجمعنا، ولا بالأجناس أو الاوطان أمل للقائنا!

غريبة عنى خلقة وفطرة،

ولكنكِ مني!

جالت بنا الأقدار بكل ما فيها، حتى لا نلتقي...

فإني أراكِ بعيون قلبي، فهي لا تغفى ولا تنام كأعيننا!

انقطعت الكهرباء، وغرقت في ظلام دامس. حاولت التحرك فلم أستطع، وكأن أطرافي مقيدة. ستة أصوات خاطبتني دون أن أرى أصحابها، خيالات غامضة تتحدث بكلمات مبهمة، لا أعلم إن كنت مستيقظًا أم عالقًا في كابوس.

صرخت: ابتعدوا عني، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. كان غضبهم يزداد كلما ذكرت اسم الله، فراحوا يخنقونني بالوسادة ويصفعونني على وجهي. ظللت أردد: أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وشر عباده، فزادوا عذابي، وأطبقوا الوسادة على فمي ليكتموا أنفاسي.

قالوا: أنت مطلوب (بمحكمة الجان) بتهمة الضرب العمد للعجوز. فجأة وجدت نفسي في مكان آخر، جالسًا على كرسي، أطرافي مكبلة وكأنها بسلاسل.

على يميني صف من الخيالات يتشاورون بلغات وتمتمات غير مفهومة، وعلى يساري العجوز. أمامي رجل بلباس أبيض، مهيب الوقار، هو الوحيد الذي رأيته بوضوح. بدأ يسألني: لماذا ضربت العجوز؟

أجبته: وقفت أمام منزلي على هيئة قط ومنعتني من الدخول، فأخذت عصًا لطرده، لكنه كان يصعد عليها وينزل مستفزًا، فغضبت وضربته على رأسه.

سألني: هل ذكرت اسم الله قبل أن تضربها؟

أجبته: نعم.

صرخت العجوز قائلة: كاذب وفاجر. فضرب القاضي بمطرقته وقال: لا تتكلمي حتى آذن لكِ. ثم نظر إليَّ وقال: أتحلف اليمين الغموس؟ قلت: نعم، وأقسم أني صادق.

سألني بنبرة حازمة: لماذا حرقت أطفالها؟

أجبته بثبات: لم أحرقهم، هي تعمّدت البقاء في منزلي عالة وانتقامًا، ومارست السحر دون إذني، وهو من السبع الموبقات. فتحتُ إذاعة القرآن الكريم فاحترق طفلاها كما تدّعي. أنا مسلم، وهذا منزلي، ولم أعتدِ عليها. لذلك، أطالب بردّ الدعوى لعدم استحقاق المدعية لما تدّعيه، والله على ما أقول شهيد.

فقامت العجوز بالصراخ، وأصدرت أصواتًا غريبة وعميقة من صدرها، فضرب القاضي مكتبه بمطرقته الحديدية بقوة وقال بنبرة حاسمة: "اصمتي أيتها العجوز، وإلا أخرجتكِ من المحكمة فورًا!"

ثم طرح عليَّ القاضي كثيرًا من الأسئلة، فأجبته على كل سؤال بهدوء وصدق. وفي النهاية صمت قليلًا، وبدأ يهز رأسه ويتشاور مع من بجانبه، واستمر النقاش بينهما لأكثر من ساعة. ثم قال بصوت واضح: "بعد التداول والتأمل، حكمت المحكمة "برد الدعوى". اذهب، فلن يمسك أحد بسوء."

بدأ الحاضرون يقفون ويصرخون بغضب، لكنني لم أستطع تفسير ما يقولون، وكأنهم يطالبون بقتلي أو إعدامي.

اقتربت مني العجوز وهمست قائلة: "لست في حلم، ولا حتى في كابوس، وآخرتك لم تأتِ بعد".

بعدها مباشرةً، وجدتُ نفسي في المنزل والإنارة مضاءة، وكأن شيئًا لم يكن. صحوتُ على رنّة هاتفي مستعيذًا بالله من هذا الحلم، نفثتُ على يساري ثلاث مرات، وتعوذت بالله من الشيطان الرجيم ومما رأيت ثلاث مرات. وسألت نفسي بحيرة: لماذا لم أسأل عن هناء؟!

تكوَّمتُ مثل أرنبٍ يرتجف في جحره، تلتف أفكاري حولي كأنها ظلالٍ مظلمة، أحاول جاهدًا أن أرتبها، لكنني ضعت في متاهة لا أدري من أين أبدأ.

- أيعقل أن لدى الجان محاكم للفصل في النزاعات بين البشر والجان؟

- أيعقل أن قاضيهم عادل وراشد وبالغ وعاقل كما حكم لصالحي؟

- وكيف يقال إن عقل الجني ليس كعقل الإنسان، إذ يُقال إن عقل الجني البالغ يعادل عقل طفل في العاشرة من عمره!

أكتب هذه الورقة وأنا يعتصرني الفضول والحيرة، وإصرار عجيب يدفعني للكتابة. ليست مجرد ذريعة لأثرثر على رؤوسكم، بل رغبة حقيقية في نقل الحدث وتوثيق كل ما يدور حولي الآن مع هذا العالم الآخر... كأنما كُشف عني الغطاء، فصار بصري اليوم حديد.

أوراقي ترتعش خوفًا وحزنًا مثلي تمامًا، وأقلامي أصبحت حبلى تلد حيرة فوق حيرة، وكل الأمور تتدحرج تدريجيًا نحو الأسوأ.

فالقضية ليست أبدًا بالسطحية التي قد تتصورها، لذا اعذرني على ما قد يبدو من تعقيد أو غموض.

هذا الصباح عاجزٌ، متعبٌ بالأشواق، لم أدرك معناه، وكأن فيروز اختصرته حين غنّت:

بشتقلك لا بقدر شوفك ولا بقدر أحكيك

بندهلك خلف الطرقات وخلف الشبابيك

كل الأشياء صارت تأخذ طابعًا استهتاريًا، وأشعر كأنني مريضٌ نفسيّ، رجلٌ لدغته الأحزان مرتين، للأسف.

تركتُ خلفي أوراقي اليائسة مبعثرة على المكتب، وأقلامي تتضور جوعًا وتتكشّف من البرد، وكأن ذنب اختفائكِ يصهرني صهرًا بطيئًا. لكنني، رغم كل شيء، لم أكن أملك سوى "العجز".

رحلة إلى قرية أبي صالح.

في يوم الأربعاء قررنا أنا وصديقي عبد الله زيارة أبي صالح، فحزم كلٌّ منا أمتعته وتوكلنا على الله. وبعد ساعات من الوصول، قابلنا الرجل الطيب أبا صالح، مبتسمًا مرحبًا، وقال: يا صالح، اذبح أطيب الغنم لضيوفي. تعشينا عنده، وكان الحديث متبادلاً وجميلاً حتى طلوع الفجر.

حينها سألت أبا صالح عن حال أهل القرية، فقال: الحمد لله، أيامٌ ومضت ونحن بخير. وعند رحيلنا، قبَّلت رأسه وقلت: (كان رسولُ الله ﷺ يقبل الهدية ويثيب عليها) رواه البخاري

فقال: صحيح.

فقلت: تقبل هديتي إذًا، فابتسم أبو صالح وقبِلها شاكرًا، ودعا لي بخير الجزاء.

أعطيته ظرفًا به ورقة مكتوب عليها:

والدي أبو صالح،

"لك مني تحية وإجلال تليق برجل من قوم كرام، رجل لا توفيك الكلمات حقك، فأنت حقًا عظيم في أخلاقك، واثق في خطواتك، رصين في فكرك، ناضج في عقليتك. شكرًا لك من القلب على وقوفك معي وأنت لا تعرفني، يكفيني فخرًا أنني عرفتك، وأسأل الله أن يجزيك عني خير الجزاء".

وفي الطريق سألني عبد الله: ماهي الهدية؟

فقلت: لماذا؟

فقال: مجرد سؤال ولا تنس أني صديقك الذي يحفظ سرك.

ابتسمت وقلت له: أعلم يا عبد الله، وأنت أخي قبل أن تكون صديقي، وسري في صدرك أمانة لا أخشى عليها الضياع. مبلغ من المال، وهو يستحق أكثر من ذلك.

فقال: كم؟

فقلت: خمسون ألف ريال.

فقال عبد الله: صدقت، أمثال أبي صالح عملة نادرة، لا تُقدَّر بثمن ولا تُعوَّض إن غابوا، وطيبهم يبقى أثره في القلب قبل أن يبقى في اليد.

فقلت: ما رأيك أن نمر على المشفى المهجور؟ لعلي أجد هناء.

فقال: متى تتوب؟

فقلت: نحن في النهار، ونمر مرور الكرام.

فقال: حسنًا.

وبعد ساعة، وعند الوصول، رأيت المشفى الذي نجوت منه بفضل الله ثم بفضل هناء. نظرت إلى مدخل المشفى والنوافذ، ولا أثر لوجود أحد. وكأن ذكرياتكِ شيء فوق الإرادة، وفوق القلب، وفوق المشاعر، وفوق الخوف؛ لهذا هي لا تُنسى. وداعًا حتى اللقاء القادم.

ركبت السيارة، وبدأت رحلة العودة، وعند الغروب أوقفنا السيارة لنصلي المغرب. رأينا من بعيد نارًا تتحرك من مكان إلى آخر، فقلت لعبد الله: لا تخف، إذا خفت منها ظهرت لك الذئاب والجن؛ لأنها تشم رائحة الخوف في الإنسان فتفترسك. ضحك عبد الله وقال: لا أخاف، اطمئن.

أذنت وكبَّرنا للصلاة، حينها انطلقت أصوات غريبة من الجهة اليسرى تشبه الأهازيج. أكملنا الصلاة وركبنا السيارة، وما إن مشينا إلا دقائق حتى توقفت سيارتنا بدون سبب واضح. سُمع صوت مزعج من المحرك. حاولنا إعادة تشغيل المحرك، لكننا فشلنا.

قررنا الخروج من السيارة والبحث عن مساعدة. ربما كان هناك منزل أو مزرعة قريبة، وربما كان هناك شخص ما يمكنه مساعدتنا.

رأينا منزلًا قديمًا مهجورًا، كانت نوافذه مكسورة وأبوابه متصدعة، وجدرانه متقشرة وسقفه مثقوبًا. كانت حديقته مليئة بالأعشاب الضارة والحطام. كان هناك شيء خاطئ في هذا المنزل، شيء مخيف ومقزز، شيء شرير. وقفنا أمام الباب الأمامي.

كنتُ مترددًا في الدخول، فسألتُ عبد الله: ما رأيك أن نرجع إلى السيارة؟

فقال: لا، لعلنا نجد هنا أحدًا يساعدنا.

فقلت: لا أتوقّع ذلك.

دفع عبد الله الباب برفق، فسمعنا صوت تَشَقُّق الخشب. دخل المنزل ونادى: هل هناك أحد؟ لكن لم يأتِ أي رد. شعرنا بريبة وخوف. كان المنزل مظلمًا ومتهالكًا. رأينا صورًا مقلوبة لعائلة سعيدة. سألت عبد الله: ماذا حدث هنا؟ ومن كان هؤلاء الناس؟

شعرت بأن شخصًا ما يراقبنا. التفتُّنا فرأينا طفلًا صغيرًا يقف في الزاوية. كان يرتدي ملابس ممزقة ويحمل دمية. نظر إلى عبد الله بعينين فارغتين، ثم بدأ يضحك بصوت مخيف. بعد ذلك رمى الدمية على الأرض، وهرب نحو الباب.

فقال عبد الله: ما رأيك أن نخرج؟

فقلت: أكيد.

خرجنا ومشينا أمتارًا، ونظرنا إلى الخلف فلم نجد المنزل، تعجبنا وقد ارتسمت الحيرة على وجوهنا. أكملنا المشي، والأمر الغريب وجود أحد يمشي خلفنا! تجاهلنا وأكملنا المشي حتى وصلنا سيارتنا، فتحنا كبوت السيارة فوجدنا عصا عالقة على مروحة السيارة أخرجتها وأدرت السيارة فاشتغلت، ركبنا السيارة، وأكملنا

رحلة العودة سقط علينا صمت وحيرة قبل أن ننظر لبعضنا، سألته: هل تظن ما أظن؟ قال: بالتأكيد منزل مهجور، وطفل بدمية مؤكد أنه جان.

وكأننا قد أخطأنا الطريق، لنجد أنفسنا أمام المشفى! نظر إليَّ عبد الله وقال: كيف ذلك؟ فقلت حينها: من الضروري أن نخرج من هنا وننتظر حتى الصباح، ثم نرحل. نظرت إلى الساعة، وما زالت تشير إلى الثالثة ليلًا. رأيت رجلًا يرتدي الأسود يجلس فوق مقدمة السيارة. قلت لعبد الله: أترى ما أرى؟ فقال: لا. نظرت مرة أخرى فاختفى! فقلت: ربما كنت أتوهم الأمر وتخيلت رؤية أحد.

بعد دقائق، ضُرِبت النافذة الخلفية للسيارة بحجر، فتكسر الزجاج. قلت لعبد الله: لا تخرج. بدأنا نقرأ آيات من القرآن حتى حل الصباح، ثم أكملنا رحلة العودة دون توقف حتى وصلنا. حينها تنهدت وقلت: الحمد لله، كان دينًا عليَّ لأبي صالح وقد سددته.

عند دخولي المنزل، وجدت رسمة النجمة الخماسية وعليها آثار دم وشعر على باب منزلي. دققت النظر في النجمة، فإذا هي مرسومة بدماء ممزوجة بمادة لزجة، تحيطها طلاسم غريبة ورموز مطموسة. قمت بتصوير تلك النجمة وأرسلتها لشيخ مختص بالرقية الشرعية. وما هي إلا دقائق حتى اتصل الشيخ وقال: سآتي الآن إلى منزلك، وإياك أن تدخل أو تدوس على تلك الرسمة. قلت: إن شاء الله، أنا في انتظارك.

بعد ساعة من الانتظار، حضر الشيخ، ونظر إلى تلك النجمة وقال: هذه نجمة إبليس، وتُستخدم لعمل السحر السفلي. ثم قام بقراءة بعض الآيات، ورشّ الملح الخشن عليها، ومسحها.

ثم دخل الشيخ المنزل، وجلس في وسطه، ووضع وعاءً من الماء، وأضاف إليه ملحًا خشنًا وقليلًا من المسك الأسود، وبدأ بقراءة القرآن. استمر في القراءة حتى تحركت النجفة، وسقطت منها قطعة جلد سوداء تحتوي على مسامير، وقفل، وشعر، وأظافر، وورقة صغيرة مليئة بالرموز والعلامات، وأشياء لم أعهدها من قبل.

بعد ذلك، قام برش الماء المقروء على أركان المنزل، حتى خرج من الحمام طفلان يبكيان. حاول الشيخ أن يتحدث معهما، لكن كلماتهما كانت غير مفهومة.

واصل القراءة حتى حضرت العجوز، فتعلّقت بسقف الصالة، تنظر إلى أطفالها الواقفين عند باب الحمام، ثم طلبت منهم الدخول مجددًا إلى الحمام.

سألها الشيخ: ماذا تريدين؟

فقالت: أهلك هذ الإنسي.

فقال: لا يجوز أذى أخيكم المسلم.

فقالت: سأحرقك وأقتلك، اخرج من هنا.

فقال: سأحرقك بآيات من القرآن الكريم، وبدأ بقراءة القرآن حتى صرخ أطفالها بالبكاء.

قالت العجوز: اصمت ولا تحرق أطفالي. تجاهلها مواصلًا القراءة، وبدأت العجوز تصدر أصوات عويل وبكاء، وتتحرك بين أركان المنزل بسرعة، بينما كان الشيخ مستمرًا في القراءة حتى نزلت العجوز إلى الأرض، ونظرت في عين الشيخ وبصقت، ثم أخذت طفليها وخرجت من باب المنزل، وهي تتمتم بالشتم والصراخ والتهديد.

وبعد الانتهاء، ابتسم في وجهي ثم قال: أنت بخير الآن، فهذا السحر من الكبائر والموبقات السبع، وقد ابتلاك الله به ليخفف عنك ذنبًا. لذلك أحسن الظن بالله، وتوكل عليه، والزم التحصين وقراءة القرآن، والمحافظة على الصلاة في وقتها. وعليك برش الماء المقروء لمدة سبعة أيام تذكرت حينها وقلت في نفسي: ليتني سألت العجوز عن هناء. لبثتُ بعدكِ أعمى عدة أشهر، مارستُ فيها صبري.

وبعد سبعة أيام من التحصين، خفتت الأصوات، واطمأنت النفس، وعمّ السكون أرجاء المنزل. كان الليل واحة هادئة... ملاذًا للتائهين، ونبضًا للصادقين، وأمانًا للخائفين، وموعدًا للمحبين، وكل ذلك كان مصفوفًا أمامي على مكتبي! لا تأتيك الأشياء كاملة، فأكملها بالرضا، لعل الله أراد لك خيرًا. واعلم أن العطاء قد يأتيك من الباب الذي تجرعت منه مرارة الحرمان.

أنتِ تفاحتي...

شهيةٌ كالفردوس، محرّمةٌ كخطيئةٍ لا تُغتفر.

أنا آدم، كلما اقتربتُ منكِ،

تذكّرت الوصية، واشتهيت النسيان،

فسقطتُ من جديد،

غارقًا في لهيب الهوى الممنوع.

أشعر أن "ذكرياتكِ وكتاباتي" ليست سوى خربشاتٍ يائسة على خريطةٍ لا تقود إلا إليكِ، فما من طريقٍ أسلكه إلا وتنتهي بي إلى حضوركِ. وكأن مصائري جميعها تجتمع عندكِ، كما تلتقي الأنهار في البحر.

بعد أيام، أغلقت نافذتي بشدة، وأوصدت باب منزلي تمامًا، ثم حملتني طائرة هاربة مع حقيبتي إلى تركيا. تركت خلفي أوراقي وذكرياتكِ. اتصلت بكِ، فكان هاتفكِ مغلقًا. أعلم أنكِ في آخر الدنيا، لكني لا أعلم: أنجوتِ أم لا؟

أكملتُ إجراءات الدخول إلى الفندق، وتسلّمتُ مفتاح الغرفة رقم (٩٩٦). سألتُ نفسي: لماذا أتيتُ إلى هنا؟ وما هذا السفر المفاجئ؟ فالوحدة ما زالت تأخذني من مكان إلى آخر!

دخلتُ مقهى قريبًا من الفندق، وطلبتُ كوبًا من القهوة وقطعة كعك. تنقّلتُ بينهما ما بين رشفة وقضمة، متأمّلًا في الهدوء الذي يخيّم على المكان، فلا يقطعه إلا قرع الجرس المعلّق على الباب حين يُعلن عن دخول أحدهم أو خروج إحداهن.

ومع وصولي إلى منتصف كوب القهوة، دخلت مسنّة على وجنتيها خطوط خضراء وتعاريج زمن كاد يفتك بها. نظرت إليّ بحدّة، ثم سحبت كرسيًا بجوار طاولتي وقالت: إن أردت قراءة طالعك فاقلب الفنجان.

ترددتُ متأمّلًا لقاءً بعد فراق، ثم قلبتُ الفنجان وصمتتْ دقائق، بعدها هزّت رأسها وقالت: "ستلبس الأبيض بعد أيام"!

ارتسمت على وجهي علامات الذهول، وزادت حيرتي: مَن ستلبس الأبيض؟ أخرجتُ بعض النقود وأعطيتُها، وكأنّي أقول لها: اخرجي من هنا.

الورقات كأنها ثوبي الذي أُواري به عورتي، لأني أخجل أن أقول كل التفاصيل. أحتاج الآن حضنكِ، وأن تمرّري أصابعكِ فوق وجهي، حتى تمحي من ذاكرتي كل الدموع والأحزان. لقد أعطيتِني ذخيرةً من الثقة تكفيني ما حييت!

نزلتُ إلى مطعم الفندق وجلستُ إلى إحدى الطاولات، ثم غادرتُ بعدما فقدتُ شهيتي للطعام. خرجتُ وتمشيتُ قليلًا، حتى دخلتُ سينما كانت تعرض مجموعة من الأفلام. كنت أبحث عن فيلم عربي، فوقفتُ في طابور شراء التذاكر.

نظرتُ إلى من حولي، فكلهم كانوا في مجموعات أو ثنائيات، وأنا وحيد. ولا غرابة في ذلك، فقد ودّعني كل شيء بعدكِ. اشتريتُ تذكرة لفيلم أجنبي! دخلتُ قاعة السينما، وجلستُ وحدي.

بدأ الفيلم وانتهى، ولم يبقَ في ذهني منه إلا بدايته، فقد كانت الأفكار تتساقط عليّ كالسكاكين، كأنني عدوّها القديم.

لم أُخاصم الشوارع والطرقات التي قابلتُكِ فيها،
بل أصبحتُ صديقاتي،
أُحدّثها عنكِ بالساعات، وننتظركِ سويًّا،
مقترحين فرضيّات لغيابكِ.
ما زلتُ أستمع لأغنيتكِ المُفضّلة،
وأبتسم كلّما رأيتُ لونكِ المُفضّل،
وكأنّ كلّ الأشياء من حولي تُحدّثني عنكِ.

استغرقت رحلتي "خمسة أيام" بين الفندق والسينما والمقهى، واليوم هو يوم عودتي إلى بلدي. في المطار، وبين أفكاري المشتتة المملوءة بذكريات هناء التي فارقتني منذ زمن وجعلتني أشعر بالحزن والوحدة، كان قلبي يخفق بقوة، ويداي تشعران بالبرودة.

وفجأة رأيت هناء... يا لفرحتي! قلبي يكاد يقفز خارج أضلاعي من شدة الحماس والسعادة.

أسرعت نحوها، لكن عندما اقتربت وجدت رجلاً يقف قربها ويحتضنها. ما هذا؟ لا أصدق ما أراه... إنه أكثر رجل وسيم قابلته في حياتي.

تسمّرتُ مكاني، كجذعٍ ضُرب في الصميم، والأرض تشدّني بثقلٍ لا يُحتمل. عيناي مسمّرتان عليهما، وهما يتبادلان همسًا لا يسمع، وابتسامةً لا تحتمل. ثم يضمّها إلى صدره... كما لو أنها وطنه، كما لو أنها كانت يومًا قلبي أنا.

شعرت بسكين خفي يغوص ببطء في صدري، يقطع أوتار الأمل التي كنت أتمسك بها منذ رحيلها. لم أجرؤ على التقدم أكثر. قدماي خانتاني، وصوتي تلاشى في حلقي قبل أن أنطق باسمها.

اكتفيتُ بالمراقبة من بعيد، وجناحاي الممدودان نحو الفرح قُصّا فجأة، وسقط قلبي... لا إلى الأرض، بل إلى قاعٍ سحيق من الخيبة. كان يبتسم لها بثقةِ مَن يملك، وأنا لا أعلم حتى من يكون! من هذا الذي اختصرني، وتجاوزني، واحتواها كأنني لم أكن؟

ولا رغبتُ حتى في معرفة الجواب... فما رأيته كان كافيًا لطمس كل سؤال. يكفيني هذا المشهد. ختم النهاية طُبع على قلبي، لا على الورق، بلا رجعة، بلا تردّد. انتهت الحكاية كما تنكسر مرآة، لا صوت، لا تفسير، فقط شظايا لا تُعاد.

أدرت وجهي نحو بوابة المغادرة. لا حاجة للعودة إلى الوراء، ولا جدوى من البحث عن ماضٍ مات قبل أن أعترف بموته. سرت ببطء، مثقل الخطوات، لا أحمل سوى حقيبتي... وذكريات أصبحت الآن مجرد درسٍ قاسٍ في الحب والخسارة.

وقفت أراقبهما حتى خرجا من صالة المغادرة. خرجت خلفهما وتبعتهما بخطوات حذرة، حتى وصلا إلى فندق "وايت هاوس". وكنتُ كمن يتبع سرابًا يحسبه ماءً، حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا.

لم أستطع مقاومة فضولي، فمددت رحلتي وحجزت غرفة في الفندق نفسه، مقابل غرفتهم مباشرة. جلست أراقب بصمت، كأنني أترقب كشف غموضٍ أثقل قلبي.

سألت الاستقبال: من هذا الرجل وهذه المرأة؟

فقال: عروسان جديدان.

فقلت: ما أسماؤهما؟

فقال: إيتان وهناء.

وكأنّه صعقني بالكهرباء؛ تسمّرتُ في مكاني، جمد الدم في عروقي، وترقرقت عيناي دموعًا. الغدر حطّم آمالي العريضة، وكأنّ الفنانة "سميرة سعيد" قد سبقت الأحداث وأخبرتني حين غنّت.

وأنا اللي كنـت فاكره أنى وحدي في قـلبه.

أتاري وحده تأنيه جت في ثانيه شغلت قلبه. أواااام.

وأنا اللي كنت فاكره إنو حيشتكي من بعدي.

فاجئني بقصة تانية ضيعت الحلم الوردي.

وأنا اللي كنـت فاكره إنى وحـدي في قـلبـه.

أتاري واحدة تانيه جت في ثانيه شغلت قلبه. أواااام.

مستحيل! لم أكن أتوقّع أن يكون معنى الوفاء هكذا. جلستُ على الكرسي منهزمًا، وكأنّ أسوأ كوابيس حياتي قد حلّ اليوم. أكان وفاؤنا الضعيف يعني آنذاك ألّا نتمسّك بالوعود؟

وكأنّ أيّامي سقطت من تقويمكِ! صدقتْ تلك العرّافة حين قالت: "إنها ستلبس الأبيض". أكان شهر العسل هنا، وأنساكِ عمادًا؟ أكان إيتان جميلًا وأنيقًا فجردكِ من الوفاء؟ ما هي تعويذة النسيان التي استخدمتِها لتنسيني؟ أشعر الآن أن حياتي توقّفت تمامًا؛ أصبحتُ أحيا خارج الزمن، خلف المدار، وقبل الشمس بأمتار. مرّت تلك الليلة وأنا بين أحزاني، وأنتِ بين أحضان إيتان.

أمِنتكِ على قلبي

كما أمِن يعقوبُ أبنائه على يوسف،

بثقةٍ صافيةٍ كالندى،

لكن إخوته نكثوا العهد،

وانكسر القلب قبل أن يلتقي الحلم،

وحُبس الحزن في صدري،

صامتًا، كالدمعة التي لا تجرؤ على السقوط.

كانت الساعة تدق السادسة صباحًا، حين سمعتُ خروجهما من الغرفة متّجهين نحو قاعة طعام الإفطار. تبعتُهما متخفّيًا، أراقبهما بعينين مثقلتين بالخذلان... أشاهدهما، وأنا أكره ما أراه.

رأيتُ كلّ ما أكره. رأيتُ إيتان وهو يسحب لكِ الكرسي بدلًا من النادل، ثم تجلسين، فيُقبّل رأسكِ برفق. يضحك معكِ ويتأمّلكِ وكأنكِ تحفته الثمينة، وكأنكِ تساوين آلاف النجمات. ينظر إليكِ كأنكِ كنز، وكأنكِ أجمل ما شاهد من لوحات.

استفهامات كثيرة، وخيبات، وغيرة... كلّها مطروحة على طاولتي الآن، عنوانها: "أين كان عقلي؟". وكأنّكِ أصبحتِ تفاحتي المُحرّمة؛ أراكِ ولا أستطيع تذوّقكِ.

وكأنّ الحياة اختُزلت في عقد نكاح لإيتان، وشهادة وفاة لعماد. أنتِ يا هناء زوجة رسمية لإيتان؛ سيطرق بابكِ متى شاء، ويصحبكِ متى شاء، ويتسلّى بكِ متى شاء.

أنا لا أزال غير مدرك:

- كيف أحببتُ فتاة تختلف عني في كل شيء؟

- كيف أعاتبكِ وأنتِ لا تسمعين سوى كلمات إيتان؟

خدّرتُ كلّ أحاسيسي تجاهكِ، وقطعتُ الشرايين التي كانت تغذّي الهيام بكِ. أيقنتُ حينها أن للحبّ وجهين، كوجه العملة المعدنية: "حرام على عماد، ومباح لإيتان".

كنتُ أتمنّى . فقط أن تلتفت عيناكِ ناحيتي، نظرة عابرة، خاطفة، تُبقيني واقفًا. لكنكِ كنتِ غارقة في إيتان، حدّ أنكِ لم تعودي ترين العالم... ولا حتى قلبي، الذي كان يحترق بصمت في الزاوية.

وليتني أعرف ما يقول لكِ... وكأنّ الصمت صار رفيقي، لا لحكمة بل لعجز. أيُعقل أنكِ نضجتِ بشكل مبالغ فيه، حتى أصبحتِ كفاكهة الموز حين يفسدها نضوجها؟

وها أنا الآن أجلس على هامش ذاكرتكِ، كأنني فصل قديم من كتاب طويته دون ندم.

أتساءل بيني وبين نفسي:

- هل كنتِ يومًا صادقة معي؟

- أم أنّ حبّي كان مجرّد محطة عابرة في رحلتكِ نحو ما هو أجمل وأغنى؟

أعترف أنّ قلبي ما زال ينبض باسمكِ، لكنه أصبح ينبض وجعًا لا عشقًا. أصبحتِ بعيدة عني بقدر قربكِ من إيتان، وأنا قريب من حزني بقدر بعدكِ عن قلبي. وكأن المسافة بيننا سنوات عجاف، لا تمطر وصلًا ولا تنبت أملًا!

كأنكِ كسرةَ عودٍ احترقت،

فما بقي لها وجودٌ سوى ذكرى،

ذكرى رائحةٍ طيبةٍ، هناءً...

كيف تلاشيْتِ كخيطِ دخان،

يجذبني تأمله،

ولكنه سرعان ما يختفي،

يتركني وحدي،

أنتظر لهفةً لا تعود.

هذه الحياة لا تتوقف

نحن من نتوقف! نحن من نفنى وننتهي!

أمّا الحياة، فتمضي قدمًا، تُقدّم لنا الدروس واحدًا تلو الآخر: كيف تُحب؟ ومتى تتخلّى؟ وأين تُواجه؟

تُعاد تفاصيل المواقف، وتتشابه الوجه،

لكنّ كل شيء مختلف بطريقه مختلفة!

وكأن الحياة تُبعثر صفات من نُحب حولنا،

فنرى (أشباهه الأربعين) نسمع صوتهم بين الزحام

وتفوح رائحة عطره ونحن جالسون وحدنا!

فنستمر بالبحث، وفي الأمل، ونُدرك في النهاية،

أن أبسط رمز تعلمناه في المدرسة،

كان أعمقها وأشدّها تعقيدًا:

(إنفينيتي) (اللانهاية)

أسرَفتِ في بعدي، كقارون في الترف،

لا تفرقُ بين الحبّ والقتل،

ونسيتِ أن الله لا يحب المسرفين،

فكيف تغرقين قلبي في جحيم الغياب،

وتركينه وحيدًا يُلاحق ظلّك؟

هل كان قلبي مجرد حسابٍ تُسد دينه؟

وتعاد الحكاية ...

تغيّر الأبطال، ولكن دون دراما أو احتضار. كلّ ما كان مُحرّمًا أصبح مُحلّلًا، وكلّ ما كان يوجع صار يضحك. هكذا نحن باختصار. ورغم صراع المحاولة في الإبقاء على ذاتي، وفي لملمة ما تساقط منّي، إلا أنّني أشكركِ... أشكركِ لأنّكِ جعلتِني أتألّم دون وعي.

ألا يوجد قانون؟

- لماذا لم تكن القوانين صارمة وعادلة لتأتي بكِ؟

- لماذا يأتي الحب على غفلة والقانون لا يحمي المغفلين؟

- كيف فتنت بكِ وأنا أتعوذ من الفتن؟

- خانتكِ عيناكِ في زيفٍ وفي كذبٍ؟

- أم غرّكِ البهرج الخدّاع؟

- أتظنّين أنّ عيني ستبيضُّ على فراقكِ؟

والذي أنجى يوسف ممّن شغفَتْهُ حبًّا، قادرٌ على أن ينتشلني وأنا في قعر الجُبّ، لا يسمعني سواي. نعم، أنا أترنّح، أتهاوى، لكنّني لا أسقط. سأمضي وكأنكِ ما طعنتِ، وسأضحك... كمن لم يعرف البكاء يومًا، كمن تعلّم النجاة من تحت الرماد.

سأتجاوزكِ، وإن بقيتِ بين ورقاتي تتباهين بكلماتي. فأنا أنيق حتى حين أتعثّر، وأتألّم، وأفارق. ولا أهن، ولا أحزن، وأنا الأعلى بكبريائي... أتعزّز عليكِ ودموعي تمطر.

هذا الصباح تحديدًا، قرّرتُ أن أرحل. جلستُ في مقعدي، وبجواري رجل وامرأة في الطائرة، لا يعرفان بعضهما البعض، ومع ذلك يتحدثان ويتبادلان الأحاديث بخفّة.

قال الرجل مبتسمًا: ماذا تعملين، أيتها الأنيقة؟

قالت: مصممة أزياء وأنت؟

قال: أنا ناقد موسيقي كلاسيكي.

قالت متعجبة: معقول أنا حبيبي السابق كان يدرس موسيقي كلاسيكي.

ابتسم الرجل وقال بهدوء: صدفة جميلة يبدو أنّ الموسيقى تلاحقكِ حتى الآن. ما اسمه؟

قالت: لا، وهو ليس بشخص معروف.

قال: ربما أعرفه.

قالت: ماجد حسن.

سيطرت عليه حالة من الذهول، ثم قال بنبرة متفاجئة: أنا أعرفه جيدًا. كنتُ أحد أعضاء لجنة التحكيم التي مرّ بها. طردته بسبب ضعفه في المستوى وسوء تصرّفاته. كان أسوأ شخص عرفته على الإطلاق.

فقالت: تافه وغريب لهذا تركته.

اشتدّت الرياح، وبدأت السحب تتكدّس بجنون حول الطائرة. راحت الأجنحة ترتجف تحت وطأة العاصفة، بينما حاول الطاقم يائسًا أن يثبت مسارها بين الأهواء المتلاطمة. وبينما كانت الطائرة تناور بشقّ الأنفُس بين السحب المتناثرة، وقع ما لم يخطر ببال أحد.

بدأت الطائرة تهتزّ بعنف، ثم راحت تتأرجح بشكل مقلق في الفراغ. بذل طاقمها كلّ ما في وسعه لإعادة السيطرة والاستقرار، لكن العاصفة كانت أعتى من محاولاتهم. أطلق الطيار إشارة الطوارئ، وفي لحظة مباغتة انزلقت الطائرة إلى الخلف... لقد فقد الطيار السيطرة تمامًا.

تعالت الصرخات وملأت الصدمة أرجاء المقصورة. وفي لحظات معدودة، اختفت الطائرة من على شاشات الرادار، وكأنها ابتلعتها أعماق السحب المظلمة. عمت حالة من الهلع والترقّب، الزمن توقّف، والأنفاس انحبست. ثم، وكأن شيئًا لم يكن!

عادت الطائرة فجأة إلى وضعها الطبيعي. استقرّت في السماء من جديد، تاركة خلفها ذعراً لم تخفّ حدّته بعد.

وكأن ماجد حسن هو قائد هذه الطائرة، وجمع الرجل والمرأة معًا لينتقم منهما على سوء أدبهما في غيابه. شعرت بشيء يتحرك في داخلي... فتحت الحقيبة بيدين مرتجفتين، لأجد ورقة مطوية بعناية. كانت مكتوبًا عليها:

لم أستطع أن أنظر إليكِ في المطار ولا في المطعم. لقد تعهّدتُ، كتابةً، أمام "محكمة الجان" ألا أتواصل معكِ مجددًا. وقد صدر الحكم عليَ: إمّا أن أتزوّج... أو أقتل. فكان الزواج نجاتي الوحيدة. أنا بخير... فلتكن كذلك.

كلماتكِ كأنها تدق آخر مسمار في نعشي، احتلني الصمت، وانسحبتُ إلى داخلي، وقلت في نفسي: رسالتكِ جاءت متأخرة أكثر مما ينبغي، لماذا تركتِني معلّقًا بين الحيرة والغيرة؟

كم أتمنّى الآن لو ترتطم الطائرة... فأكون في ذمّة الله، وتبقى فقط أوراقي وحبّي لكِ على قيد الحياة. كنت أعلم جيدًا أن الحبّ هو بداية جميلة لمعاناة قادمة، بقدْر ما أسعدنا، سيكتب علينا أن نتألّم أضعافًا. ومع ذلك... لم أتُب.

أدرك تمامًا أن "الحياة" لا تُدرّس في كتاب، ولا تُمنَح بشهادة، ولا تُدرَّس في جامعة...الحياة تُفهَم فقط حين نعيشها، ونتعلمها من تقلباتها.

أتدرين من منّا خرج من هذه الحكاية فائزًا؟

لا أحد

أنتِ خسرتني

وأنا خسرتكِ

اللهم إن كنت قد كتبتَ "الفراق"، فلا تحمّلني ما لا طاقة لي به، فالحزن يقتلني وأنت خلقتني وتعلم شتاتي وضعفي واحتياجي، فاكفني عنهم جميعًا، وبك وحدك ألجأ من كل ما أصابني وما أثقل قلبي.

تعلمتُ أن "الفراق" ليس نهاية الحكايات، بل بداية لفهم أنفسنا أكثر. أحيانًا نخسر من نحب، فقط لنكتشف أن الله كان ينقذنا ممّا لا نراه.

لم أعد ألوم "الأقدار" كما كنت، فقط صرتُ أبتسم بحزن وأقول: لعلّ فيما غاب رحمة، وفيما بقي حياة أصفى. عسى أن أكون قد كرهتُ الفراق، وهو خيرٌ لي.

ربّما لم أُخلق لأُكمل الرحلة معهم، وربّما خُلقوا ليكونوا فصلًا لا ختامًا... وأنا، سأتعلّم أن أمضي، حتى لو بثقل الذكرى.

كأن حبكِ كان سرطانًا...

وفراقكِ علاجًا بالكيماوي.

الأول قاتل ببطء،

والثاني مدمّر بشراسة.

وفي الحالتين، كنتُ أنا الضحية.

نظرتُ إلى ذلك الرجل والمرأة وهما يتبادلان أرقام الهواتف، وكأنهما مثال حيّ لمقولة "وافق شنّ طبقة". وما هي إلا دقائق حتى قامت المرأة متجهة نحو دورة المياه. كانت المضيفة تقف قريبًا من الرجل، فاستغلّ الفرصة ونظر إليها بعينين ماكرتين، ثم بدأ يسألها عن بلدها. كانت إجاباته تتساقط خطأً واحدًا تلو الآخر؛ ظنّها تونسية فنفت، ثم جزائرية فأنكرت، وأخيرًا خمّن أنها مصرية كما اعتقد... لكنها ظلّت ترد بالنفي، ببرود واضح.

رحيلكِ يا هناء ذكرني برحيل تلك الآسرة وها أنا ذا ألدغ في قلبي مرتين، قلبي احترق قهرًا، ولم يَعُد صالحًا للنبض، ولا للحياة.

وصلتُ مطار جدة منهزمًا كعادتي، وقد أيقنتُ أن إيتان انتزعني من قلبكِ دون أن تشعري، ومزق كل أشيائي الحبيبة. وأنتِ أيضًا... تَبًّتْ يداكِ إن آثرتِ ذبحي واستعذبتِ أوجاعي.

وكم هو غبيٌّ إيتان حين ظنّ أنكِ ورقته البيضاء الجديدة! يتباهى باستعراض رجولته، ولا يدري أنكِ قديمة جدًا بين أحضاني... وفي كتاباتي. أنا أكره إيتان؛ الذي منحتِه مستقبلكِ، وحياتكِ، وجسدكِ، وابتسامتكِ. أصبح عطركِ له، وجعلتِني أنا... قمامة الماضي.

طوال هذه الليلة وأنا أتنفس أفكاري، وأناقش نفسي حتى وُلِد القرار. حينها ابتسمتُ بمرارة، وتذكرتُ كيف كنتُ منذ أعوام ناصحًا لذلك الرجل الذي يشكو الفراق، وقلت له بثقة: انْسَها... فالحياة لا تقف على أحد.

كم كانت نصيحتي بلا معنى!

الآن فقط فهمتُ أن الكلمات أسهل من الأفعال، وأن الجروح لا تلتئم بتلك السرعة التي نتظاهر بها. أدركتُ أن النسيان ليس زرًّا نضغطه، بل مسافة طويلة نقطعها حفاةً فوق أشواك الذكريات. ومع ذلك... سأمضي.

سأجمع شتاتي، حتى لو تطلّب الأمر أن أرتّق قلبي ألف مرة في اليوم. لا لأني نسيتكِ، بل لأني تعلّمت أن أختار نفسي أخيرًا. وإن كنتِ قد منحتِ إيتان حاضرَكِ، فسأمنح أنا نفسي مستقبلي. عسى أن أكون قد كرهتُ هذا الفراق، ويجعل الله فيه خيرًا كثيرًا.

دخل نور الشمس في غرفتي، وكأنه يغزوها. دخلتُ المطبخ وأحضرتُ الشاي وحشوة الخبز، وبدأتُ أمضغ بكسل وأنا أتابع الهاتف بنصف اهتمام، تُرى ماذا تفعلين الآن يا هناء؟

تستيقظين من أحضان إيتان بكسل، تقبّلينه، ثم تلتقطين المنشفة وتذهبين إلى الحمام للاستحمام. يدخل عليكِ إيتان بدهشة، يراقب خطوات استحمامكِ بعينيه، بينما أنا أشاهد هاتفي... ليتني كنتُ إيتان.

عفوًا، ذلك الوشم الصغير المختبئ تحت فخذكِ مثل لاجئ سياسي... هل اكتشفه إيتان؟ وهل لمح بعينيه ذلك الخال الوحيد في صدركِ ذلك النقطة السوداء الدقيقة، كأنها نداء صامت وسط بياض جلدكِ؟ هل كان إيتان عادلًا بين شفتيكِ كما كنتُ أفعل؟

- هل كان يُرضيكِ كما كنتُ أفعل؟

- هل عرف جسدكِ كما عرفته أنا، أنا الذي لمستكِ بحب لا بعجلة، وجعلتكِ تنسين اسمكِ بين يديّ؟

وهل انتبه إلى اللمعة الداكنة في منتصف عينيكِ تلك البقعة العميقة التي لم تكن مجرد ظل، بل أشبه بكوكب صغير غارق في مداركِ؟ كنتُ أُسميها مجازًا "ليلتكِ الداخلية"، لأنها كانت النقطة التي تنكسر فيها كل أضواء الغرفة حين تنظرين إليّ، وتبتلعني كما تبتلع الثقوب السوداء النجوم. هل غرق فيها كما غرقتُ؟ أم ظلّ عالقًا على السطح، كما يليق بالغرباء؟

أنا لستُ سيئًا يا هناء كما تعتقد تلك الأسرة، حين مارستُ مراهقتي المتأخرة كأي شاب وأي فتاة، والتي انتهت برحيلها، فحاسبتني كأنني ارتكبتُ معصية. استنقصتني وقللت من شأني، وقيل لي بأصوات يعتريها الاستحقار: "خائن". وها أنا ذا ألتزم الصمت مدى الحياة، بانكسار يكسر ظهري، أعجز معه عن إعادة استقامته.

أنا أملك الشجاعة لأعترف بأخطائي، وأؤمن أن الاعتذار عن الخطأ قوة وليس ضعفًا كما يظن البعض، لأن الكرامة الحقيقية تُبنى على الصدق مع النفس والتواضع أمام الحق. أنا لا أهرب من أخطائي، بل أواجهها بثقة، أتذكر وأبصر كما يفعل الذين اتقوا إذا مسهم طائف من النسيان، وأعلم أن الاعتذار هو قمة القوة.

من منا بلا ذنب ولا معصية؟ حتى آدم وحواء ارتكبا الأخطاء. الخطأ جزء من حياتنا، وطبيعة بشرية لا فكاك منها. لكن العبرة ليست في السقوط، بل في الوقوف بعده. العبرة في أن نُصلح، لا أن نتمادى، أن نتعلم، لا أن نُكابر. فكل إنسان يخطئ، ولكن العظماء فقط هم من يعترفون ويتوبون ويواصلون حياتهم أنقى وأقوى.

أنا لستُ ملاكًا كما تظن أختي نهاد، ولستُ شيطانًا كما تظن تلك الأسرة، حتى بياض الضوء له ظل أسود، وسواد الليل فيه قمر أبيض!

أيتها الآسرة ...

لا تحكمي عليَّ من ماضٍ، ولا تحمّليني فوق طاقتي. ما وقع، وما آلت إليه الأمور - وإن كانت كارثية - في كل مرحلة من حياتنا، كان نتيجةَ اختياراتٍ عديدة. وأنا اخترتُ بناءً على ما توفر لدي من خبرة ووعي. وبقصد أو بدون قصد، جرحتُكِ، وأنا أعترف لكِ كما يعترف المحكوم أخيرًا بجريمته.

أتعلمين أن شعوري بالذنب "كفأرٍ كبير" يتسلل داخلي ويقرض ما يشاء، وأنا أكتب وأتألم؟ أعتذر لماضٍ قَبِل أن يُعاش بهذه الطريقة، وبكل هذا الضياع.

لم أرتدِ قبعة السواد، ولا الطلِيس، ولم أقتل الأنبياء. لستُ يهوديًا كي تكوني هتلر التي تحرق مشاعري بلا رحمة.

حين تكتشف أن المكان ليس مكانك، حين تشعر بأن كلماتك لا تصل، عندما تشعر بأنك أصبحت غريبًا بين من تنتمي إليهم... فقط ارحل. فاخرج منها فإنك رجيم عن قلوبٍ لم تعد لك. حبَّ نفسك، فحب النفس لا يهرم. من يحب ذاته ويقدّرها يستطيع السير قُدُمًا. هذا ما عجزتُ عن فهمه وفعله.

كيف تُصبحين ماضيًا،

وعطركِ وطيفكِ يُحييانكِ كلما ظننتُ أنني نجوت؟

هل بقي في الحياة بقيّةٌ لأراكِ،

أم أن اللقاء مؤجَّلٌ إلى حيث لا يصل الزمن، ولا تطأه الأقدام؟

تمر الأيام تِلو الأيام، وأنا أسطّر أحزاني كما ينبغي، وكل حرف أكتبه يزيدني وجعًا. قطعتُ الدروب حتى غدت وعرة، لا سبيل للعودة ولا للمضي. أدركتُ أننا قد لا نلتقي ثانية، وأن النهاية تقترب بصمت لا رجعة فيه. لن نواجه سويًّا فيضانات هذا العالم، تلك التي تجرف ما تبقى من أحلامنا وتغرق خطواتنا في الطين، ولا أعاصيره التي تقتلع ما بنيناه من ذاكرة، ولا سقوط سمائه حين تنهار الأشياء فوق رؤوسنا بلا رحمة.

لن نشهد النهاية كتفًا بكتف. ستكتفين بنهايةٍ اخترتها كما تقولين "رغمًا عنكِ"، وأنا رضيتُ بها، "رغمًا عن قلبي".

هذه أحزاني المراهقة تتراكم فوقي الآن دون حياء. ولن تفهمي يا هناء حزني، فحزني حكاية طويلة لا يعرفها غيري. حزني ليس مُترفًا ولا مدللًا؛ أنا لا أنهار حينما أحزن، بل أزداد صلابة وقسوة وجفافًا.

ولا تنسي أن مصير كل عود يابس هو الكسر، ومصير كل قلب أرهقه الصبر هو الانطفاء.

لكن لا تخشي عليَّ، فقد تعلّمت أن أجمع شتاتي من رمادي، وأعيد تشييد نفسي، ثم أنشأني الله خلقًا آخر في كل مرة، حتى إن سقطت ألف مرة، سأنهض في الألف وواحدة أكثر اتزانًا وأقل احتياجًا..

كم يؤلمني تجاهلكِ،

تجاه كلماتٍ كتبتُها وأنا أحترق.

كنتُ أكتبكِ من دمي،

أنقشكِ من نزف قلبي،

ثم تمضين وكأن شيئًا لم يكن.

أيعقل أن تنطفئ الحروف

التي اشتعلتُ بها من أجلكِ بهذه البساطة؟!

أحتاج الآن أن أبكي ولا أستطيع ذلك، كم هو مؤلم أن أستنجد بالبكاء ولا أستطيع، أقايض أي شيء غير ورقاتي في سبيل قدرتي على أن أبكي الآن! من يقايضني؟

أتعلمين أن حبي لكِ معجزة، أنا بعد رحيل تلك الآسرة لم أعد أثق بأي فتاة، ولم أحب بعدها، هي كانت خاتمة كل الأشياء، أكتب هذه الصفحة، وأشعر بأن تلك الأسرة تنعتني الآن بالفشل والغباء!

وأنا عاجز تمامًا، مكتوف اليدين، لا أملك حجةً تدعم هذه الصفحة، ولا برهانًا يُنقذ ما تبقى من صمتي.

أشعر الآن أن كوب القهوة يرتجف بين أصابعي، وكأنه يريد أن يسقط ليحرقني، وأن قلمي يتآمر عليّ، يريد أن ينزلق إلى فمي ليسكتني، وأن أوراقي قد انكمشت خائفة، لا تريد أن تستقبل حروفي، خشية أن تفضح أمري وتكشف ما حاولتُ ستره طويلًا.

وحتى النافذة أغلقت عينيها عني، وكأنها تأبى أن ترى ضعفي، والكرسي تحت جسدي بدأ يملّ ثقلي، فيتزحزح قليلًا كمن يريد أن يفرّ، وساعتي على الحائط تباطأت عقاربها، وكأن الزمن نفسه لا يريد أن يمضي معي.

فسحُقًا للوعود ... وتبًا لحسن ظني ...

أنا رجلٌ يُجيدُ الانتصارَ على الورق،

لكنني خُلقتُ لأُهزَمَ أمامكِ.

كلُّ ما فيّ يعرف كيف يربح، إلا قلبي... ما تعلّمَ إلا كيف يخسركِ!

أكتبكِ في صمتي، وأمحوكِ في حديثي مع الناس،

لكنّكِ تعودين في كل نقطة، في كل فاصلة،

في كل فراغٍ بين سطرٍ وسطر.

أخفيكِ في طيّات أوراقي، كأنكِ جُرحٌ لا يجب أن يُشفى،

ولا يليقُ به أن يُعلَن.

أنا لا أراكِ حين أنظر، أنا أراكِ حين أُغمضُ عينيّ،

حين أهرب من كل شيء إلا منكِ.

ظننتُ يومًا أنني سأكتبكِ رواية، لكنني اكتشفتُ أنني أعيشكِ ندمًا، وأكتُبني... خسارة.

كأنني الغريق، كلما ظنّ النجاة تمسّكتُ بكِ... فإذا بكِ موجي!

جاءني خبر وفاة (أبي صالح) كصيحة عذاب وعقاب، فانهمرت دموعي حزنًا. اللهم ارحم روحًا كانت كالجنة على الأرض، اللهم اجعله ممن يُقال لهم: هذه الجنة التي كنتم بها توعدون. لماذا تهوى أرواح الطيبين الصعود إلى بارئها سريعًا؟

- أفي عالمنا من الخبث ما يمنع حضن الطيبين؟

- أم لعلهم اجتازوا الامتحان سريعًا فرُفع عنهم عبء البقاء؟

لكل شيء بداية ونهاية، والحياة أقصر مما نتوقع. الحمد لله على ما كتب وقضى، فليس لنا من الأمر شيء إلا القبول بقضاء الله وقدره.

حاولتُ أن أغطّى حنيني كتابة

لكنّها عرّتني أكثر ممّا تغطيني

كيف لنسمة هواءٍ تمرّ بثيابي؟

فيفوح عطركِ من أطرف أكمامي!

ليس لي سبيل إلى لقائكِ،

فكيف أعيش الأمس من جديد؟

ليت مستقبلي يبدأ نحو الماضي!

ما تبقّى...

تبقّى أثرٌ طيّب،

كعطر وردة ذبلت لكنها لم تخن رائحتها!

وبعد أيامٍ ثقيلة من الحزن، رنَّ هاتفي فجأة، كان المتصل أخو سلطان. صوته متردد ومثقل بالهمّ، قال بعد السلام: أحتاج رأيك زوجتي كثيرة الإلحاح في كل شيء، لا تهدأ ولا تتركني ألتقط أنفاسي، تطلب وتُعيد الطلب حتى تنهكني، في الحديث، في الطلبات، وحتى في التفاصيل الصغيرة.

- لماذا لم تتصل؟

- أين كنت؟

- متى ستعود؟

- لم تسأل عني اليوم؟

- لماذا تغيرت؟

- متى تصل؟

جبال من الأسئلة وتنتظر الإجابة كاملة دون اختصار تسألني طول الوقت وأنا مملت.

قلت له: اجتمع بها في مطعم أو مقهى، واستأذن منها أن تطلق سراحك لبعض الوقت، لتعود إليها متيقنًا مؤمنًا بدلًا من أن تظل متشككًا منافقًا معها. فتبينوا، قد يكون انشغالك عنها محل شك واستغراب، وهذا هو سبب إلحاحها. لا تنهِ علاقة الزواج بأسباب لا تستحق، فحينها ستندم وتخسر، وتذكر أن الحياة لن تقف لتراعي أحزانك.

ينتهي الاتصال وأنا على يقين بأن بعض علاقات الحب تنتهي حين تطغى صفة الإلحاح على أحد الأطراف. لذا، من يلمس انشغالك فيعذرك دون جدال، بل يصنع السعادة لأجلك، فهو ممَّن تقف الأبجدية امتنانًا لهم.

هؤلاء لا يُعوَّضون، فهم نعمة نادرة في زمن يكثر فيه اللوم ويقل فيه الفهم، وقليلٌ ما هم. تمسّك بهم إن وجدوا، فالحياة لا تجود بمثلهم مرتين.

وكنصيحة عمر!

لتحظى بحبٍّ يناسب تفاصيلك، أخبر مَن تحب بحبك، وحاول أن تتجنب الاقتحام في الحياة الخاصة للطرف الآخر. احترم تلك المساحة، وكن أنيقًا في عتابك، واترك عنك النقد واللوم.

لا تنسَ أن الاهتمام أمر جميل نحتاجه جميعًا. ابتعد عن الغيرة العقيمة، وكن صاحب كلمة طيبة، واختر الوقت المناسب لكل شيء، فهو ضروري. وتذكّر أن التعامل ليس عباراتٍ تُنطق، بل أفعال تُثبت.

صباح اليوم جاءني خبر أوجع قلبي، رحل زوج أختي (سالم). رحل وترك فراغًا كبيرًا في قلوبنا وحياتنا. لم يبقَ لنا سوى الدعاء له، فالحزن ثقيل والفقد موجع، لكننا نسأل الله أن يرحمه ويغفر له، ويجمعنا به في مستقر رحمته.

اللهم اغفر له وارحمه، وأسكنه فسيح جناتك. وداعًا أيها الطيب، إلى جنات الخلد مع والدي ووالدتي وأخي وسائر أموات المسلمين.

حتى أولئك الذين فارقونا في هذه الساعة، كانوا يظنون الموت بعيدًا جدًا. لماذا تنقلب المشاعر عند الرحيل؟ فجأة، تصحو الوحدة بعد أن اعتدنا وجودهم، دون أن نشعر أننا كنا مكتفين بهم. مثل رجلٍ لا يعي نعمة صحته إلا حين يزاحمه المرض، فيدعو الله شافيًا، مستشعرًا نعمة غابت عنه طويلاً.

كذلك نحن، باختصار، لا نشعر بقدر النعمة التي نحن فيها حتى نفقدها. ولكن شتان بين الاثنين؛ فالمرض يعقبه شفاء، أما فراق شخص فلا يعوضه آخر. فاستشعروا ما لا تشعرون به قبل أن تفقدوه.

هذه الكلمات ربما محاولة للاستدراك، ومنح الأشياء الصغيرة التي نمتلكها، والأشخاص الرائعين الذين ما زالوا يحيطون بنا، القيمة التي يستحقونها، حتى ولو كانت حقائب الغياب محمولة على الأكتاف، وكان قطار الماضي منتظرًا على عتبة الباب.

أحسنوا لمن تحبّون،

تمسكوا بهم جيدًا، وعبّروا عن حبّكم، واغفروا زلّاتهم،

فإن الشوق بعد الموت، لا يُطاق.

انتهى ما بيننا يا هناء ...

ولا أعرف لماذا أسعى إليكِ بشدة، وأنا على يقين بأنه عند رجوعكِ سأفر هاربًا، وكأن ملائكتي تبعدني عنكِ وتحميني منكِ، أو تحرمني منكِ.

أموت بعزٍ وكبرياء أشرف، وشوقي لا يلين لي. نفيتكِ إلى أقصى حدود التجاهل، وعنكِ الله يغنيني. لا أسمح لشموخي أن ينكسر، وأنا واثق أن الوقت وحده القادر على أن يمحوكِ.

وضعت أقلامي في أدراج مكتبي، أغلقت مذكرتي، وأطفأت الأنوار، لعلي أُسكن ذكرياتكِ وأُخمدها، حتى تنام.

أغمضت عيني بقوة، فرأيت (أبي) في حلمي يقول: لكل مشكلة حل، وأنت من يصنع الحلول ويعرض المقترحات ويتمكن منها. كن متفائلًا، فإن التفاؤل يجذب إليك كل ما هو جميل، فتصبح حياتك أكثر إشراقًا.

كن مرنًا قدر ما تستطيع، واعلم أنه لا يوجد إنسان على قيد الحياة سعيدًا ومرتاحًا طوال حياته. عليك بالتقرب من الله؛ فحينها ستجمع بين السعادة والرضا والطمأنينة ورغد العيش.

ولا تحزن على ما فاتك، فلو اطلعت على الغيب لاخترت الواقع. كن قويًا بما يكفي لتستحق ما تنتظر. ظللتُ طوال اليوم أفكر في الحلم، وما خلّفه في نفسي من راحة وأمل.

شكرًا أبي الساكن في عالم القبور، اللهم أبدله دارًا خيرًا من داره، واجعل الملتقى به ووالدتي وأخي وكل من غاب عنّا، في جنات النعيم، حيث لا وداع.

- عن أي شيء يبحث الناس في هذه الحياة؟

أليس الناس يبحثون عن السعادة والطمأنينة المستقرة والراحة المستمرة؟

جمعَ الخميسُ عائلتي المميزة، دخلت أختي "نهاد" ومنحت كل الموجودين ابتسامة، وكأنها تلوّن النهار وتلقّح الأزهار. كنتُ أجلس في ركن المجلس، وكانت تجلس وبيدها كوب القهوة، تهز رجلها بهدوء فيهتز قلبي وكأنه يشكو حالي لها.

حاولتُ ألا تلتقي عيني بعينها فتكشف أمري، فهي الوحيدة التي تقرأ في عيني، ولا أستطيع أن أكذب عليها. إنها تحبني لدرجة لا أستحقها!

هناك مشاهد كثيرة تتزاحم في رأسي الآن، لكن أجملها أن أقدّم دورة تدريبية، وأقف في نهايتها أمام الحاضرين لأشكرهم على حضورهم، ثم ألتفت قليلًا وأقول بهدوء: "أنتِ قليلة الوفاء يا هناء"، فلا تلوميني على سخافتي. سأقولها بنبرة خفيفة، كأنني ألقي مزحة عابرة، لكنني وحدي سأعرف أنني كنت أقول الحقيقة، وأن كل الحروف التي نطقتها اليوم، وكل الشكر الذي وزّعته على الحاضرين، كان يحمل في داخله جزءًا صغيرًا منكِ.

ألم أُخبركِ أنني لم أعد أتذكَّر حوارنا الأخير؟

لم يعد اسمكِ يستوقفني، ولم أعد أذهب إلى أي مكان، والشاهد على ذلك قلمي وكتاباتي التي ما زالت تتحدث عنكِ... وعني. ورغم كل محاولات النسيان، بقيتِ في قلبي كالموتى رحمكِ الله وغفر لكِ.

وإن كنتُ ما زلت أكتبكِ بين أوراقي، فذاك فقط لأنني وعدتكِ أن أفعل. أم لعلّه كان تواضعًا مني أن أكتب لمثلكِ؟

- أتعلمين يا هناء؟

لستِ أكثر من ذكرى مشروخة، كلما مررتِ في بالي انطفأت الفكرة قبل أن تكتمل. لستُ غاضبًا، ولستُ وفيًّا كما تظنين.

أنا فقط رجل يفي بوعده، مدركًا أن العهد كان مسؤولًا، حتى لو لم يبقَ للوعد معنى.

عزيزي القارئ ...

تظاهر بأنك بخير، مهما تألّمت، فالكتمان كالظل الذي يحميك من حرارة نظرات الشفقة. كما قالوا: "الصمت في بعض الأحيان هو أبلغ من كل الكلمات

الحب غبي بطبعه، لا يفكّر ولا يتعلّم، يكرر سذاجته وكأن الذاكرة خيانة في قاموسه. يسقط في الحفرة ذاتها، بالخطوات ذاتها، وبالابتسامة نفسها كل مرة.

يبدأ بأحلام عالية لا تشبه الواقع، ثم ينحدر فجأة بأوجاع لم يتوقعها، وكأن الألم فيه مفاجأة لا تتكرر أبدًا. وفي النهاية، يعيدنا إلى خيبتنا الأولى، وكأننا لم ننكسر من قبل.

يظن الناس أن الحب هبة جميلة ويتمنونه، وأظنه أكبر كذبة في التاريخ. يقولون: أحبك كما يقول السجناء: "نحن أبرياء"، لذا لا تأخذوا كل الكلمات على محمل الجد.

لكنني أعتقده ابتلاء وتكفيرًا للذنوب، لذا أدعو الله كثيرًا أن يرفع عني هذا الحب، وألا يستجيب لعاصٍ مثلي. إلا حب الوالدين لأبنائهم، وحب أبي صالح لقريته، وحب نهاد لعماد، فهو نعمة.

- أتعلمين أيتها الآسرة:

إن حبي لكِ كالشيطان، مُخلَّد لا يموت.

وعطركِ، وطيفكِ، وذكرياتكِ كَنَغزاته،

يأتينَ بكِ كل مساء، ثم يتبرأ من كيده مع أول الصباح.

بدأتُ أُقلب صفحات الماضي، فوجدتُ تاريخي لا يغريني؛ مللٌ يعانق مللًا، وأحزانٌ فوق أحزان، وخيباتٌ متلاصقة بخيبات، انتفاضاتٌ واحتضار، وصرخاتٌ لا تنتهي، وتصدعاتٌ لا يُسعفها أحد، وفراقٌ استباح كسري. ألهذا خرجتُ من بطن أمي؟

لن يعرف الأطباء تشخيص مرضك، فالعاشقون مرضى بصحة جيدة! لماذا لا يتم اكتشاف طُرُق علاجية لمرضى العشق؟

فلا الطب سيكتشف سقمهم، ولا حتى الطب النفسي وأدويته تهدئ من لوعة الفراق ووحشته ووجع الروح من الخذلان. لربما لو تضمن علاجهم السلوكي في وصفتهم العلاجية زيارة مدينة المحبوب مرة أسبوعيًا، وسماع صوته قبل النوم وعند الصباح، وتأمل صورته كلما اشتاقوا... أليس منطقيًا يا معشر العشاق؟! لطالما كنا صادقين.

ولكن ذلك الكرسي في عيادة الطبيب، حين نتمدّد عليه ونحكي تفاصيل تاريخنا المرضي لاكتشاف بداية العِلَل، يدفعك إلى الكذب حتى لا يُكشَف سرك. ثم تنهض وأنت تعلم أن ما أخفيته أعظم مما قلته، وتخفي في نفسك ما الله مبديه. فكيف تبوح به؟

والعشقُ في عُرفنا مُحرَّم، والمجاهرون به أعظمُ إثمًا! سيُخبرك الطبيب عن الاكتئاب والحزن، وكلّ ما درسه، ليُلخّص حالتك بأفضل الطرق العلاجية.

حكى لي عاشقٌ عن تجربته قائلًا: سألتُ طبيبي ذات مرة كيف أتعامل مع السارق، فقال: تتوجّه إلى القضاء. فقلت له: إذن سأُقاضيها لسرقة قلبي! كادت إجابتي أن تُحوّلني إلى مستشفى الأمراض العقلية.

- ومن قال إن الجنون مرضٌ مجهول العلّة؟

فهناك بشرٌ بقلوبٍ كالقطن، حوّلتها شرارة الحب رمادًا في ثوانٍ. أما كان مجنونُ ليلى عاشقًا؟! لم يبقَ أمام العاشقين إلا الطب الشعبي، ولربما لو علموا أن الحب يجري في دمه، لنصحوه بالحجامة حتى آخر قطرة من دمه.

تذكّرتُ وأنا في الصف الأول الثانوي، حين طلبتُ من صاحبي أن يكتب لي رسالة لإحدى الفتيات، فكتب: "أنَّ حبكِ كل ما أملك، ويا له من حب! بسببه لا أسمع إلا صوتكِ، ولا أشم غير عطركِ، ولا أكتحل إلا بكحلكِ، ولا أعيش إلا من أجلكِ. نعم، وأنتِ بين يدي، أسرج قيثارة قلبي لتتراقص رقصة العشق لمن أعشق. وتبقى الكلمات، لا بدّ من مغزاها: إنني لا أهواكِ لجمالكِ - وإن كان يأسر الألباب - بل أهواكِ لأنكِ أنتِ".

والمضحك أن هذه الكلمات كانت هديتي لكل من عرفتهن، ولم تُهدى إليكِ أبدًا يا هناء...

أسطرٌ بسيطة وقعت عليها القلوب، واليوم أكتب روايةً أنتِ بطلتها ولا تهتمّين. أمَشغولةٌ لهذا الحد؟! عجبًا، ألا تُعجَبين بقلمٍ أنا سيّده، وبروايةٍ تتعطّر بمفرداتي المخملية لينتشر عبقها لكلّ من حولي؟ فكم علامة تعجّب تكفي لتغطية حيرتي؟

ستمضي الأيام تِلوَ الأيام، ويزداد نُضجي. دروسٌ تعلّمتها: لا شيء يستحق الانتظار، وتُخطُّ المستحيلات بمغامرة.

أكتب الآن وأنا على يقين أن الحياة لا تسير على وتيرةٍ واحدة؛ فلا تَضجر عندما يضيق بك الحال يومًا، أو تتعثّر خطاك في وقتٍ من الأوقات. خُذ من هذه التجارب الخبرةَ والدروسَ والعِبَر، واحذر أن يكون اليأس ثوبًا لك.

فكم من عبدٍ ضاقت به السبل، ثم فُتحت له أبوابٌ من حيث لا يحتسب، وكم من ظلمةٍ خُيّل له ألا فجر بعدها، فأشرقت شمسها بأمر ربها.

وإن طلبتُ منكِ اللقاء بلا حرب،
حتى لو أخبرتِني أنّكِ قادمة دون أسلحة،
وأنّ ثورتكِ نَحوي سِلمية،
فكيف لي ألّا أَخضع أمام حدّة جمالكِ؟
وكلّ صفاتكِ أسلحةٌ تُدميني.

أتعلمين لماذا أكتب الآن؟

كان "قلمي" ينتظرني منذ الصغر... صامتًا وفيًّا، حتى أكبر وأجيء إليه بأوجاعي، ليحملها عني دون شكوى، وكأنه خُلق ليحتضن ما عجز عنه صدري.

كنت ألامس دفء صفحاتها بأطراف أصابعي، كأنني ألمس جلدها الناعم، حيث ينبض كل حرف بشوق لا يُروى. رائحة الورق تختلط بعبيرها الساحر، فتغمر روحي بفيض من الحنين. لا أملأ الأوراق حبرًا فحسب، بل أنفاسي ونبضي المتراقص، أُسقيها بكل شغف، أغزل بين السطور خيوط حبٍّ لا تنطفئ، تهمس بها الأرواح قبل الشفاه.

أيتها الآسرة ...

كل صباح أستيقظ فيه وأنا على قيد الانتظار، وفي رأسي بقيةُ إرهاقٍ من حبّة نومٍ متأخرة. أترك أحزاني، التي تنهض معي على سريري، لأغتسل منها.

أتمدّد على تلك الأريكة، وأشعر حينها أنكِ تتسلّلين داخلي خفية، دون أن تُلقي السلام، وتلصقين ذكرياتكِ وعطركِ على جدران صدري. أليس إلقاء السلام سُنّةً عينٌ على مَن انفرد؟ أبتلع خيبتي وذُلّي وأصمت، وأنا على يقينٍ أنكِ لستِ امرأةً، بل قدر! قدر يجعلني أحشر حزني بين أسناني، وقلبي يحترق بصمت.

صدّقيني، ولو لمرة،

أن ما بين أضلعي قلبٌ وليس صخرة.

كن بطلا وأنت تخسر ...

عنوان دورتي التي قدّمتُها اليوم في تمام الساعة السابعة مساءً، كان عدد الحضور كبيرًا. أحسستُ بشيء من الخوف يتسلّل إليّ، فحاولت أن أشتّت ذلك الخوف بابتسامة وقلت: صباح الخير. ابتسم البعض، وردّوا مساء الخير. كرّرت بهدوء: صباح الخير، فالتفت الجميع نحوي هذه المرة، وقالوا بصوت واحد: مساء الخير. ابتسمت حينها وقلت: دعوني أحكي لكم قصة صبّحتُها عند المساء.

دخل أحد الشعراء على الأمير المهلّبي في العراق، وكان المهلّبي وزيرًا مهيبًا، غضوبًا عبوسًا. دخل الشاعر عليه وقت المساء، وقد أراد أن يقول: كيف أمسيت أيها الأمير؟ ولكن من رهبة الموقف وغلبة الخوف قال خطأً: كيف أصبحت أيها الأمير؟ فالتفت الأمير إليه بحدّة وقال: "هذا مساء أم صباح؟!" فأطرق الشاعر رأسه قليلاً، ثم رفعه بثقة وقال:

صبّحته عند المساء فقال لي

تـهزأ بقـدري أو تريد مـزاحا؟

فأجبته: إشراق وجهك غرّني

حتّى توهّمت المساء صباحا!

صفق الجميع لمقدمتي، واختفى الخوف من قلبي، وبدأت الدورة بسلاسة وثقة. وقبل أن نصل إلى ختامها، رويت لهم قصة معروفة تحمل معنى عميقًا. يُحكى أن البطل الهندي "غاندي" كان ذات يوم يجري مسرعًا للحاق بقطار بدأ في التحرك، وأثناء محاولته بلوغ القطار سقطت من قدمه إحدى فردتي حذائه.

وفي لحظة سريعة وتصرّف تلقائي، خلع الفردة الأخرى ورماها تجاه الفردة التي سقطت. لم يغضب غاندي، ولم يحاول استرجاع الفردة الضائعة، إذ كان يعلم أنه لن يتمكن من الوصول إليها.

رأى البعض هذا المشهد فظنوا أنه فعل ذلك غضبًا أو سخطًا، وهو المعروف دائمًا بهدوئه وحكمته. وعندما سألوه عن سبب فعله، أجاب مبتسمًا: "أردت أن يجد الفقير الذي يعثر على الحذاء فردتيه معًا، فينتفع بهما بعدي."

فهكذا يكون التعامل مع صعوبات الحياة ومتقلّباتها وسقطاتها؛ بدلًا من الغضب والجزع، يمكن بسهولة تحويل أصعب المواقف وأعسرها إلى لحظة تاريخية مجيدة، أو لوحة عطاء وحب خالدة، فتلك الأيام نداولها بين الناس.

انتهت الدورة، وقام الكثير من الحاضرين بمدحي وشكري، ولم أكن أتوقع هذا القدر من الإعجاب والتقدير.

عدت إلى منزلي، استحممت وصليت صلاة الشكر، ثم جلست على أريكتي وبيدي كوب قهوة دافئ. فتحت كتاب Life Force، وبين صفحاته لفت انتباهي حديثٌ عن كيفية الاستيقاظ كل يوم بطاقة متجددة، وجهاز مناعي أكثر مقاومة، إضافة إلى طرق فعّالة تساعد في إعادة ضبط الساعة البيولوجية للجسم. كانت لحظة هادئة من التأمل، حيث اجتمع في هذا المساء إنجاز العمل، وامتنان القلب، وتأمل العقل.

عكفتُ هذه الليلة على القراءة، ولم أسعَ يومًا إلى أن أكون قارئًا متميزًا، ولم أُخطط أن أصبح كاتبًا. كل ما في الأمر أنني ذات يومٍ اشتريت دفترًا وقلمًا من مكتبة جرير، وبدأت أكتب سرًّا عن رغباتي وأحزاني. ثم شيئًا فشيئًا، كتبتُ علنًا عن تلك الآسرة، وعن نظام العمل السعودي، ثم عن هناء. وهكذا، أصبحت الكتابة عندي عادةً يومية ترافق القراءة جنبًا إلى جنب.

ها أنا ذا، أكتب لأعزّي نفسي في ليلة شتاء باردة. أكتب لامرأة خُلقت من ضلع أعوج، وأكتب لامرأة خُلقت من نار. أكتب لأن الكلمات وحدها تحتملني حين لا يحتملني أحد. أكتب ولا أبوح، أشعر بألم يصعب احتماله، ومع ذلك جعلتُ من صمتي كلامًا.

أنا لا أكتب ليُصفّق لي الآخرون، فلستُ ممّن يختبئون خلف الظلال، ولا ممّن يجمعون من حولهم الكثير ليشعروا بالقوّة. أنا واحد، لكنّي بقوّة عشرة، أنهض مرارًا وتكرارًا دون أن أطلب يد العون. ما زلتُ قويًا كما عرفتُ نفسي دائمًا، ولن أعود كما كنت ما حييت. وإن كُتب عليّ أن أعود، فسأعود مختلفًا... لا أشبهني.

فأنا لا أشبه كتاباتي، وإن كتبتُ بقلم موجوع، يكاد الحزن فيه يفقد وعيه، ويركع أمامي ذليلًا، مكسورًا، يتضرّع الخلاص. قلمي ليس سوى إصبع آخر من أصابعي، ينزف حين أعجز أنا عن البكاء، ويهتزّ حين تضيق روحي بما لا يُقال.

أوراقي ليست سوى طيف ماضٍ أتقنتُ رسمه بحروف صامتة، تعرف عني أكثر مما كنتُ أجرؤ على البوح به. هو قلمي، شاهد ضعفي، ورفيق أسراري، كلما ألقيته جانبًا عاد إليّ كأن بيننا عهدًا لا فكاك منه. ولعلّه يعود لأن النفس لأمّارة بالسوء، فتدفعني دائمًا للبوح حين أظن أنني انتهيت.

(خلف كبريائي ضعف يحبكِ)

- هل الحب حقًا نعمة؟

- هل أنا مُحرَمٌ من نعمة الحب؟

- ما هو الحب الذي أبحث عنه؟

أيتها الآسرة...

لو أجبتِني عن سؤال واحد فقط، ربما أستطيع فهم علّتي بكِ. أخبري قلبي الحقيقة، لعلّه يُصدّق أن هذا الحبّ حبٌّ مؤذٍ، يجاهد من طرفٍ واحد. كالعادة، أنا لا أحب حين أردتُ أن أحب، ولكني أحزن على رغباتٍ غير مُلبّاة؛ حاولتُ جاهدًا إتمامها، لكنها بدت مكسورة. لم يكن الحبّ قرارًا اجتهدتُ في أخذه، بقدرِ ما كان قدرًا اجتهد في أخذي.

هذا الحب أشبه بالملعون في نظري...

ناقصٌ ولا يمكن أن يكتمل يومًا. يأتي بما يكفي لنحترق، ثم ينسحب سريعًا ويتركنا في مواجهة هذه النار، قائلًا: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ الأنفال، الآية ٤٨ هذا الحب لصٌّ سرقنا من الحياة، وعلّقنا في غيمة سوداء ثم رحل. رحلتِ عني وآذاني الحب، وتضخّمت ذاكرتي بالأوجاع.

عفوًا، أيتها الأسرة.. أتحبّينني؟

لا أظن، لو أحببتِني لعُدتِ إليّ، ولرحمتِ ضعفي، لكنّ قلبكِ كان بعيدًا، يختبئ خلف ستار من الصمت، صمتٌ ثقيلٌ كالصخر، لا يسمع له إلا صدى وجعي، وكأنكِ وجدتِ في البُعد ملاذًا لا يُقاوم، فتجاهلتِ أنني ما زلتُ هناك، أنتظر.

- لكن كيف لكِ أن تغلقي أبواب القلب في وجهي؟

- فكيف لكِ ألّا تبصري؟

- أخلِقتِ لتودّعيني؟

كانت "الآمال" تنتظرني حتى أكبر، لكنها كانت تكذب عليّ! همست لي يوماً: لا تطارد نجمة هاربة، فالسماء ملأى بالنجوم، ابتسمتُ ومضيتُ، وعرفت متأخرًا أن النجوم بعيدة، والأقمار لا تأتي، وما قيل كان عزاءً لحزنٍ مقيمٍ لا يغادرني.

وأنتِ تمضين، تتركين خلفكِ فراغًا لا يُملأ، وصدى وعودٍ لم تُكتب، كأنكِ سرابٌ في صحراء قلبي، أناجيكِ في صمت الليل، وأنا أسير وحيدًا في ظلال الذكرى، أسير بلا دربٍ، بلا وجهة.

كيف تقولين إنكِ تحبّين أشياءكِ وماضيكِ، ثم تتركينني، وأنا كنتُ دفترِكِ المفتوح حين ضاقت بكِ الحياة، كنتُ الأصدق، لا لأنني قلت، بل لأنني بقيت.

لو كنتُ على دينٍ غير الإسلام،
لظفرتُ بكِ دون تردّد،
لكنّي لا أطيق أن أكون مُخبِّبًا،
ولو على حساب قلبي.

عندما كنتُ جالسًا في مكتب استشارتي أرتشف قهوتي، دخلت السكرتيرة وقالت بهدوء: "لديك موعد لجلسة استشارية"

دخل إيتان! ساد الصمت لوهلة قصيرة. استغربت حضوره، وقبل أن أتمالك نفسي، قلت له بعفوية: "الاستشارات هنا ليست مجانية"

فقالت السكرتيرة: لقد دفع مبلغ الاستشارة. ثم سحبت الكرسي أمامه بلطف وقالت: تفضل. جلس على الكرسي بهدوء، ثم طلب منها كوب قهوة وكأنه يحاول أن يُحلل مبلغ الاستشارة!

بعدها نظر إليّ وقال بنبرة جادة: عندي مشكلة وأحتاج استشارتك. تقدّم قليلًا في جلسته، وأسند كفيه على الطاولة وقال بصوت متعب: زوجتي كلما اقتربتُ منها، رفعت يدها وكأنها تستوقفني بحجة مرهقة، فتقول بهدوء أو بتململ: "أنا متعبة... إنها الدورة الشهرية" تكررت كلماتها حتى فقدت معناها، وصار العذر مكررًا أكثر من اللازم، وفي أوقات لم يكن منطقها يقبل هذا التبرير.

لم أعد أعرف إن كانت الحقيقة وجعًا جسديًا أم ستارًا تخبّئ خلفه نفورًا لا تبوح به. عنادها لم يكن غضب لحظات، بل أصبح جدارًا تتكئ عليه كلما أرادت الابتعاد، وكأنها اختارت هذا العذر لأنه الأعذر، لا يُسأل عنه ولا يُناقش... أريد حلًا، أيها المستشار.

صمتُّ وأنا في ذهول، واعتذرت لهناء في نفسي خجلًا. ثم تمالكت أمري وقلت بهدوء: تفضّل، خذ مبلغ الاستشارة؛ فأنا أقدّم استشارات إدارية وعمالية وجنائية... وليست أسرية.

أخذ رشفة من قهوته، ثم ابتسم وقال بإصرار: بحكم أنك مستشار معروف، أكيد سأجد عندك الحل.

قلت: إذا كان الحال كما وصفتَ من سوء العشرة واستحكام الخلاف، وعجزك عن تحمّل استمرار الحياة مع زوجتك فأنت بذلك تكره أن تقع فيما يكره الله، وتخشى ألا تقيم حدود الله كما أمر. واستمرار الحياة الزوجية بينكما في هذه الحالة أمر لا يُطاق، وقد قال الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ البقرة: ٢٨٦

وتذكّر أن الحرج والمشقة والأغلال قد رُفعت عن هذه الأمة، وعليه، فإذا تعذّر الإمساك بالمعروف، فالمخرج المشروع هو التسريح بإحسان، امتثالًا لقوله تعالى: ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ البقرة: ٢٢٩

فكّر مليًّا، واتّخذ قرارك بروية، فالدين يُسر، والله لا يُريد لعباده العنت ولا المشقة.

قال: لا أستطيع أن أطلقها، وزواجنا زواج أبدي.

فقلت: كيف زواج أبدي؟

فقال: لن تفهمني، ثم قام وخرج من المكتب.

لأول مرة أبخل في تقديم استشارة، وأقدّم استشارة في غير محلها. لم يكن لدي حل، وكأن لساني انعقد ورفض أن يكون ناصحًا. تذكّرت رسالتها حين قالت: "فكان الزواج نجاتي، أنا بخير، فلتكن كذلك." لماذا لم تكوني بخير؟ أليس الزواج نجاتكِ؟

الشيء الوحيد الذي يشفع غيابكِ أنكِ ساعدتِني، والشيء المخجل أنني ظلمتكِ وأسأت أدبي مع الحب بين كتاباتي. لم أستطع أن أتجاوزكِ، وأنتِ لم تستطيعي أن تعيشي مع إيتان. كم كانت هذه المعادلة صعبة يصعب فهمها! نحن وجدنا لنؤلم ونتألّم، ننتصر ونخسر، نحب ونكره، نكفر ونؤمن. نحن مجرد مخلوقات صفتنا الأساسية الضعف، والتغيّب، والغفلة.

لكننا ندرك أن الحذر نجاة، وأن الخوف - رغم قسوته - سلاح ذو حدّين؛ من أساء استخدامه وقع في شرّه، ومن أحسن استخدامه فقد فاز بفكّ أهم ألغاز تلك المعادلة الصعبة.

لماذا لم أقدم لإيتان الاستشارة؟

- ألا تستحق هناء أن تعيش حياة طيبة؟

- أليس أن الحب أخلاق قبل أن يكون مشاعر؟

- وأن الاحترام أساس أي تعامل مهما كان نوعه؟

- وأن العواطف إذا تمادت أكثر من اللازم، أضعفت صاحبها، وجعلته يرى الوهم حقيقة، ويظن القيود أجنحة!

طلبتُ من السكرتيرة أن تتواصل مع إيتان وتطلب منه العودة إلى مكتبي. وبعد ساعة ونصف، حضر إيتان، فقلت له: اقترب منها، وضع يدك على جبينها، وارقِها بكلمات الحب، امنحها مئات الفرص، اخترع الأمل، وأتقن الحنين. اهمس في أذنها بأنها مملكتك، وملكتك، ومنطقتك المقدسة، وأن الأيام التي عشتها معها أجمل وأروع من هذه الحياة كلّها، وأنها خاتمة كل شيء في حياتك. تذكّر أن كلمات بسيطة منك كفيلة بتغيير مزاجها؛ فاللسان اللين يغلب الحق المبين. وتأكد أنها مسألة وقت، وكل شيء سيصبح بخير.

ابتسم إيتان وقال: كنت أحتاج أن أسمع ذلك، وأنا أحب هناء أكثر مما تتوقع. شكرًا لك. ثم نهض وخرج.

تحبها أكثر مما أتوقع؟ لا أظن ذلك. وضعتُ يدي على رأسي، وانفجرت باكيًا بحرقة، أقول في نفسي: إن الشمس قد غابت منذ ذلك اليوم الذي رحلتِ فيه، ولم تشرق أبدًا. وكأنكِ أطفأتِ قناديل الكون، ورحلتِ، وتركتِني أحتضر مراحل حياتي، أذبل في كل يوم. أنا لا أستحق ذلك... لا أستحق هذا الرحيل ولا هذا الخذلان.

إيتان ثقيل كأعمار الظالمين، يمشي كل مساء فوق رأسي كعنكبوت أحمر، ينسج بين طيّات ذاكرتي كل تفاصيلكِ وذكرياتكِ، حتى لا أنساكِ، فتظل ثابتة في أوراقي ولا تغيب أبدًا.

هناء ...

هذه حياتي، أؤجّلها حتى يحين لقاؤكِ. يكفيني أن أعيش بين طيفكِ وعطركِ، وأن أكتبكِ كل يوم في مذكّراتي.

جثوتُ على الأرض أرتّب نبضات قلبي وأنظّمها، وما زال ذلك الجرح ينزف، وقطار الحزن ما زال يحملني بلا توقف، فلا رصيف ولا محطات.

أبدعتُ لإيتان بالقوة، وفي داخلي مدن من الأحزان، وكأنني ضرس منخور حتى العصب. ها أنا ذا أكتب هذه الرواية من كلماتٍ وإحساسٍ ووجع، وأقدّمها قربانًا لكِ.

أذكركِ، لأملأ بكِ سطور انهياري، وأرمّم ما تصدّع، وإن مات هشيمًا بين يدي. أحاول جاهدًا أن أبدو مجديًا رغم غيابكِ، فقد أحببتكِ بطريقتي... خارج العُرف، وخارج ما تعوّد الناس. كل شيء ينكسر، لكن القليل فقط يُجيد أن ينحني ليجمع شتاته ويقف من جديد.

فتحتُ كتابي أبجديات الأناقة على الصفحة (١٠٣) دون قصد، وقرأت ذلك العنوان المكتوب: "تذكر أن قليلا من التفاؤل يصنع ألف طريق نحو السعادة: الحياة هي الميدان الكبير الذي لا يعبره إلّا الإنسان المتفائل. فكم من شخص يملك من المواهب ومن القدرات الشخصية التي تؤهله للنجاح في الحياة! ولكن بسبب افتقاده للتفاؤل تفوته الكثير من فرص النجاح. على العكس من الشخص المتفائل باستمرار، والواثق في أن الحياة سوف تبتسم له وسوف تعطيه أفضل ما عندها، فهذا الشخص المتفائل هو الذي يستطيع دون غيره أن يعبر ميدان الحياة في الاتجاه الصحيح مهما كانت صعوبات الحياة".

في هذا الشهر، قدّمت ثلاث دورات تدريبية عن نظام العمل السعودي، وكتبت خمسًا وستين صفحة في مذكرتي، وقرأت كتابًا عن نظام القانون الجزائي العام. دخلت اختبار القدرة المعرفية، وحضرت خمسًا وعشرين جلسة قضائية عن بُعد في الصباح، وكتبت مذكرات دفاعية واعتراضية.

كسبت عشرين قضية، وخسرت أربع قضايا، واستأنفت قضية واحدة، وقدّمت خمسًا وأربعين استشارة. مشيت عشرين كيلومترًا، وحاولت أن أشتّت أفكاري، وحاولت أن أنساكِ يا هناء... ولم أستطع!

كنتُ أنجز مهامي وكأنني أهرب منكِ، أُرهق جسدي لأريح قلبي، وأُثقل يومي كي أخفف وطأة ذكراكِ.

لكن الحقيقة المؤلمة هي أنكِ كنتِ ترافقينني في كل دورة، وكل صفحة، وكل جلسة، وكل خطوة... كنتِ الحاضر الغائب الذي لم يغادرني يومًا، مهما حاولت.

وكأنني كنتُ أبحث عن هدايةٍ من هذا التوهان، حتى وُجدتُ ضالًّا فهُديت إلى حقيقة أن الهروب منكِ كان هروبًا نحوكِ، لا عنكِ!

تجاوزتُ كل ما أشعر به،

وأنا بخير.

لكنني لم أتجاوزكِ... وكأنّكِ تنوين قتلي!

عند المساء، يعبث بي الحنين، ويأتي بكِ شافعًا متوسّطًا، فيجعل من كتاباتي اعترافات مفضوحة. مع كل غروب، أراه راكضًا يجوب تعرّجات عقلي ثم ينفذ إلى قلبي، ينبش فيه عن ذكرياتكِ.

كتبتُ عنكِ ما يُباح وما لا يُباح، تحت إضاءة صفراء في زاوية مكتبي، وفي صدري عويل جائع لا يشبع إلا بالكتابة.

- هل رأيتِ أصابع تبكي؟

أنا من بكتكِ أصابعي في سطور. أسعى إلى الخلاص بلا خلاص، أرغب بالهروب وأحتاجكِ بشدّة. من أنا؟ ومن أنتِ في حياتي؟ تحت أي مسمّى وأي اعتقاد أضعكِ؟ أم أنكِ ببساطة قدرٌ كُتب عليّ ألا أفهمه وألا أنساه؟

أتعلمين لماذا أكتب؟

لأنه فار التنور في نفسي، وبدأ جوفي يفيض بما حوى، وعقلي يمطر ذكرياتكِ. ظننتُ أن الكتابة ستعصمني من الغرق، لكنها أغرقتني بين سطوري.

لا أجد لنفسي طريقًا إلا الكتابة، لذلك أكتب، أُصيب وأُخطئ، أضعف وأقوى، حتى تجف أرضي، وحتى ينضب الحرف أو تنضب الروح، أيُّهما يسبق. ثم، كأن رؤوس الشجر تبدأ بالظهور، وتسكن بها كلماتي، فانفجرت منها عيون الحروف، تسقيني بعد جفاف، وتُهدّئ لوعتي حين ظننت أن لا خلاص.

غادرتُ أرضها بحثًا عن النسيان،

لكنّها كانت مستوطنةً في فؤادي،

أحملها أينما رحلت!

كنتُ بحاجة في هذه اللحظة لأن أستريح من ضجيج ذكرياتكِ، ومن فوح عطركِ وهمس طيفكِ. حجزتُ رحلة إلى إندونيسيا برفقة سلطان وعبد الله. وعند صعود الطائرة، اتصلت زوجة عبد الله باكية، وقالت له: أمانة، لا تقترب من النساء وابتعد عن المسكرات، فهي أمُّ الخبائث ومجمع المصائب. ابتسمتُ لعبد الله وقلت: هكذا هي عادة الزوجات السعوديات، ولا عجب في ذلك. والحمد لله أنها لم تضع في حقيبتك كتابًا عن "الإيدز"، أو "تُحَلِّفك اليمين الغموس"، أو "توصيك بألّا ترتكب الموبقات".

قال عبد الله: بمجرد أن علمت زوجتي أن سلطان معنا في الرحلة، بدأت تشك فيّ. ضحكنا بشدة حتى جلس سلطان وقال مستغربًا: ما كل هذا الضحك؟

أجاب عبد الله مبتسمًا: موقف أضحكنا فقط. وعند الإقلاع، تمسّك سلطان بمقعده خوفًا، وكأنه يتمنى لو استطاع السفر عبر القارات بالسيارة، فكان يرى السفر بالطائرة عذابًا لا يُحتمل.

بعد دقائق، ظنّ سلطان أن زر استدعاء المضيفة هو زر تعديل المقعد، فظلّ يضغطه بتكرار، حتى جاءت مبتسمة وقالت: أستاذ، أتحب قهوة أم الشاي؟

لكن الطائرة هبطت سريعًا في مطار جاكرتا، كأنها تمسح على كتف سلطان وتقول: هوّن عليك، قد انتهت الرحلة، وخرجتَ سالمًا.

نزلنا في فيلا بمنطقة بونشاك، كانت جميلة وتضم ثلاث غرف بملاحقها وصالة كبيرة. في اليوم الأول، قام سلطان بإحضار امرأة وسماعة كبيرة، وبدأت سهرة سلطان الصاخبة، بينما أنا وعبد الله دخلنا لننام بعد رحلة طويلة منهكة. كانت الموسيقى صاخبة ومزعجة، وبعد ساعات لا أعلم كم لبثنا، صحوت على صوت سلطان وهو يقول بدهشة: "المرأة طلعت رجلاً (شيميل)!" لا شعوريًا، ضحكت وتذكرت أغنية ديانا حداد "غلطتي سوء اختياري، غلطة الشاطر بألف"، وكأنها كانت تقصد سلطان تحديدًا.

يومين كاملين وأنا وعبد الله نضحك على سلطان، فحياتي لا تخلو من قصص وطرائف سلطان. أذكر أن سلطان كان على علاقة عاطفية مع إحدى الفتيات، لكنها انتهت بخلاف بينهما، حتى إن الفتاة باتت تكرهه بشدة. وبعد أشهر من انتهاء العلاقة، وفي يوم عيد ميلاد سلطان تحديدًا، أرسلت له تلك الفتاة رسالة كتبت فيها: "يا ليت والدتك لم تأتِ بك!"

وأحيانًا كان يتربع على مكتبي وكأنه مدير التحرير، يصوّر بعض الأوراق، ثم ينسخها بخط يده ويرسلها إلى بعض الفتيات مدّعيًا أنه الكاتب. هذا هو سلطان... صاحب القلب الطيب، وشريك النكت الثقيلة، بسيط بطبعه لدرجة أنه يعتقد أن الفاصلة اختراع ديكوري! كان يرى الحبر مثل "الكحل"، يزين الكلام فقط.

في اليوم الثالث، وبعد صلاة الفجر، نزلت إلى الطابق الأرضي، وما إن دخلت الحمام حتى طرق أحدهم الباب. قلت: من؟ فجاءني صوت قائلًا: أنا. ترددت في فتح الباب، لكن الصوت كان صوت هناء. فتحت الباب ولم أجد أحدًا. خرجت أبحث عنها، لكن المكان كان خاليًا. بدأت ذكرياتكِ تتجمع حولي، فتحت النافذة لأشاهد شروق الشمس، وأصوات العصافير تعلو بالتغاريد. شعرت وكأن الألوان تستعيد زهوها. مسحت ذكرياتكِ من حولي، وأكملت المشاهدة حتى نزل عبد الله وجلس على الأريكة، ثم سألني: هل دخلت حمام غرفتي قبل ساعة؟

فقلت: لا.

فقال عبد الله: كنتُ مستلقيًا على السرير أشاهد مقاطع على اليوتيوب في هاتفي، حين فتحتَ باب الغرفة ودخلتَ الحمام دون أن تلتفت إليّ. بعد ذلك بدأتُ أسمع صوت الماء، ولاحظت أنك تأخرت في الخروج. وعندما فتحتُ باب الحمام لأطمئن، لم أجدك!

فقلت له: الأمر عادي، فهذه الفيلا لا يسكنها أحد طوال السنة، ولعل من دخل الحمام كان من سكان المنزل الأصليين. وفي قرارة نفسي، كنتُ موقنًا أن الفيلا مسكونة، فقد كنت أسمع أصوات أناس دون أن أراهم! لكنني لم أفصح عن ذلك حتى لا أفسد عليهم متعة الرحلة.

تنقلنا بين بحيرة الليدو وحديقة سفاري بونشاك وحديقة الفواكه وحديقة الزهور ثم وصلنا إلى الشلالات السبعة، حتى انتهت رحلتنا إلى المطار. وعندما جلستُ في مقعد الطائرة، تذكرت رسالتكِ وذاك الرجل وتلك المرأة والمضيفة. فتحت الحقيبة علّي أجد رسالة منكِ تواسيني أو تطمئن قلبي، لكنني لم أجد سوى صدى ذكرياتكِ. اليوم أنا قليل الحيلة، وأنتِ بعيدة عني؛ كأنكِ أنتِ والنجوم سواء في البُعد، لا أستطيع الوصول إليكِ مهما مددت يدي أو بسطت أمنيّاتي.

ما زلت أنام وأصحو على نغمات وجمال الماضي، رغم انكسارات قلبي وتعب روحي، ومع ذلك يهمني أن تكوني بخير، وأن تظل ابتسامتكِ مشرقة كما عهدتها، رغم أن نصيبكِ قد مضى لغيري.

أعترف أنني أشتاق، لا للعودة وحدها، بل لتلك اللحظات النقيّة التي جمعتنا ذات زمن مضى. وإن كنتِ اليوم بعيدة، فدعيني أُخبركِ أن طيفكِ لا يزال يرافقني في كل الأماكن التي عبرناها سويًّا، وفي كل مشهد يلامس قلبي.

كوني بخير دومًا، ولا تدعي الحزن يمحو نور عينيكِ أو يطفئ تلك الابتسامة التي كانت لي وطنًا.

أثناء دعاء السفر، روى سلطان قصة حبّه مع "إندونيسية" ظل يراقبها من النافذة، لا تأكل ولا تتحرك. في النهاية اكتشف أنها عباءة معلّقة! همست لعبد الله: يبدو أن سلطان يحتاج نظّارة، فضحكنا طويلًا... وكانت أظرف ذكرى في الرحلة.

لفت انتباهي أن امرأة كانت تغيّر حفاضة طفلها على الطاولة نفسها التي ستأكل عليها. اقتربت منها المضيفة بملامح غاضبة، وقالت بلهجة حازمة: إن ما تقومين به غير لائق، وهناك مكان مخصّص في الحمام لهذا الغرض. لكن المرأة تجاهلت كلام المضيفة تمامًا، وكأنها لم تسمع شيئًا.

وبعد نحو ساعة، قامت بتعليق ملابس طفلها المبلّلة على مكيف الهواء داخل الطائرة لتجفيفها. لاحظت المضيفة ما فعلته، فتقدّمت نحوها قائلة بنبرة أكثر صرامة: لو سمحتِ، هذه التصرفات غير لائقة. ثم سحبت الملابس من مكانها وسلمتها في يد المرأة بحزم.

هبطت الطائرة في مطار جدة الدولي، وكأنها قد ضاقت ذرعًا بسبب سلوكيات تلك المرأة. وصلت إلى منزلي، فأسكّت نفسي من روائح الملابس المبللة، وأخذت أُعطر الحمام بعطور زهور اللافندر وأضأت الشموع. ثم استرحت في الجاكوزي، حيث كانت المياه المتدفقة تلامس قدمي بهدوء مزعج. وما هي إلا دقائق حتى احتلت رغوة الصابون المكان، وحينها سلمت نفسي تمامًا لهذا الهدوء.

جلست على أريكتي، وفجأة رن هاتفي. رددت على الاتصال، ولكن لم يكن هناك أي صوت. أغلقته وأعدت الاتصال بالرقم ذاته، لكن تبين لي أنه كان رقمًا خاطئًا.

وما هي إلا دقائق وتأتي رسالة من موقع المركز الوطني للقياس تخبرني أن درجة الاختبار التي حصلت عليها (٨٠) كانت درجة لا بأس بها. بينما إيتان صاحب القدرات حصل على الدرجة الكاملة وضمن مقعده بقلب هناء!

مضت شهور ولم يعدكِ الحنين ...

- لا أعرف كيف قدرتِ على الغياب؟
- كيف تمكنتِ من أن تكوني قاسية إلى هذا الحد!؟
- أيعقل أن جميع الأمور السيئة تبدأ من البراءة؟

لمحتكِ قبل يومين تجلسين مع إيتان في المقهى (أورت)، تعبثين بالدبلة التي أهداكِ إياها، كما أتوقع. جلست في زاوية بعيدة أراقبكِ، أراقب قدمكِ التي تهتز بهدوء وغنج ناعم... وأنا هناك، أختنق بين الصمت والكلام. كأنفاسٍ محبوسة في زجاجةٍ لا تُكسر، أغرق في بحرٍ من الأسئلة التي تلتهم روحي!

كنتِ تزيحين شعركِ بنظارتكِ وتنظرين إلى هاتفكِ المحمول، تكتبين شيئًا، وكان فضولي يحترق لمعرفة لمن تكتبين؟ بينما إيتان يظل يتأملكِ بابتسامة هادئة ويقدم لكِ قطعة من الشوكولاتة.

ليتكِ تنظرين إلى قلبي وما فعلتِ به، ليتكِ تدركين كم أنه يتألم كلما نظرتِ إليه بنظرة لا تحمل سوى العبور العابث، وكأنكِ لا تعيرينه أي اهتمام.

كنتُ أراقبكِ وأشعر بأنني ضائع في مشهد كنت أتمناه لي، ولكن في الواقع كان لي قلب مليء بالحزن. هل تعلمين يا تُرى ما يعني أن تراقب من تحب وهو يبتسم لآخر بينما قلبكِ ينكسر ببطء؟ ليتكِ تدركين كم كنت أحتاج إليكِ، لا كما أنا اليوم، بل كما كنتُ يومًا، معكِ.

لكنني تعلّمت أخيرًا أن الحب ليس استجداء، وأن القلب الذي يُتعبه الانتظار لا بد أن يرتاح يومًا... ولو بالغياب.

لا داعي للانتظار ...

وإن كانت "ذكرياتكِ" مثل الفضة، تتسخ ولا تصدأ، تمتمت بداخلي ولممتُ أوراقي وحملتُ حقيبتي، لكنني لم أستطع انتزاعكِ من عقلي.

كنتِ تقرعين قلبي، ترقصين وتدورين بين أنسجته. أراكِ في عيني، أشم عطركِ، وأستشعر حضوركِ كممسوس. عبثتِ بحواسي كما عبثتِ بقلمي وورقاتي... وهذا جزاء من جنس العمل.

تبًا لي، كيف استطعتِ أن تتركي في قلبي هذا الفراغ الذي لا يمكن ملؤه، وهذه الذكريات التي تلاحقني في كل لحظة؟ كلما حاولت الهروب منكِ، كانت عيناكِ تلاحقاني من بعيد، تهمسان في أذني أنني لن أكون سوى الأسير الأبدي لوجودكِ، رغم كل المسافات والظروف.

يكفي أنكِ مع إيتان، يحبكِ ويتأملكِ، ويكفيني أن أكتب لكِ. فأنا أجيد أبجديات الحزن منذ رحيل تلك الآسرة.

- هل قانوني هو الوقوع في حب الإنسان الخطأ؟

- بماذا تشعرين عندما يحدثكِ قلبكِ عني؟

- كيف أتخلص من عادة انتظاركِ؟

- كيف أقنع قلبي بأنكِ مشغولة مع رجل غيري؟

حبيبتي التي لم تعد كذلك ...

بعدكِ أصيبت أحرفي بالشلل، كسرتُ وهُزمتُ وخُذلتُ. لا شيء يسعدني ولا يُغريني. كل شيء أصبح ظلامًا أكثر من اللازم. من يأتيني بقميصكِ حتى يُعيد لي بصري؟

أصبحت كل الأيام والأشياء تحمل رائحتكِ. انقباضات مستمرة، وتنهيدات متتالية. تبًا لعطركِ الذي لم يغادر معكِ.

أصارع الشوق والحنين في معركتي، وأخسركِ. ولا سامح الله ولا عفا إيتان، فلم يبذل مجهودًا وينتصر بكِ. أعلم تمامًا أن قلمي أصبح كالشرك المحرم، وكتاباتي ذنبًا ليس له استغفار. تمنيتُ أن أكون من الجان، وأن أجرى فيكِ مجرى الدم، وأترك كتاباتي التي لا تسمن ولا تغني من جوع. أحببتكِ بالقدر الذي يجعلني أفقد إحساسي بالزمان والمكان، وأضحي بأغلى ما أملك من أجلكِ.

أنا رجل يعشق كل أبجديات الحزن والصمت ...

دائمًا، لا أريد سوى أن أنسى كي أعيش، فالصمت ليس لي، وحمّلوني ذنب النوايا المجهولة. أغبط الأطفال الرُضّع، فهم وحدهم يصرخون بلا قيود، قبل أن تكبلهم الحياة، وتعلمهم كيف يكون الصمت سجناً طويلًا.

- أبكي عليكِ أم أبكي على نفسي؟

- أم أبكي على ما ضاع من عمري؟

- أم أبكي على دنيا أشبعتني ضربًا دون لمسي؟

لم أعتمد كثيرًا على أحد في هذه الدنيا، فحتى ظلي يتخلى عني في الظلمة. أشعر بالوجع حين أجد أشخاصًا يقرؤون كلماتي، ويجعلون من أنفسهم أطباء نفسيين، يحاولون تحليل شخصيتي. فكل ما في الأمر أنني أحببت امرأتين، وفشلت.

وهذا طبيعي؛ فالحياة ليست سجل انتصارات دائمة، والحب ليس مشروعًا نضمن نجاحه بشهادة. أنا أحببت، وخسرت، وعشت، وما زلت أكتب. أكتب لأستمر، لا لأُحلَّل. أكتب لأتخفَّف، لا لأُدان. وأنا وحدي أعرف معنى ما كتبت.

هناء ...

لأنكِ تغيرتِ من أجله، وبدلتِ عطركِ كما يريد، وقصصتِ شعركِ بالطريقة التي يحبها، وتخليتِ عني. بدأتِ حياتكِ كما لو أنكِ وُلدتِ في اللحظة التي التقيتِ فيها مع إيتان. ولأنكِ أصبحتِ حبيبته، وأصبح حبيبكِ، لهذا سأدع لكم الحب وأرحل! فلا خير في حبٍّ يُطلب فيه أن نمحو أنفسنا لنُرضي سواه... وأنا أحببتكِ بما يكفي لأعرف متى أضع النقطة الأخيرة.

أيتها الآسرة ...

عندما قررتُ أن أعتق قلبي وأريحه من شقاء حبكِ، همس في سري قائلاً: شقاءها يسعدني، واسمها ينعشني، وتعبها يريحني، وجراحها يحييني. فإذا أردت لي الموت، فأبعدني عنها. لم تبتعدي، ما زلتِ تسكنين دعوتي ما بين كفيّ والسماء السابعة. ولم أعد أجادل قلبي بعدها، تركته يحبك كما يشاء... فمن أنا لأمنع عنه الحياة وإن كانت وجعًا؟

مات الهوى،

ولم يترك لنا وَرثًا!

بل ترك لنا دينًا من العذاب،

نَشقى به طوال أعمارنا،

في محاولةٍ لتسديده.

لم تصفُ لي الحياة سوى(بأحلامي)

لذا أحببتُ النوم طويلًا، وتمنّيت ألّا أفيق.

أستيقظ وعطركِ على كتفي،

ليتني أعيش داخل أحلامي.

أخبريني كيف ابقيكِ لي وحدي؟

كيف للحب أن يُبسّط أفكار العاشق،

حتى يجعل من الاختطاف بطولة؟

كل شيء في الحب... مختلف!

وأن عدتِ ...

فكيف أصف فرحتي بعودتكِ؟

وأنا على يقين أن في وصفكِ تصبح البلاغة قاصرة،
وحروف اللغة العربية - بكل ما فيها -

تحتاج لأكثر من ثمانية وعشرين حرفا لوصفكِ.

وأصبح المجنون الذي لا تُكتب عليه صلاة.

فمتى تعودين؟

الشخص لا يتغير عبثًا ...

التغيير سنة كونية، بعضها إيجابي وبعضها سلبي. ومعظم محاولات التغيير تفشل بسبب عدم القناعة أو الملل، أو رغبة الإنسان في الارتقاء إلى الأفضل. ولا مانع من التغيير إذا كان للأفضل!

التغيير لا يعني أن تتخلى عن مبادئك التي تربيت عليها. لكل منا تاريخ، ولكل منا ماضٍ، ولكل منا أسلوبه الخاص في الحياة. ولكن هذا لا يمنعنا من أن نكون في الصفوف الأولى لتلك المتغيرات، وأن نكون أول المجتازين لها وأول من يحققها.

إذا تحرّك الإنسان، تحرّك التاريخ، وإذا سكن، سكن المجتمع والتاريخ. تكمن الحكمة في ألا تحاول تغيير العالم كله من حولك، يكفي أن تغير ما بنفسك أولاً إن أردت أن تعيش سعيدًا.

ستدرك ذات يومٍ أنّ جنونك لا قيمة له،

بعد أن تصبح الأيام تُشبه بعضها،

وتكون قد أهدرت الكثير من وقتك في الشرح والإيضاح

فمشاعرك تصغر عندما تكبر،

فلا تجعلها هباء منثورًا لمن لا يستحق.

حذّرتها من نارِ الحب، فلما أحبّت
جاءتني على استحياء وخجل وقالت:
(إني آنستُ نارًا)
فكنتُ لها مطيعًا كطاعة إسماعيل لأبيه.
وليتكِ كذّبتِ الرؤيا
ولم تذبحيني.

تقسى على نفسك وتظلمها...

عندما تمثل دورًا لا يليق بك، وترتدي ثوبًا ليس بمقاسك، وتنتحل شخصية غريبة عنك، وتصم أذنيك أمام صوت عقلك حتى تضمن وجودك في قلب إنسان لا يستحقك، فليس غباءً أن تتعلق بإنسان لدرجة أن تبذل له التضحيات بلا حدود.

فكل منا لديه حكاية خاصة به يتقاسم بطولتها مع إنسان آخر، يبذل فيها الغالي والرخيص حتى يضمن استمرارها.

لكن الغباء أن تسمح أن يصل بك الحال لقبول دور يتعارض مع قيمك، صدقك، ووفائك. أن تسمح بأن يختار دورك ويرسم أحداثك وتفاصيلك وفقًا لمصالحه باسم الحب والصداقة، وأن تمنحه العطاء بلا حدود، وأنت تدرك أنه مصدر الضياع في حياتك.

هو يغتال مشاعرك، وأحاسيسك، ويهين وفائك وصدقك، ولا يتوانى في استغلالك، مدركًا لحجم المساحة التي يحتلها في قلبك. وعلى الرغم من أنك تدرك ذلك في أعماقك، إلا أنك تفضل إغماض عينيك عن الحقيقة المؤلمة، رغبة منك في التمسك بأطراف علاقة تأمل أن يصلح حالها حتى لا تواجه الفراغ المخيف الذي سيخلفه بغيابه.

تستيقظ على صوت تحطم قلبك وتبعثر أشلائه. ربما تقبل أن تكون الضحية في علاقة أنت الطرف الأنقى فيها، آملاً بالتغيير. لكن ألا تدرك أنه لا بد للقطار أن يتوقف عند محطة الندم يومًا ما؟ محاسبًا ومعاتبًا لك على إهدار مشاعرك على إنسان لا يستحق، لا يهتم، ولا يبالي بك. فيزور ذاكرتك ليعرض سذاجتك أمامك، ويهديك لحظات ندم قاسية.

فلماذا تقبل بعلاقة تكون فيها مجرد وسيلة؟ الحب علاقة أسمى من أن يكون الخداع طرفًا فيها...

الندم؛ بالرغم من صغرها ككلمة، إلا أن الإحساس بها مؤلم جدًا. تُرى لماذا نشعر بالندم على أفعال فعلناها بكامل قوانا العقلية؟ والأغرب، لماذا نفعلها ونحن مدركون أننا غدًا سنندم عليها؟

- لماذا من تغير علينا كان أقرب شخص لنا؟

- لماذا من يعايرك بأسرارك، كان صديقك المفضل الذي تبوح له؟

- الذين غابوا عني أين ذهبت مشاعركم وحبكم ورسائلكم وحتى لحظاتنا الجميلة؟

- لماذا الذين تطلقوا يتخاصمون في المحاكم، وقد أقاموا عرسًا وفرحوا يومًا ما؟

لسنا ضعفاء، لكن خصمنا كان عزيزًا. صبرتُ صبرًا جميلًا، وأنتِ ما وفيتِ بهجرٍ جميل، وأملي أن يكون الصفح عند ربٍّ جميل، حيث تلتقي الخصوم وتُردّ الحقوق بلا نقصان.

سوف نعتاد، ثم ننسى،

ثم نغدو بخيرٍ، وكأن شيئًا لم يكن...

تذبل الحواف، وتفقد الذاكرة بريقها،

لكننا نعيش في حالةٍ من السلام المتردد،

وكأننا ما زلنا نبحث عن البرّ في البحر الهائج.

مثل آدم حين نجا من الغرق،

ربما نجونا أيضًا، لكننا حملنا في أيدينا ما غرق!

إنه قلبي...

ومن غيره يُجيد إتلافي؟

يُتقن فنّ السقوط كما يتقن الأقوياء فنّ الدمار.

يمضي في إهلاكي بلا رجفة...

كما قال هتلر ذات يوم:

(إذا لم أستطع أن أنتصر، فسأجرّ العالم إلى الخراب معي)

وهكذا يفعل قلبي،

إن لم ينتصر، يُفني نفسه ومن حوله في هدوء مريب.

كنت أتصفّح اليوتيوب سمعتُ أغنيةً لأنغام، كأنها اختصرت كل ندمٍ لفقدانكِ. ولو لا الحياة بما فيها من قيود لأرسلتها إليك إهداء بدلاً من كتاباتي التي لا تُسمن ولا تُغني من جوع، وكلماتي التي تسقط بين قدميكِ وتجلس أرضًا فلا - مرحبًا بها ولا سهلًا-.

غلـطتي إني خـسرتـك

أنت يا فـوزي الـوحيد

قلت لي بس ما فهمتك

كنت أظن أنـك أكيـد

وكنت مغـرور وعنيـد

كانت الدنيـا مـــلاهي

وكان صفـك لـــعبتي

أسميكِ بين كتاباتي (حبيبتي المستعارة) وتارة (أيتها الآسرة) وتارة (حبيبتي الغائبة) وتارة (عزيزي القارئ) وأخرى (هناء) أسميكِ لأعيشكِ وأنتِ غير مهتمة، عجبًا مع كل أدوات النداء، والأسماء والالقاب، لم يلفت شيء منها انتباهكِ. وكل الروايات تنتهي بالفراق... وكأنها تطبّعت بطبعكِ. لكن لا بأس... سأسميكِ اسمًا أخيرًا: "الدرس".

للآسرة ...

تلفظ حروفي انفاسها الأخيرة نحوكِ.

تمنّيت الوصول إليكِ،

لكن الموج حال بيننا،

لم يكن حبّنا كافيًا ليعصمنا من الفُراق!

تمضي الأيام تلو الأيام، وأنا أجرُّ قدميَّ كمن أثقلته سنواتٌ عجاف، وكأنكِ بجواري منذ مئة عام، أتوكّأ على عصا قهري، والخيبات تنزل على رأسي، صرتُ لا أعلم ماذا أُسمّي نفسي في حياتكِ: هل أنا عماد أم حبيب أم صديق قديم؟

إيتان... ألغى كل أسمائي وألقابي، وحلَّ محلي، حطم آمالي وألقاني على حائط الأوجاع. اليوم أنا قليل الحيلة وأنتِ بخيلة الوصل.

تمنّيتُ لو أن حكايتنا كفيلم هندي، كلما استحالت الظروف... جاءت المعجزات. وحتى هذا الوقت لم تأتِ المعجزات واستحالت الظروف، وكأن الحياة أقسمت على هزيمتي، واشتاقت لرؤية انكساري، جاء رمضان، تلاه شوال، ومرت الأيام تلو الأيام، والأحزان تسحقني، وأنا أصارع الحنين والشوق، وبين الليالي بقايا أمنيات تلاشت كما يتلاشى السراب. هل يرضيكِ حزني. هل برضيكِ أن تنتهي حياتي هكذا؟ أما أنا فقط رجلٌ أحبَّ بصدقٍ فابتُلِي؟

إلى اللقاء سأتركِ مع إيتـان. إلى اللقاء سأتركِ مع ورقاتي.

أخوكم

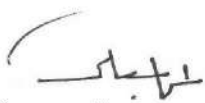

عماد بن عبد الحميد طباخ

أنت، يا من تقرأ ورقاتي الآن... قُل لي بصراحة:

هل مرّت أنفاسي على قلبك؟

هل التقطتَ بثّ الحب والوجع الذي خبأته بين السطور، كما يُخبَّأ السرُّ في حضن الليل؟

كيف هي مشاعرك الآن؟

هل ما زالت تحت قبضتك، أم أفلتت منك، تركض في إثرِ من لا يلتفت؟

أم أنك، مثل حروفي، تهيم خلف من لا يسمعك؟

أم تركض خلف شخص آخر؟

ختامًا لثرثرتي، اسمحوا لي أن اعترف لكم:

كتبتُ هذه الرواية في غصون عشرة أشهر، ولم أقصد يومًا أن تكون كتابًا يُقرأ، لذلك أسال هذه الورقات: كم كنتُ أغرقها دعاءً ودموعًا لعلّي لا أعرى ولا أجوع ولا أحزن.

كم أخشى أن تكون هذه الورقات عارًا ضخمًا أضلّ أحمله على كتفي حتى في شيخوختي. وما بين عقلي وقلبي وقلمي نزال النبلاء؛ ليبقى شرف البقاء مستوطناً في ساحتي، أيًّا كانت النهاية؛ والنهاية مجرّد كلمة.

الورقة (١٢٩) كانت الأكثر نصيبًا من السعادة بين الورقات ففيها حضرت هناء. كان حبُّها الواقعَ الوحيد الذي عشته بأمان، لكنها سرعان ما تركتني لأتوه بين الخيال والواقع، ولا أدري حتى الآن: هل ما كتبته كان حقيقة أم خيالًا؟ هل كنتِ وهمًا؟ أم سرابًا؟ أنتِ انفاسٌ من نارٍ تتأجّج بين أضلعي وليتهم يعلمون. أيتها الشُواظ رِفقًا بالطين. كان عليكِ أن تُظهري بعض اللطف، والكثير من الرحمة؛ فما خُلقنا لنُعذَّب.

هناء ... تركتِ في ذهني سؤالاً: كيف تمكّنتِ من أن ترثي كلَّ هذا العشق؟ اتركيني أحجز مقعدًا في ذاكرتكِ قبل أن تنزعني الأيام؟ كما فعلت بي مع تلك الآسرة التي لم تعد تتذكّرني تمامًا.

كم تمنّيتُ أن أتلاشى بين جلدي وخلاياي، وأن أمتزج بين بنفثاتي وتمتماتي، لعلّي أحظى بوصالٍ في عالمٍ لم يكن لي فيه قدر. "لكنّ التمنّي لا يُقيم قدرًا، ولا يُبدّل ما لم يُبدّل من اللوح".

حاولتُ أن تكون الرواية (٣٨٣) ورقة - حاجةً في نفس يعقوب - لكنني لم أستطع إتمامها. الخوض في عالم الجان يثير غرائزهم، وقد اقتربتُ حتى تلاشيْت. أتعبتني هذه الرواية، وسمحتُ للعالم الآخر بالدخول إلى عالمي دون إذن، فعرّضتني لنفثات شيوخ واغتسالات بالسدر لم يكن لها أثر... سوى أنها حسّنت من جودة شعري المتساقط!

بين هذه الأساطير والمعجزات والخيال، جلستُ أدخن يأسي بـ"فيب" أسود، أحقنه في رئتي، وأشمّ رائحة اللحم وهو يحترق، وحياتي كلها أصبحت معلّقةً عليكِ. أنتِ بداخلي أكثر مني، وأنا غريقٌ بكِ وكأنكِ الحياة! ولا أحد يلوم غريقًا إذا تمسّك بالحياة.

لم أقصد أن أكتب لتلك الآسرة التي تملكني ولا أملكها، لكن ذكرياتها المتطفّلة تحشر نفسها بين ورقاتي، وكأنها أقسمت أن تكون أساسًا في مساحتي الأدبية. كنتُ أستسلم برضًا، وأنقاد إليها بسكينة المؤمنين! أيتها الوريثة الوحيدة لقلبي هل ستعودين؟ لقد أقسمتُ أن أعانقكِ عناق مئة عام عندما أراكِ.

بعض الأرقام المكتوبة في هذه الورقات لم تُكتب عبثًا، هي أسرار بيني وبين تلك الآسرة، وهي وحدها تعرفها وتدرك معناها. وأنا على يقين بأنها لن تقرأ روايتي، فهي مشغولة بقراءة ذنوبي التي مضت!

ظلّ اسم الآسرة يتردّد في الرواية، كصدى امتدّ لخمس وأربعين عامًا، "تمامًا كعمرها". ومع كل تكرار، كنتُ أكبر بصمت؛ غزاني الشيب، وارتسمت الهالات على وجهي. لم يكن النضج منحة الزمن، بل كان فِراقكِ هو من علّمني أن أكبر دون أن أعيش. كبرتُ كما تكبر الأشجار في المقابر؛ واقفًا، لكن بلا حياة.

كنتُ أتمنى لو نجحتِ في تشخيص علّتي قبل أن أتعرى إلى هذا الحد! ولكنكِ معذورة... لانشغالكِ. ربما لو أمعنتِ النظر قليلاً، لرأيتِ في عيوني ما لم تكتبه الكتب. لكنّي بقيتُ وحيدًا، أحاور صمتي في غرفة بلا نوافذ.

الأسئلة المتكررة، رغم أنها تنتهي بعلامة استفهام، تخفي وراءها دموعًا مكبوتة، ومرارة خيباتٍ لا تنتهي، وحنينًا لا يفارقني. كنتُ وما زلت أطهو آمالي على نار الصبر، وأعجن خيباتي في عجين الوحدة، أصنع من الأمل خبزًا هشًّا يتشبث بعودتكِ.

طبعتُ الرواية مرتين لمراجعتها وتدقيقها، وكان قلبي يشعر بالخجل... لأني عشقتُ امرأتين. فعشق امرأتين إنجازٌ يستحق جائزة نوبل!

بحثتُ عنكِ في أشباهكِ الأربعين... ولم أجدكِ. كتبتُ لكِ (٩٥٠) ورقة في كتبٍ متفرقة، ونظرتُ إلى برجكِ كل مساء، علّه يخبرني أنكِ مشتاقة إليّ... حاولت، وفشلت. كان القدر يبعدني عنكِ وإن اجتهدتُ ألف مرّة.

أدركتُ أخيرًا انّ للإنسان حيوات أخرى، تدور بين أفلاك ومجرات، وروحًا تسكن بين أحرف وكلمات، أنفاسًا تتشكل في أحلامٍ من ضباب.

أنا بخير... هي فقط رضوضٌ في المشاعر، وكسرٌ عميق في الخاطر، وجروحٌ نازفة على ذاكرةٍ مثقلة، وحنينٌ كالطفل يشتاق إليكِ.

كمية الاحساس الخيالي كانت كافية لخلق قصةٍ وهميةٍ لغائبٍ منتظر، مللتُ الحزن والانتظار، وتصالحتُ مع الكتابة. كتبتُ هذه الرواية مباشرة على صفحة Word احترامًا لورقاتي، فهي لا تستحق أن تتّسخ أو تتمزق، أو تحزن معي... يكفيها ما نالها من تجاهل.

ترددتُ كثيرًا في نشر هذه الرواية، وبين تردّدي كتبتُ كتابًا بعنوان: (رحلة الموظف بين الموارد البشرية ونظام العمل السعودي). وتم النشر ٢ / ١٢ / ٢٠٢٤م وبما أن هذه الرواية هي آخر كتاباتي لكِ، فقد قررتُ أن أنشرها.

قراءة هذه الرواية إلى العينين اللتين أستمد منهما القوة والاستمرار (سديم وكنان). كانت سديم منبهرةً بما كتبت، وكان إصرارها قويًا على نشر هذه الروية كمن تمسك بكنزٍ لا يقبل التأجيل! أما كنان فأوضح أن هذا النوع من الروايات يستهدف اصدقاءه، دون أن يبيّن إن كان يعني الشباب أم الفتيات، وكأن الغموض جزء مما أراد قوله!

وضعتكما في مقام الروح،

مقامٌ لا يبلغه عابر، ولا تسكنه العابرات.

ليتكما كنتما تُدركان عمق ما كان.

لكن لا تنسيا... كلما طال الانتظار،

خمدتِ الرغبة، كما تخمد جمرةٌ بعيدة عن النَفَس.

في هذا الزمان، يتساقط الأحبّة عامًا بعد عام؛

بعضهم يذوب من الذاكرة كحبرٍ باهت،

وبعضهم ينزلق من القلب كما ينزلق الماء من كفٍ مفتوحة.

وأما أنتما... فقد سقطتما من العين، سقوطًا لا يُلتقط بعده.

كل الرسائل...

التي لم أستطع إرسالها إليكِ،

أصبحت ورقاتٍ في كتاب يقرؤه الجميع.

قررت أن أعتزل الكتابة، سأحبكِ بلا رسائل، بلا تواصل، كما يطوي النهرُ آلامه في صمتٍ عميق.

وإن غبتِ عن عيني، فلكِ في خيالي لقاء، حيث لا حدود للغائبين إلا في الزمن.

أحيانًا، تكون الرسائل المفقودة أكثر وضوحًا من الكلمات التي تم إرسالها.

تفوح رائحة قهوتي من فنجاني الأزرق؛ رفيقة كتاباتي وحرّاس أسراري. تسايرني حين يطول المساء، وتعانق سكوني كما تعانق الموجة شاطئها، وتشتاق لمشاكساتي كما يشتاق الليل لنجمته الوحيدة.

ها هي تهمس لي الآن، بخارها يتراقص كأنّه خيط حلمٍ على نغمة فناني المفضّل "عمرو دياب"، وكأن الفنجان يبتسم كلما امتدت يدي إليه.

ما حبتش غيرك وأعمـل إيه في شـوقي وهوايَا.

ولـيلي ونـهاري بـفكر فـيك ما تـرجع كفـاية.

أنا عايش ومش عايش ومش قادر على بعدك.

وَلا عارف في يوم أنسى ولا عايز حبيب بعدك.

لم يبقى شيء يُكتب ...!

الحمد لله الذي علَّم بالقلم، علَّم الإنسان ما لم يعلم. له الحمد أولَه وآخرَه، ظاهرَه وباطنَه، إذ يسّر لنا إتمام هذا الكتاب.

شكرًا لقلوبكم الرحبة التي رافقتني في هذه الصفحات، بين وجعٍ يُوجِس وابتسامةٍ تخفُّ، إذ حاولتُ أن أُجري أقلامنا معًا على جسد واقعٍ أضنانا، ونهرب قليلًا صوب خيالٍ تتلألأ فيه بارقة التشويق.

آمل أن أكون قد أصبتُ بعض ما قصدت، وأن وجدتم بين السطور ظلَّ راحةٍ أو قبسَ فكرةٍ تضيء. "وما الحياة إلا رحلة بين جراحٍ توقظنا وأحلامٍ تسندنا؛ فلا نحن ننكسر تمامًا ولا نكتمل"

عزيزي القارئ، إن استعصت عليك فكرة، أو رغبت في فتح دائرة حوار حول موضوعٍ متصل بكتاب "آنستُ نارًا"، يسعدني تواصلك عبر الكود التالي:

صدر للكاتب ...

رسالتي

لمحات من نظام العمل السعودي

أبجديات الأناقة

أوراق سقطت من مذكرتي

رحلة الموظف بين الموارد البشرية ونظام العمل السعودي

حذّرتها من نارِ الحب،
فلما أحبّت
جاءتني على استحياء وخجل
وقالت: إني آنستُ نارًا
فكنتُ لها مطيعًا كطاعة إسماعيل لأبيه.
وليتك كذّبتِ الرؤيا
ولم تذبحيني.